مجلـــة الإيسيسكو

ثقـــافية فصليـــة شـــاملة | العدد 7 - يوليو 2026

قازان

عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي 2026

10
ملايين زائر لمعرض ومتحف السيرة النبوية

مقاصد الإيسيسكو
ومدى انطباقها على التجربة الثقافية اللبنانية

اللغة العربية وأسئلة الهُويّة المعرفية
ملف العدد

عندما تُصبح الكاميرا جناحًا

د. سالم بن محمد المالك
عنوان المرحلة الجديدة
تعظيم الأثر وترسيخ الشراكات

أعمال الدورة الـ 46 للمجلس التنفيذي للإيسيسكو - مقر الإيسيسكو - 6 مايو 2026

هيئة التحرير

المشرف العام
الدكتور سالم بن محمد المالك
المدير العام للإيسيسكو

رئيس التحرير
روضة الحاج

مدير التحرير
د. أنس النعيمي

أعضاء هيئة التحرير
د. محمد العنزي
د. زيد أبو شمعة
أ. محمد الشيخي
أ. عادل بوراوي
د. رنا الأصبحي

الإخراج الفني
مركز الترجمة والنشر

رقم الإيداع القانوني
2025PE0012

www.icesco.org
info@icesco.org

الآراء الواردة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي منظمة الإيسيسكو

كريملين قازان

مجلـــة الإيسيسكو

ثقـافية فصليـة شـاملة

العدد 7 | يوليو 2026

منظمة الإيسيسكو
شارع الجيش الملكي، حي الرياض
ص.ب. 2275، ر.ب. 10104، الرباط، المملكة المغربية

الموقع الإلكتروني للمنظمة
www.icesco.org

البريد الإلكتروني للمنظمة
Contact@icesco.org

البريد الإلكتروني للمجلة
icesco_magazine@icesco.org

+212-5375-66052

+212-5375-66012/13

مركز الإيسيسكو الإقليمي بالشارقة
طريق المدينة الجامعية - المدينة الجامعية - إمارة الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
www,icesco.org.ae
+971 6 507 0000

في هذا العـــدد

10 ملايين زائر
معرض ومتحف السيرة النبوية بالإيسيسكو 8

اللغة العربية وأسئلة الهُويّة المعرفية
ملف العدد 12

حوار خاص مع مدير عام الإيسيسكو
بمناسبة انطلاقة المرحلة الجديدة للمنظمة 30

قـــازان
جوهرة تتارستان وعاصمة الثقافة في العالم الإسلامي 2026 36

40 **عندما تُصبح الكاميرا جناحًا**
تجربة حليمة بوصديق

52 **مقاصد الإيسيسكو**
ومدى انطباقها على التجربة الثقافية اللبنانية

92 **الشاعر د. عـارف الساعدي**
الشِّعرُ مفتاحي للعالم !

96 **المشربيَّات العربيَّة**
إحدى أهم عناصر العمارة الإسلاميَّة،

أهل الكهف / الرقيم - الأردن - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

كلمة العدد

د. سالم بن محمد المالك
المدير العام

وتمضي الإيسيسكو إلى مرحلتها الجديدة مُكلَّلةً بثقة دولها الأعضاء، بعد أن جدَّد مؤتمرها العام الثقة في قيادتها بإعادة انتخاب مديرها العام لولايةٍ جديدة، في مشهدٍ عبَّر عن تقديرٍ عميق لمسيرةٍ حافلةٍ بالتحول والإنجاز، شهدت خلالها المنظمة اتساعاً في مجالات عملها، وتعاظماً في حضورها، و تقديراً لبرامجها و مبادراتها وترسيخاً لمكانتها بوصفها أبرز المؤسسات الثقافية التربوية والعلمية في العالم الإسلامي.

ولعلَّ الإجماع الذي تم في أعمال المجلس التنفيذي، والذي انعقد عبر التقنيات المرئية موصياً بالتجديد للمدير العام، كان تعبيراً صريحاً عن قناعة الدول الأعضاء بما تحقق من منجزاتٍ خلال السنوات الماضية، وعن إيمانها بالرؤى التي انطلقت بها المنظمة نحو آفاقٍ أكثر اتساعاً وتأثيراً. وقد شمل التجديد أربع سنواتٍ تمثل الولاية النظامية، إلى جانب عامين تعويضيَّين عن فترة جائحة كورونا، استكمالاً للمشروعات والمبادرات التي تأثر تنفيذ بعضها بظروف تلك المرحلة الاستثنائية التي فرضت تحدياتها على العالم أجمع، ليعتمد المؤتمر العام وبإجماع الدول الأعضاء أيضاً هذه التوصية في دورته الخامسة عشرة والتي احتضنتها مدينة قازان الجميلة عاصمة جمهورية تتارستان.

شهدت الإيسيسكو خلال الأعوام الماضية حراكاً واسعاً في مجالات التربية والعلوم والثقافة والاتصال، حيث تعددت المبادرات النوعية، واتسعت دوائر الشراكات، وتعزز حضور المنظمة في المحافل الدولية، و تطورت البرامج و المشاريع حتى غدت منصةً للمثاقفة والحوار، وجسراً للتبادل المعرفي والثقافي بين دول العالم الإسلامي ومؤسساته العلمية والفكرية، وبيتاً مرجعياً للخبرة، و منظمة ناضجة بالإبداع و الابتكار، وفي هذا السياق اعتمد المؤتمر العام جملةً من القرارات التي تؤسس لمرحلةٍ جديدة من العمل المؤسسي، حيث وافق على استمرار جمهورية مصر العربية في رئاسة أعمال المؤتمر، مع استمرار ممثل جمهورية السنغال نائباً للرئيس، وممثل جمهورية المالديف مقرراً، في تأكيدٍ على روح التوافق والتعاون التي تميز عمل المنظمة وأجهزتها المختلفة.

كما شهدت جلسات المؤتمر انضمام جمهورية تركمانستان وجمهورية البرازيل الاتحادية، بصفة أعضاء مراقبين لدى الإيسيسكو، بما يعكس اتساع دائرة الاهتمام الدولي برسالة المنظمة، كما اعتمد المؤتمر كذلك تقرير المجلس التنفيذي عن أعماله بين الدورتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة، إلى جانب تقرير الإدارة العامة عن أنشطة المنظمة خلال الأعوام 2021 ـ 2025، والتقارير المالية ذات الصلة، في خطوةٍ تؤكد حرص الإيسيسكو على ترسيخ مبادئ الشفافية والحوكمة الرشيدة، وتعزيز استدامة مواردها بما يُمكِّنها من تنفيذ برامجها وفق أولويات الدول الأعضاء واحتياجاتها المتجددة.

وقد مثلت اجتماعات قازان مساحةً واسعةً للتفكير في مستقبل العمل الثقافي والتربوي والعلمي في العالم الإسلامي، حيث نوَّهت الوفود بما حققته الإيسيسكو من جهودٍ في مجالات دعم التعليم، وصون التراث، وتمكين الشباب و إشراك و تقدير المرأة، وتعزيز الابتكار والتحول الرقمي، وبناء القدرات، وتبادل الخبرات والمعارف، بما يجعل من الثقافة والعلوم والتربية أدواتٍ مهمة في صناعة الاستقرار وتعزيز التنمية و ترسيخ السلام وبناء الإنسان، وفي قازان أيضاً؛ حيث تتجاور المآذن والقباب وتتعانق الذاكرة الإسلامية مع الفضاء الروسي الرحب، بدت الثقافة حاضرةً في تفاصيل المشهد كله، من اللقاءات الثنائية إلى النقاشات الفكرية، إلى التوجه نحو إطلاق مشاريع جديدة للتعاون في مجالات الابتكار وريادة الأعمال والتكنولوجيا، فضلاً عن بحث إنشاء مكتب للإيسيسكو في تتارستان، بما يفتح آفاقاً إضافية لحضور المنظمة وإشعاعها الثقافي والمعرفي.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى الدول الأعضاء، وهي تواصل دعمها المتصل لمسيرة الإيسيسكو، إيماناً برسالتها الحضارية وأدوارها المتعاظمة في خدمة مجالات التربية والعلوم والثقافة. كما أحيي اللجان الوطنية التي ظلت جسوراً قوية للتنسيق والتعاون، وأسهمت بجهودها المخلصة في تحويل المبادرات إلى منجزاتٍ ملموسة. والتحية الخالصة كذلك إلى جميع العاملين والعاملات بالمنظمة، الذين آمنوا برسالتها، وبذلوا من الفكر والوقت والجهد ما جعل هذه النجاحات واقعاً معيشاً.

وختاماً واستجابةً لرغبة عدد من المهتمين في الدول الأعضاء؛ فقد تم توجيه مركزي الشعر والأدب والنشر والترجمة للعمل واعتباراً من هذا العدد على صدور هذه المجلة باللغات الثلاث المعتمدة بالمنظمة.

وتمضي الإيسيسكو إلى أعوامها الجديدة، مستندةً إلى ثقة دولها الأعضاء، وإلى إيمانٍ راسخ بأن التربية والعلوم والثقافة هي الممرات الكبرى التي تعبر عبرها الأمم نحو التقدم والاستقرار والسلام.

المرصد الفلكي لمدينة قازان - تتارستان - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

كلمة التحريـــر

عددٌ جديد يشبه فصله، حيويةً وتعدداً، تنضج فيه الثمار بعد طول غرسٍ ورعاية، وتشرق معه آفاقٌ جديدة لمسيرة الإيسيسكو، وهي تمضي بثبات نحو ترسيخ رسالتها في خدمة التربية والعلوم والثقافة، مؤمنةً بأن الاستثمار في الإنسان يظلُّ الطريق الأقصر إلى مستقبلٍ أكثر أمناً وازدهاراً وعدلاً. ويأتي هذا العدد وقد ازدانت مسيرة المنظمة بمحطةٍ جديدة، حملت معها تجديد الثقة في قيادة الإيسيسكو، عبر تجديد ولاية معالي المدير العام لست سنوات جديدة، في تعبيرٍ صادق عن ثقة الدول الأعضاء في الرؤية التي انتهجتها المنظمة، وما حققته من حضورٍ متنامٍ على المستويات الدولية كافة، وما أطلقته من مبادراتٍ نوعية، جعلت من الإيسيسكو شريكاً فاعلاً في صناعة المستقبل، ومنبراً للحوار الحضاري، وجسراً للتعاون بين الشعوب والثقافات.

وفي هذا السياق، يضم العدد حواراً شاملاً مع معالي المدير العام، يتناول ملامح المرحلة المقبلة، ورؤية المنظمة لأولوياتها المستقبلية، واستكمال مسيرة البناء والتطوير، في ظل التحولات المتسارعة التي يشهدها العالم.

ويحمل غلاف هذا العدد صورة مدينة قازان، عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي لعام 2026، احتفاءً بمدينةٍ استطاعت أن تقدم نموذجاً فريداً للتفاعل الخلّاق بين الحضارات، وأن تجمع بين أصالة التراث وروح العصر، لتغدو فضاءً رحباً للحوار والإبداع والتنوع الثقافي.

ولأن اللغة العربية ليست مجرد وسيلة للتعبير، وإنما وعاءٌ للهوية، فقد خصصت المجلة ملفها لهذا العدد تحت عنوان «اللغة العربية... سؤال الهوية المعرفية»، عبر أربع مقالات تتناول العلاقة بين اللغة وإنتاج المعرفة، والتحديات التي تواجه العربية في عصر الذكاء الاصطناعي والتحول الرقمي، وآفاق تجديد حضورها في البحث العلمي والتعليم والثقافة.

ويواصل معرض ومتحف السيرة النبوية بالإيسيسكو مسيرته المباركة، بعد أن تجاوز عدد زواره عشرة ملايين زائر، في إنجازٍ يعكس المكانة الرفيعة لهذا المشروع الحضاري، الذي أصبح منارةً للتعريف بالسيرة العطرة، وتجسيداً للقيم الإنسانية الرفيعة التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ومقصداً لزوارٍ يفدون إليه من مختلف أنحاء العالم، يحملهم الشوق إلى معرفةٍ أعمق بسيرة الرحمة المهداة.

ويزدان هذا العدد أيضاً بإسهاماتٍ فكرية وثقافية متنوعة، من بينها مقالٌ متميز لسعادة سفير الجمهورية اللبنانية لدى المملكة المغربية، يتناول فيه أوجه الالتقاء بين مقاصد الإيسيسكو وتجربة لبنان الثقافية والحضارية. وفي باب الحوارات، يلتقي القارئ بالشاعر العراقي عارف الساعدي، في حديثٍ يفيض بالشعر والثقافة وأسئلة الإبداع، كما يستضيف العدد الخبير التربوي الدكتور محمد الدريج، في حوارٍ يتناول قضايا التربية، ومستقبل المدرسة، وتحديات بناء الإنسان في زمن التحولات الكبرى مع باقةٍ متنوعة من الدراسات والقراءات والإبداعات الأدبية والفكرية، التي تجمع بين عمق الطرح وتنوع الرؤى، إيماناً منها بأن الثقافة تظل المجال الأرحب للحوار، وأن المعرفة هي الاستثمار الأبقى في مستقبل الأمم.

ولا بد لي في ختام هذه الكلمة الموجزة من تجديد الشكر لكل المتعاونين مع المجلة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وكل المتابعين لمسيرتها، وأود أن أخص بالشكر الخبراء والصحفيين الذين شاركوا معنا في ندوة تجربة مجلة الإيسيسكو الثقافية والتي أقيمت بمعرض الرباط للكتاب في دورته الحادية والثلاثين نهار الأربعاء 6 مايو 2026 وقد استصحبنا الكثير من مقترحاتهم وأفدنا منها، شكراً د. المحجوب بنسعيد ود. الصديق عمر الصديق والأستاذ ميرزا الخويلدي ود. خديجة السعيدي ود. محمد المتيم والأستاذ محمد الصويري والأستاذة فرحانة عياش والأستاذ مصطفى المعطاوي.

ويسعدني ونحن نضع بين أيديكم هذا العدد الصيفي الجديد، أن أزف إليكم بشرى صدور المجلة واعتباراً من هذا العدد باللغات الثلاث للمنظمة: العربية والفرنسية والإنجليزية، إنفاذاً لتوجيهات معالي المدير العام في شراكة تجمع مركزي الشعر والأدب والنشر والترجمة بالمنظمة، ما يعزز رسالتها الحضارية ويضيف إليها أجنحة جديدة لتحلق في فضاءات أبعد.

نجدد العهد بأن تظل مجلة الإيسيسكو الثقافية منبراً للفكر الرصين، ونافذةً على الإبداع في العالم الإسلامي، وجسراً للتواصل بين مثقفيه ومبدعيه، مساهمةً في ترسيخ قيم المعرفة والتسامح والتعاون، ومواصلةً رسالتها في خدمة الإنسان، حيثما كان.

ICESCO_MAGAZINE@ICESCO.ORG

روضة الحاج

10 ملايين زائر

لمعرض ومتحف السيرة النبوية بالإيسيسكو في الرباط

يعدّ التوجيه السامي من الملك محمد السادس بالإبقاء على المعرض وتوطينه بشكل دائم بمقر الإيسيسكو أبرز المحطات المفصلية في مسيرة هذا المشروع الحضاري

في قلب العاصمة المغربية الرباط، وتحديدًا داخل مقر منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، ينهض معرض ومتحف السيرة النبوية والحضارة الإسلامية بوصفه واحدًا من أهم المشاريع الثقافية والحضارية في العالم الإسلامي خلال السنوات الأخيرة. فمنذ افتتاحه في نوفمبر 2022، تحوّل هذا الفضاء المعرفي إلى مقصد روحي وثقافي يستقطب الزائرين من مختلف أنحاء العالم، جامعًا بين أصالة الرسالة الإسلامية وحداثة وسائل العرض والتقنيات التفاعلية.

وقد احتفلت الإيسيسكو مؤخرًا ببلوغ عدد زوار المعرض والمتحف أكثر من عشرة ملايين زائر، في رقم يعكس حجم الإقبال الكبير الذي حظي به المشروع، الذي يقوم في مدينة يتجاوز عدد سكانها المليون نسمة بقليل، فقد وفدت وفود المحبين والزوار من أطراف المغرب ومدنه وقراه، بل ومن خارج المغرب أيضاً تستضيء بقبس النبوة وتتعطر بأريج السيرة المباركة لسيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام، ما يؤكد نجاح المعرض في تقديم السيرة النبوية الشريفة بصورة معاصرة تجمع بين المعرفة والتأثير الوجداني.

مشروع حضاري عالمي

جاء إنشاء المعرض ثمرة شراكة استراتيجية بين الإيسيسكو ورابطة العالم الإسلامي والرابطة المحمدية للعلماء، ضمن توصيات المؤتمر الدولي(القيم الحضارية في السيرة النبوية) تحت الرعاية السامية لجلالة الملك محمد السادس نصره الله، بهدف تقديم صورة مشرقة عن الإسلام تقوم على قيم الرحمة، والعدل، والتسامح، والتعايش. ويُعد هذا المتحف الأول من نوعه خارج المملكة العربية السعودية، الأمر الذي منح الرباط مكانة ثقافية وروحية متميزة باعتبارها حاضنة لهذا المشروع الحضاري الكبير.

ولا يقتصر دور المعرض على عرض أحداث السيرة النبوية بطريقة تقليدية، بل يعتمد على تقنيات رقمية متطورة وعروض تفاعلية بانورامية تحاكي تفاصيل الحياة النبوية، وتُقرّب الزائر من الأجواء التاريخية والإنسانية لعصر الرسالة. كما يضم المتحف "بانوراما الحجرة النبوية الشريفة" وتقنيات عرض ثلاثية الأبعاد، إلى جانب محتوى علمي موثق مستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية والمراجع التاريخية

تجربة معرفية وروحية متكاملة

يتميز المتحف بكونه لا يقدم معلومات تاريخية فحسب، بل يصنع تجربة وجدانية متكاملة يعيش خلالها الزائر لحظات من التأمل الروحي والمعرفة الحضارية. فالمسار الداخلي للمعرض صُمم بعناية ليروي قصة الإسلام منذ البعثة النبوية وحتى إشعاع الحضارة الإسلامية في مختلف المجالات العلمية والفكرية والإنسانية.

ويجد الزائر نفسه أمام تجربة تجمع بين الصوت والصورة والتقنيات التفاعلية الحديثة، بما يجعل السيرة النبوية أقرب إلى الإدراك الحي، خاصة لدى الأجيال الجديدة التي تتفاعل بصورة أكبر مع الوسائط الرقمية الحديثة. ولهذا نجح المعرض في استقطاب فئات عمرية وثقافية متنوعة، من طلاب وباحثين وسياح ومثقفين ووفود رسمية من داخل المغرب وخارجه.

إن بلوغ عدد زوار المتحف أكثر من عشرة ملايين خلال فترة وجيزة نسبيًا مؤشر على تعطش المجتمعات الإسلامية والإنسانية عمومًا إلى خطاب حضاري متوازن

عشرة ملايين زائر... رقم يتجاوز الإحصاء

إن بلوغ عدد زوار المتحف أكثر من عشرة ملايين خلال فترة وجيزة نسبيًا لا يمكن النظر إليه بوصفه مجرد رقم إحصائي، بل هو مؤشر على تعطش المجتمعات الإسلامية والإنسانية عمومًا إلى خطاب حضاري متوازن يُعرّف بالإسلام.

أصبح معرض ومتحف السيرة النبوية والحضارة الإسلامية بالرباط أكثر من مجرد فضاء ثقافي؛ إنه مشروع حضاري عالمي يجسد قدرة الثقافة الإسلامية على مخاطبة العصر بلغته

وقد أكدت الإيسيسكو أن هذا الإقبال الكبير يعكس نجاح المتحف في أداء رسالته الثقافية والروحية، وتحوله إلى فضاء عالمي للحوار الحضاري والتعريف بالقيم الإسلامية السمحة. كما أن الاحتفالية التي أُقيمت بمناسبة الزائر رقم عشرة ملايين شهدت حضور شخصيات فكرية وثقافية ودينية بارزة، وأبرزت المكانة التي أصبح يحتلها المتحف في المشهد الثقافي الإسلامي الدولي.

التوجيه الملكي بتوطين المتحف

ومن أبرز المحطات المفصلية في مسيرة هذا المشروع الحضاري، التوجيه السامي من الملك محمد السادس بالإبقاء على معرض ومتحف السيرة النبوية والحضارة الإسلامية وتوطينه بشكل دائم داخل مقر الإيسيسكو بالرباط. لينسجم هذا التوجيه الملكي السامي مع الرسالة القرنية التي وجهها جلالة الملك للمجلس العلمي الأعلى بالمملكة المغربية وللأمة الإسلامية للعناية بالسيرة النبوية، وقد جاء هذا القرار تقديرًا لما حققه المتحف من إشعاع ثقافي وحضاري واسع، ولما يمثله من قيمة رمزية وفكرية في خدمة السيرة النبوية والتعريف بحضارة الإسلام.

ويحمل هذا التوجيه الملكي دلالات عميقة، فهو يعكس العناية الخاصة التي يوليها المغرب، بقيادة الملك محمد السادس، للشأن الديني والثقافي، كما يؤكد مكانة الرباط بوصفها عاصمة للثقافة والحوار الحضاري. كذلك فإن توطين المتحف يمنحه بعدًا مؤسسيًا واستراتيجيًا طويل الأمد، ويهيئ له فرصًا أوسع للتطوير والانفتاح على جمهور عالمي أكبر.

الإيسيسكو ودورها في تعزيز الحوار الحضاري

يمثل هذا المشروع امتدادًا للرؤية الثقافية والحضارية التي تتبناها الإيسيسكو، القائمة على بناء جسور التواصل بين الحضارات وتعزيز قيم السلام والتفاهم الإنساني. فمن خلال هذا المتحف، لا تُقدَّم السيرة النبوية باعتبارها تاريخًا دينيًا فحسب، بل باعتبارها نموذجًا إنسانيًا عالميًا يحمل قيم الرحمة والعدل واحترام الإنسان. وقد دشّن ولي العهد مولاي الحسن هذه المعلمة في نوفمبر 2022 ضمن برامج الرباط عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي للعام2022، بما لهذا البرنامج الحضاري من أبعاد متصلة بالقيم المرتبطة بالسيرة النبوية والهدي المحمدي.

تحوّل معرض ومتحف السيرة النبوية بمقر الإيسيسكو بالرباط إلى فضاء معرفي رحيب ومقصد روحي وثقافي يستقطب الزائرين من مختلف أنحاء العالم

وقد نجحت الإيسيسكو عبر هذا المشروع في توظيف التكنولوجيا الحديثة لخدمة الثقافة الإسلامية، مقدمة نموذجًا جديدًا للمؤسسات الثقافية في العالم الإسلامي، حيث يلتقي التراث بالابتكار، والمعرفة بالإبداع، والروحانية بالعرض البصري المعاصر.

ختامًا

لقد أصبح معرض ومتحف السيرة النبوية والحضارة الإسلامية بالرباط أكثر من مجرد فضاء ثقافي؛ إنه مشروع حضاري عالمي يجسد قدرة الثقافة الإسلامية على مخاطبة العصر بلغته وأدواته الحديثة. ومع تجاوز عدد زواره عشرة ملايين، ثم صدور التوجيه الملكي بتوطينه داخل مقر الإيسيسكو، يدخل المتحف مرحلة جديدة من التأثير والإشعاع، مرشحًا لأن يكون أحد أهم المعالم الثقافية والروحية في العالم الإسلامي خلال العقود المقبلة.

إنه فضاء يعيد تقديم السيرة النبوية للعالم بروح العلم والجمال والرحمة، ويؤكد أن الحضارة الإسلامية ما تزال قادرة على الإسهام في بناء عالم أكثر إنسانية وتسامحًا.

يمثل هذا المشروع امتدادًا للرؤية الثقافية والحضارية التي تتبناها الإيسيسكو، القائمة على بناء جسور التواصل بين الحضارات وتعزيز قيم السلام والتفاهم الإنساني

اللغة العربية

بين واقع مُغْن وتغريب مُضْن

أ.د. عطاء الله بن أحمد الأزمي

الأمين العام للرابطة المغاربية لحماية اللغة العربية

المغرب

تمتد اللغة العربية بين ماض زاخر تليد، ومستقبل واعد أكيد، يجسده واقع، رغم مختلف الإكراهات والمعيقات البنيوية والذاتية والموضوعية، متنام وليد. فالمتتبع لتطورات العربية وواقعها، سواء على المستوى العربي والإسلامي، أو على المستوى الدولي، وحتى عند المقارنة بينها وبين لغات العالم الحية الأخرى، من ماندرانية (صينية)، وأردية (هندية) وإسبانية، وأنجليزية... يقف على المتغيرات والتفاعلات الإيجابية تجاه تعلم اللغة العربية وتعليمها: نطقا، وكتابة، وتواصلات علمية واجتماعية واقتصادية... وغيرها.

وإذا كانت منظمة اليونسكو قد أعلنت منذ عقود، الثامن عشر من دجنبر يوما عالميا للغة العربية، فإن واقع اللغة العربية اليوم على المستوى الدولي بين لغات العالم الحية، واقع مغن ومشجع ومطمئن عموما ، فالعربية يتحدثها الآن أكثر من 500 مليون من الأشخاص عبر العالم، وهي لغة رسمية في العديد من الدول، ليس فقط العربية، بل حتى الإسلامية، وهي من بين اللغات الخمس أو الست المعتمدة بهيأة الأمم المتحدة، ولغة رسمية كذلك بعدة مؤسسات ومنظمات وهيآت إقليمية ودولية، وتحتل حاليا المرتبة الخامسة عالميا، زد على ذلك أن دولا أوروبية وأمريكية وآسيوية، اعتمدت اللغة العربية بصفتها لغة ثانية أو ثالثة بمدارسها ومؤسساتها التعليمية ومعاهدها العليا، بل من الدول العالمية من جعلت اللغة العربية لغة إجبارية بمؤسساتها التعليمية، إلى جانب لغتها أو لغاتها الرسمية. هذا كله، يوحي بأن العربية تتمتع عالميا بالاعتراف والتقدير والترتيب والاعتماد والاستشراف المستقبلي.

لكن، هل تحيا لغتنا العربية الوضع الاعتباري نفسه بالدول العربية أو الناطقة بها؟

أولا: العربية: بين الثراء والتعدد والتأرجح:

أ- ثراء معجمي وتنوع ثقافي:

علاوة عن استعمال اللغة العربية اليوم من لدن ما يفوق 500 مليون شخص عبر العالم، وعن رتبتها المتقدمة عالميا، وتبنيها لغة رسمية أو ثانية من لدن دول ومنظمات ومؤسسات غير عربية، فيكفي أن نشير إلى ثراء معجمها الذي يفوق 12 مليون مفردة، وبالضبط: 12.302.912 دون تكرار، مقارنة باللغة الأنجليزية مثلا: 600.000 مفردة فقط، أو الفرنسية 150.00، واللغة الروسية: 130.000، والصينية: 122.800، والتركية: 111.000، في حين يبلغ معجم اللغة الألمانية من المفردات: 5.300.00...ألخ.. هذا، دون الحديث عن المفردات والمصطلحات العربية المولدة أو المستحدثة والمشتقة ارتباطا بالثورة الرقمية والتكنولوجية(مثل: فسبك من الفايسبوك ...) والتي تم اعتماد بعض منها من لدن مجمع اللغة العربية بالقاهرة مؤخرا، وغيرها كثير.

إن المطلع على الثقافة العربية، ولنقل الثقافة المكتوبة بالعربية، يقف على الكم الهائل والنوع المماثل من التنوع والتعدد.. وهو تعدد غنى لا تعدد اختلاف.. فمن الشعر بأنواعه، والنثر بأنماطه، وسائر الأجناس الأدبية والفنية، والعلوم الشرعية والوضعية: الإنسانية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية .. والحقة، مثل الطب، والعلمية التجريبية مثل الفيزياء والكيمياء ...فالعديد من العلوم التي يبرع فيها الغرب حاليا هي من إنتاج واختراع عربي خالص.. كما نسجل الاستفادة الثرية من الترجمة من الثقافات والحضارات الأخرى... نسوق هذا اختصارا شديدا، وغير ذلك، بما فيه التكنولوجيا الرقمية والمستحدثة، لنؤكد على حقيقة واحدة، إذا كان الطب يدرس خلال القرن 14 و15 باللغة العربية بأوروبا (هولاندا، فرنسا، أنجلترا..) كما بالمغرب مثلا(القرويين)، فهذا دليل قاطع وساطع على أن اللغة العربية هي لغة العلم، كما هي لغة التواصل، ولغة الأدب والشعر والسرد.. وهي قادرة على احتواء مختلف العلوم... وإن كان من قصور ففي مستعمليها لا فيها. ولا أدل على ذلك من اللغة العبرية التي كانت إلى حدود سنة 1948، لغة ميتة، قبل أن يتم إحياؤها من جديد وتصبح لغة المغتصب الصهيوني في جميع المجالات .

إن المطلع على الثقافة العربية، ولنقل الثقافة المكتوبة بالعربية، يقف على الكم الهائل والنوع المماثل من التنوع والتعدد.. وهو تعدد غنى لا تعدد اختلاف

ب- واقع تعدد وتدبير متأرجح:

اللغة كيان وقوة وسلطة وبعد ثقافي وهوياتي.. وحرب بل حروب من أجل السيطرة والهيمنة والبقاء...« وهي حرب بالمعنى المجازي حينا، وحرب بالمعنى الحقيقي في أغلب الأحيان. وهي حرب في الشق الداخلي من اللغة، في نظامها الداخلي وبنيتها وتطورها، وحرب في الشق الخارجي منها في علاقتها بغيرها وفي علاقتها بمجتمعها».

من هنا، يتسم الواقع اللغوي بالعديد من الدول العربية بالتعدد، وهو تعدد أفضى، لدى بعض منها - وبدرجات متفاوتة، وفي غياب سياسة لغوية واضحة لتدبيره - إلى فوضى لغوية، أنتجت واقعا متشرذما لغويا.

هذا التشظي أو التذبذب، وغياب الإرادة السياسية الحقيقية، والتقاعس عن تفعيل المقتضيات الدستورية...وغيرها كثير، كل ذلك، لا يمكن إلا أن يفضي إلى فوضى لغوية تشهدها بلدانها، بل إن منها من عاش عقودا من الزمن، منذ استقلالها إلى الآن، في تأرجح بين تبني التعريب، والتراجع عنه، والرجوع إلى التعريب، ثم التخلي عنه، فأضحت، كما يشير اللساني العالمي المغربي الشهير الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، في وضعية : اللا لغة (- Ni langue). وإذا كان الوضع اللغوي متسما بالتعدد والثراء والغنى والشمولية من عربية و(أمازيغية(بأنواعها) وحسانية، بالمغرب على سبيل المثال)، وتعبيرات ثقافية ولغات أجنبية أخرى، من عبرية وأنجليزية وإسبانية وفرنسية،، فإن ذلك لا يعكس الواقع اللغوي وواقع التعدد اللغوي المتسم بالفوضى والتشرذم، حيث لا يُلمس في الحياة العامة والإدارات والمؤسسات... قد يكون هناك تقاعس، أو تراجع، أو غض للطرف، أو محاولات لفرض الأمر الواقع على المواطن العربي بمختلف شرائحه المجتمعية، كما قد يعكس ذلك سياسة لغوية وتخطيطا وواقعا لغويين متناقضين مع دساتيرها، وتدبير ا غير معقلن وغير دستوري يرهن مستقبل أبنائها وبناتها وأجيالها الحالية واللاحقة، ويؤثر تأثيرا واضحا على هوياتها الوطنية واللغوية، ويعطي هذا التشرذم المقصود فرصا ذهبية للمعادين للعربية، من الداخل والخارج، لشحذ معاول الهدم والإتيان على البقية الباقية من هويتها العربية الضاربة في جذور التاريخ. والحال أنه: «لا نقاش في أن الدولة طرف أساس في صنع القرار اللغوي، وأنها مسؤولة عن مصير اللغة الرسمية في حدودها، وخارجها».

ثانيا- التعريب: دعوات ودعاوى

أ. عن المفهوم:

تتعدد التحديدات التي يمكن وسم التعريب بها، لكنها لا تكاد تخرج عن مفهومين أساسين: «مفهوم ضيق، وهو إدخال الكلمة الأجنبية بلفظها إلى العربية بعد صبغها بصبغة عربية. مفهوم شامل، ...ونعني به: إحلال اللغة العربية محل اللغات الأجنبية التي زاحمتها في أوطانها إبان الاحتلال الأجنبي..» . وهناك من يذهب إلى أن التعريب، في عصرنا الحالي، «أصبح له مفهومان متكاملان: - الأول: وضع مصطلحات ومقابلات عربية لألفاظ أجنبية إغناء للغتنا وتطويرا لطاقاتها التعبيرية وتحديثا لمعجمها وتراكيبها بعد مرحلة من التخلف الثقافي والحضاري والتزمت اللغوي الذي مرت به المجتمعات العربية لعدة قرون...» .

تعزى الهيمنة الأنجلوفونية والفرانكفونية، إلى غياب الإرادة السياسية، متمثلة في وجوب احترام مقتضيات الدساتير العربية

ب. التعريب بين الاعتماد والتراجع:

لا يطرح التعريب بالحدة نفسها بجميع الدول العربية، خصوصا بدول الشرق الأوسط والخليج العربي، إذ تُعتمد اللغة العربية بمختلف دواليب الدولة والمجتمع والمرافق العمومية والخصوصية، من مؤسسات، وإدارات، وصحة، وتعليم، ألخ... وأساسا بالتعليم الذي يتم باللغة العربية بجميع مراحل التدريس، بما في ذلك الجامعة والتعليم العالي، في الوقت الذي شهدت فيه الدول المغاربية اعتمادا تدريجيا للتعريب منذ استقلالها، علما أن دساتيرها تعتمد اللغة العربية لغة رسمية، ومنها من أصدر قوانين صارمة بوجوب تعريب التعليم والإدارة والتشريع والقضاء، وجميع المرافق العامة... إلا أن ذلك أعقبه تراجع مريب وغير مبرر، عكسته العودة إلى فرنسة المواد العلمية بأسلاك التعليم ومستوياته، من الابتدائي إلى الإعدادي فالثانوي والجامعي، مع استمرار طغيان اللغة الأجنبية بالإدارات والمعاملات، خصوصا بعالم المال والأعمال والاقتصاد، وبالجامعة، وبالثقافة والإعلام والتواصل وبالمرافق والمحلات التجارية وبالإعلانات والمراسلات...بدعوى ودعاوى مختلفة ومتفرقة، مفادها أن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب مختلف العلوم، ولا مسايرة الثورة التكنولوجية والرقمية، بله أنها ليست لغة العصر ولا العلم، وعليها أن تقتصر على أمور الدين واللغة والأدب وما في حكمها.... فما سبب هذا التراجع يا ترى ؟ أهو تقاعس المسؤولين وغياب أجرأة تعميم اللغة العربية وسيادتها، أم استمرار لهيمنة لغة المستعمر سابقا؟

ثالثا- التغريب: استمرارية هيمنة

أ. إرث وعداء وتحامل:

غادر المستعمر بكلكله جميع الدول العربية، لكنه ترك إرثا ثقيلا وراءه متمثلا في لغة هذا المستعمر (أنجليزية كانت أم فرنسية أم إيطالية(بنسبة أقل). إذن، فرغم الطابع الرسمي والدستوري للعربية بالبلدان العربية المستقلة، تبدو لغة الغرب هي الأكثر حضورا في الاقتصاد والإدارة وجزء هام من الإعلام. فإلام تعزى هذه الهيمنة واستمراريتها؟

تعزى هاته الهيمنة الأنجلوفونية والفرانكفونية، إلى غياب إرادة سياسية، متمثلة أساسا في وجوب احترام مقتضيات الدساتير العربية، والسهر على محاربة جميع من يخالفها كان من كان، ومنها اللوبيات الاقتصادية الأنجلوفونية والفرانكفونية، التي تسيطر على عالم المال والأعمال والاقتصاد والإعلام ... وتسللت من كل ذلك حتى إلى المدرسة والتعليم، في محاولات يائسة لطمس معالم هوية شعوبنا العربية. فنحن لسنا ضد أي لغة في العالم، لكن ليس على حساب لغتنا الدستورية: العربية.

إذن، فالعاملان الرئيسان متمثلان في العداء للغة العربية وأهمية القرار السياسي، والتحامل الراجع أساسا إلى فكر الاحتلال. يقول الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري: «إن أهم عامل مؤثر يحول دون تنمية اللغة العربية وتبوئها مكانة قوية في محيطها والمحيط الدولي العام هو إتاحة الفرصة لانتشار العداء لها، والمواقف السلبية من استعمالها في مجالات حيوية متعددة، جراء الصراع الذي تذكيه أطراف عديدة تستبدل اللغة الأجنبية أو العامية(أو هما معا) بها. وكنتيجة حتمية لهذا العداء، يتحول جزء كبير من مجهودات المشتغلين على اللغة العربية للدفاع عنها، عوض تكثيف جهودهم لتحسين وضعها..... هذه المواقف السلبية نلحظها عند نخبة من رجال الاقتصاد والتجارة والمال، والتكنولوجيين، والباحثين في العلوم الدقيقة (على الخصوص)، ورجال الإدارة والسياسة، كما نلحظ ذلك في الأجيال الجديدة، التي تعزف عن العربية إلى الفرنسية أو الأنجليزية».

ويردف قائلا: «إن مصدر التحامل على العربية يعود تاريخيا إلى فكر الاحتلال(سواء أكان تركيا أو إنجليزيا أو فرنسيا) وإلى مواقف عدد من الباحثين الأجانب (وضمنهم المستشرقون) من العربية، الذين قرنوها بالتخلف، وعدوا لغتهم لغة العصر والعلوم.»

إذن، فنحن أمام مزاحمة أو هيمنة للغات الأجنبية، خصوصا بعالم المال والأعمال والاقتصاد، وبالجامعة، وبالثقافة والإعلام والتواصل اليومي، وأمام هجمة شرسة من الخارج، ومن بني جلدتنا الأوفياء والخلص للغرب، وأكثر هاته المعاول شراسة الأنجلوفونية والفرانكفونية وأذنابها وأتباعها داخليا وخارجيا.

ب. تغريب داخلي: الدارجافونية أنموذجا:

يذهب ابن حزم الأندلسي، عند ربطه بين قوة اللغة وقوة الدولة، إلى أنه: «إنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها، وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم ..... وإن اللغة يسقط أكثرها بسقوط أهلها ودخول غيرهم عليهم في أماكنهم..» كما يشير ابن خلدون في المقدمة إلى المعنى نفسه بقوله: «اعلم أن لغة أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها .... ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية .....والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلبة على الأمم».

وبالعودة إلى واقعنا الحالي، لم تعد العربية مُزاحَمة فقط من قبل الأنجليزية أو الفرنسية أو الإسبانية أو الإيطالية، بل أيضا من لدن الاتجاه الدارجافوني الذي صارت له سطوة على الإعلام السمعي والسمعي البصري وعلى وسائل الاتصال والتواصل الجديدة وعلى الإشهار بأنواعه، وهو مد كاسح تواجهه لغة الضاد. إنه اتجاه الدارجافوني على مقاس الأنجلوفوني أو الفرانكفوني، وجهان لعملة واحدة: الأنجلزة أو الفرنسة والتلهيج لتضييق الخناق على العربية التي إن تطورت ونمت وازدهرت، ستصيب التغريب الداخلي وأنصاره وأتباعه ومريديه ...في مقتل ..! نحن أمام معركة جديدة، معركة تدريج الإعلام ووسائل الاتصال والتواصل ..وتلهيجها، ضدا على الذوق العام للعرب، وعلى مقتضيات دساتيرهم، وكأننا أمام خطط مدروسة وممنهجة لتمييع المشهد اللغوي وتلهيجه تلهيجا، لإتمام معاول الهدم التي استهلها التغريب الخارجي.

لقد ضاق المواطن العربي ذرعا، بمختلف شرائحه المجتمعية، من الإعلام السمعي والبصري والمكتوب، ومن الإعلانات والإشهارات المسموعة والمرئية والملصقات..التي تتفنن في تدبيج موادها ونشراتها وبرامجها وإعلاناتها...بسيل من العبارات الدارجة والعامية، القدحية أحيانا، والتي تستعمل أحيانا حتى الحرف اللاتيني. أعجز العقل العربي الكبير عن إنتاج إعلانات لائقة، ولو بالعامية أو الدارجة، لكن محترمة ومراعية للذوق المجتمعي وللسليقة اللغوية الفطرية؟؟ أما عن الإذاعات والتلفزة بقنواتها، فحدث ولا حرج.. يعضد هذا كله، أن أغلب شركات الإشهار والإعلانات تتبنى نهجا تجاريا ودارجافونيا وتلهيجيا واضحا وصريحا وممنهجا ومقصودا، وهي معروفة لدى الخاص والعام، بتوجهاتها وبخططها وبأساليبها وببرامج عملها ... وبإخلاصها وتفانيها في مسخ اللغة العربية، وتمييع تداولها بين مستعمليها ومتكلميها، وهنا نستحضر دور المؤسسات العلمية والرسمية والعمومية، مثل الجامعات والمعاهد والمجامع اللغوية، وتلك المعنية بممارسة الدور الرقابي المخول لها من لدن الدولة، والسهر على تفعيل المقتضيات الدستورية وتطبيقها، والقيام بالافتحاصات والإجراءات اللازمة لمنع هذه المهازل اللغوية من الوصول إلى آذان الملايين من العرب وعيونهم، دون نسيان أدوار جمعيات المجتمع المدني، خصوصا تلك العاملة والمهتمة بالمجال اللغوي.

على سبيل الختم:

أمام هاته الإكراهات والمعيقات جميعها، وبالرغم من تضارب المصالح والرؤيات وزوايا النظر، أثبتت اللغة العربية أنها قادرة على مواكبة تطورات العصر ومستجداته، ومواكبة تكنولوجيا الإعلام والاتصال والتواصل، واستيعاب مختلف العلوم، بل إن العديد من المبتكرات التي اخترعها العرب مؤخرا، وكثيرا من العلوم تدرس بالعربية في دول متعددة، خصوصا بمصر والسودان والشام والشرق الأوسط ودول الخليج..وغيرها ... وكثير من أطروحات الطب والعلوم تعد وتنجز وتناقش باللغة العربية ... ، فاللغة، عربية كانت أم فارسية أم أنجليزية أم ألمانية أم روسية أم أردية أم صينية... ألخ... إنما هي أداة ووسيلة تواصل ليس إلا، وعليه، فالمشكلة ليست في اللغة إطلاقا، بل في مستعمليها، وطريقة تطويرهم وتنميتهم وتطويعهم لها لتجاور باقي لغات العالم، والمشكلة أيضا في قوانين الدول الناطقة بها التي من واجبها أن تحميها من كل هيمنة، ومن كل دخيل، ومن كل استهتار أو سلوكات ومواقف عدوانية غير علمية تواجهها.

> **أثبتت اللغة العربية أنها قادرة على مواكبة تطورات العصر**

إن على الدول والحكومات العربية أن تتحمل مسؤولياتها الدستورية كاملة، إعلاء لمكانة اللغة العربية وتنمية وخدمة لها، كما أن المسؤولية ملقاة أيضا، علاوة عن الإطارات المؤسساتية، على المؤسسات والمنظمات والهيآت والمراكز والمجامع اللغوية، وجمعيات المجتمع المدني العاملة في هذا المجال اللغوي الواسع، وخصوصا ما يتعلق بالترشيد اللغوي وتطوير اللغة العربية ، والإسهام في حمايتها من الهيمنات الداخلية والخارجية، كما هي مطالبة بمضاعفه جهودها، وتكثيف أنشطتها وبرامجها، وتقديم بدائل أكثر فاعلية وتأثيرا، بعيدا عن المناسباتية أو التموقعات والتبعيات غير الجمعوية، حتى تكون بالفعل قادرة على الإسهام بجدية وعلمية في تخليص مجتمعاتنا من هاته الآفة الجديدة التي تطولها، وتسيء إلى جمالية لغتنا العربية، وقدرتها الخارقة على إنتاج الفصيح والدارج أو العامي على أعلى مستوى من الرقي الذوقي والفني والأسلوبي، في ترفع تام عن البذيء والوضيع وسفاسف اللغة والكلام.

وبعد، فإن وضع اللغة العربية يبشر بكل خير، بفضل جهود وتضحيات تشاركية ومتواصلة وحثيثة، ومنها اللقاءات والمؤتمرات العلمية التي تجمع الطاقات، وترصد التجارب الناجحة، وترسمل النتائج المنتظرة، في أفق تبوىء اللغة العربية المكانة التي تضاهي بها باقي لغات العالم.

تعريب التعليم الطبي

بين استعادة الهوية وتعزيز جودة التعلم في عصر العولمة

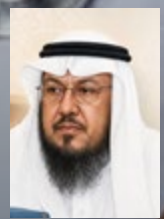

أ.د. خالد آل عبد الرحمن

أستاذ طب الأسرة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

السعودية

ليست اللغة مجرد أداة للتعبير، بل هي البنية العميقة التي يتشكّل من خلالها التفكير، وتُبنى عبرها المعرفة، وتُصاغ بها الهوية. وفي ميدان التعليم الطبي، تتجاوز اللغة دورها التقليدي لتصبح عنصرًا حاسمًا في جودة التعلم وكفاءة الممارسة المهنية. ومن هنا تبرز قضية تعريب التعليم الطبي بوصفها قضية معرفية وثقافية واستراتيجية، ترتبط بمستقبل التعليم والصحة في العالم العربي.

إن النقاش حول لغة التعليم الطبي لا ينبغي أن يُختزل في ثنائية "العربية مقابل الإنجليزية"، بل يجب أن يُفهم في سياق أوسع يتصل بكيفية بناء طبيب قادر على الفهم العميق، والتفكير النقدي، والتواصل الفعّال، والانخراط في مجتمع علمي عالمي في آنٍ واحد.

جذور تاريخية: حين كانت العربية لغة الطب

شهدت الحضارة الإسلامية مرحلة ذهبية كانت فيها اللغة العربية لغة العلم والمعرفة، وخصوصًا في مجال الطب. فقد قاد العلماء المسلمون حركة ترجمة واسعة للعلوم اليونانية والفارسية والهندية، ثم لم يكتفوا بالنقل، بل أضافوا وابتكروا، وأسسوا لعلوم طبية متقدمة.

وقد كتب علماء مثل ابن سينا والرازي والزهراوي مؤلفات طبية شكلت مرجعًا عالميًا، وظلت تُدرَّس في الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر.

وفي المقابل، كانت أوروبا تمر بفترات ركود علمي، بينما ازدهرت العلوم في العالم الإسلامي، ما يعكس أن اللغة العربية كانت قادرة على احتضان العلم وتطويره ونشره عالميًا.

غير أن هذا المسار تغيّر مع فترات الاستعمار، حيث فُرضت لغات أجنبية في التعليم الطبي، مما أدى إلى تراجع استخدام العربية في هذا المجال، واستمرار هذا الإرث حتى اليوم.

الإشكالية المعاصرة: بين الواقع والطموح

على الرغم من الدعوات المتكررة لتعريب التعليم الطبي، لا تزال غالبية كليات الطب في العالم العربي تعتمد اللغات الأجنبية. ويعود ذلك إلى عدة عوامل، منها:

- الإرث الاستعماري
- هيمنة اللغة الإنجليزية في النشر العلمي
- ضعف البنية المؤسسية لدعم التعريب

غير أن هذا الواقع يطرح تساؤلات جوهرية حول جودة التعليم، ومدى قدرة الطالب على الفهم، خاصة عندما يتعلم بلغة ليست لغته الأم.

تشير التجربة التعليمية إلى أن كثيرًا من الطلاب في العالم العربي يعتمدون على الحفظ أكثر من الفهم، ويواجهون صعوبة في التعبير والمناقشة، بسبب ضعف إتقانهم للغة الأجنبية المستخدمة في التدريس.

التعريب من منظور تربوي ومعرفي

تدعم النظريات التربوية الحديثة فكرة التعليم باللغة الأم، حيث تؤكد أن اللغة تؤدي دورًا أساسيًا في بناء الفهم. فوفقًا لنظرية العبء المعرفي، فإن التعلم بلغة غير مألوفة يضيف عبئًا ذهنيًا إضافيًا، يقلل من قدرة الطالب على استيعاب المفاهيم.

وعليه، فإن استخدام اللغة العربية في التعليم الطبي يمكن أن:

- يُحسّن الفهم العميق للمفاهيم
- يعزز التفكير النقدي
- يزيد من التفاعل داخل القاعات الدراسية
- يقلل الاعتماد على الحفظ

وهذا لا يعني إقصاء اللغة الإنجليزية، بل إعادة توظيفها أداةً للوصول إلى المعرفة العالمية، وليس وسيطًا وحيدًا للتعلم.

> **يُعدّ تعريب التعليم الطبي خطوة مهمة لتعزيز الفهم العميق لدى الطلبة وتمكينهم من استيعاب المفاهيم الطبية بلغتهم الأم**

اللغة وسلامة المرضى

تتجلى أهمية اللغة أيضًا في الممارسة الطبية، حيث يُعد التواصل الفعّال مع المرضى عنصرًا أساسيًا في جودة الرعاية الصحية. فالطبيب الذي لا يستطيع شرح الحالة بلغة المريض قد يواجه صعوبات تؤثر على التشخيص والعلاج.

ومن هنا، فإن تمكين الطبيب من التعبير الطبي الدقيق باللغة العربية يسهم في:

- تحسين فهم المرضى لحالاتهم
- تعزيز الثقة بين الطبيب والمريض
- تقليل الأخطاء الطبية الناتجة عن سوء التواصل

تجارب دولية: الطب بلغات الأمم

تُظهر التجارب الدولية أن التعليم الطبي باللغة الوطنية هو القاعدة، وليس الاستثناء، في معظم الدول المتقدمة.

1. اليابان

تُدرّس اليابان الطب باللغة اليابانية في جميع مراحله الأساسية، مع تعزيز تعلم اللغة الإنجليزية لأغراض البحث العلمي. وقد مكّن هذا النموذج اليابان من تحقيق تقدم علمي كبير، مع الحفاظ على هويتها اللغوية.

2. ألمانيا

تعتمد الجامعات الألمانية اللغة الألمانية في تدريس الطب، خاصة في المرحلة الجامعية الأولى، بينما تُستخدم الإنجليزية في

بعض البرامج المتقدمة والبحث العلمي. ويُعد النظام الألماني من أقوى الأنظمة الطبية عالميًا.

3. فرنسا

يُدرَّس الطب في فرنسا باللغة الفرنسية، مع وجود برامج دعم للطلاب الدوليين. ولم يمنع ذلك فرنسا من أن تكون من الدول الرائدة في البحث الطبي.

4. الصين

تُدرِّس الصين الطب باللغة الصينية لمواطنيها، بينما تقدم برامج باللغة الإنجليزية للطلاب الأجانب. وقد ساهم هذا النموذج في توسيع نطاق التعليم الطبي عالميًا دون التخلي عن اللغة الوطنية.

5. إسبانيا

تعتمد إسبانيا اللغة الإسبانية في التعليم الطبي، مع تعزيز استخدام الإنجليزية في البحث العلمي، مما يعكس نموذجًا متوازنًا.

6. الدول العربية

في العالم العربي، تُعد سوريا من أبرز النماذج التي نجحت في تدريس الطب باللغة العربية منذ عام 1919، واستمرت في ذلك رغم التحديات.

وتُظهر هذه التجارب أن استخدام اللغة الوطنية لا يتعارض مع التقدم العلمي، بل قد يكون عاملًا مساعدًا عليه.

> **تؤدي اللغة دورًا أساسيًا في بناء الهوية الثقافية وتعزيز الانتماء. وعندما يتلقى المتعلم معارفه بلغته الأم، يصبح أكثر قدرة على الفهم والتفكير والإبداع**

تحليل مقارن: هل اللغة عائق أم أداة؟

تشير المقارنة بين الدول إلى أن:

- الدول المستقلة ثقافيًا وعلميًا تُدرِّس بلغتها
- الدول التي خضعت للاستعمار تميل لاستخدام لغات أجنبية

وهذا يدعم فكرة أن اللغة ليست عائقًا، بل أداة، وأن اختيار لغة التعليم يعكس توجهًا حضاريًا وثقافيًا.

النموذج الأمثل: التعليم الطبي ثنائي اللغة

في ضوء المعطيات السابقة، يبرز نموذج التعليم الطبي ثنائي اللغة حلًا عمليًا ومتوازنًا، يقوم على:

- تدريس العلوم الأساسية باللغة العربية
- تعزيز الإنجليزية بوصفها لغة بحثية
- تدريب الطلاب على قراءة المراجع العالمية

هذا النموذج يحقق التوازن بين:

- الفهم العميق
- والانفتاح العلمي

التحديات الواقعية

على الرغم من أهمية التعريب، إلا أن تطبيقه يواجه عدة تحديات، منها:

- نقص المراجع الطبية العربية الحديثة
- ضعف توحيد المصطلحات
- الحاجة لتأهيل الكوادر الأكاديمية
- محدودية الدعم المؤسسي

لكن هذه التحديات يمكن تجاوزها من خلال التخطيط والتدرج.

خطوات عملية نحو التعريب

يمكن تحقيق التعريب عبر خطوات مدروسة، منها:

يمثل التعليم الطبي ثنائي اللغة نموذجًا متوازنًا يجمع بين مزايا التعريب ومتطلبات الانفتاح العلمي

1. تطوير معاجم طبية عربية موحدة
2. دعم الترجمة العلمية الحديثة
3. إعداد مناهج ثنائية اللغة
4. تدريب أعضاء هيئة التدريس
5. تعزيز البحث العلمي باللغة العربية
6. استخدام التقنيات الحديثة في التعليم والترجمة

التعريب في عصر الذكاء الاصطناعي

أحدثت تقنيات الذكاء الاصطناعي تحولًا كبيرًا في مجال الترجمة والتعليم، مما يوفر فرصًا غير مسبوقة لدعم التعريب، مثل:

- الترجمة الفورية الدقيقة
- إنشاء قواعد بيانات لغوية
- تطوير محتوى تعليمي متعدد اللغات

وهذا يجعل التعريب اليوم أكثر قابلية للتطبيق مقارنة بالماضي.

نحو التعريب التطبيقي: خطوات عملية على مستوى كليات الطب

إذا كان التعريب يُطرح غالبًا بوصفه مشروعًا وطنيًا طويل الأمد، فإن الواقع التعليمي يتيح البدء بخطوات عملية على مستوى المؤسسات الأكاديمية، دون انتظار اكتمال السياسات العامة. ويمكن لكليات الطب تبنّي نموذج تدريجي مرن يوازن بين الطموح والواقع، وفق المحاور الآتية:

1. اعتماد سياسة التواصل الأكاديمي باللغة العربية المبسطة

يمثل التواصل داخل البيئة التعليمية نقطة الانطلاق الأساسية، حيث يمكن:

- التزام أعضاء هيئة التدريس بشرح المفاهيم الطبية الأساسية باللغة العربية السليمة والواضحة، سواء كانوا ناطقين بالعربية أو بغيرها.
- الإبقاء على المصطلحات الطبية باللغة الإنجليزية، مع تثبيتها نطقًا وكتابة لتعزيز الازدواج اللغوي الإيجابي.
- تشجيع الحوار العلمي داخل القاعات باللغة العربية، بما يسهم في تعميق الفهم وتحفيز التفكير النقدي.
- اعتماد العربية لغةً للتواصل اليومي بين الطالب وعضو هيئة التدريس، كونها لغة البيئة المهنية المحلية.

2. البدء بتدريس المقررات المناسبة باللغة العربية

ليس من الضروري تعريب جميع المقررات دفعة واحدة، بل يمكن البدء بالمقررات ذات الطابع المفاهيمي والسياقي، مثل:

- أخلاقيات الممارسة الطبية
- مهارات التعلم
- الطب الوقائي والصحة العامة
- طب الأسرة
- مهارات التواصل الطبي
- منهجية البحث والإحصاء الحيوي

على أن يتم ذلك وفق منهجية واضحة تقوم على:

- تدريس المحتوى باللغة العربية
- إيراد المصطلحات العلمية باللغة الإنجليزية بين قوسين
- استخدام مراجع داعمة ثنائية اللغة

3. تطوير برنامج دعم لغوي مزدوج للطلبة

لا يهدف التعريب إلى إضعاف اللغة الإنجليزية، بل إلى تعزيزها بشكل منهجي. لذا يُوصى بـ:

- إدراج مقرر "اللغة الإنجليزية الطبية" عبر جميع السنوات الدراسية
- تدريب الطلبة على قراءة المقالات العلمية، وكتابة التقارير السريرية، وعرض الأبحاث باللغة الإنجليزية
- تنظيم ورش عمل في الترجمة الطبية (من العربية إلى الإنجليزية والعكس)

4. إعداد وتأهيل أعضاء هيئة التدريس

نجاح أي تحول تعليمي يرتبط بكفاءة الكادر الأكاديمي، ومن هنا تبرز أهمية:

- تنظيم برامج تدريبية في مهارات التدريس بالعربية الأكاديمية
- تدريب الأساتذة على تبسيط المصطلحات الطبية دون الإخلال بالدقة العلمية

- تطوير قدراتهم في إعداد مواد تعليمية ثنائية اللغة
- عدّ التأليف والترجمة بالعربية ضمن متطلبات الترقية الأكاديمية
- تحفيز النشر العلمي بالعربية، خاصة في المجالات التعليمية والمراجعات العلمية

5. تطوير المحتوى التعليمي تدريجيًا

يمكن بناء قاعدة معرفية عربية بشكل تراكمي من خلال:

- إعداد مذكرات دراسية مختصرة باللغة العربية
- تطوير شرائح المحاضرات لتكون ثنائية اللغة
- إنشاء منصات إلكترونية تعليمية تتضمن:
- قاموسًا طبيًا معتمدًا
- فيديوهات شرح باللغة العربية
- ملخصات إكلينيكية مترجمة

6. مواءمة أساليب التقييم

يجب أن يواكب التقييم هذا التحول لضمان الاتساق، وذلك عبر:

- صياغة أسئلة الاختبارات باللغة العربية مع إدراج المصطلحات الإنجليزية
- السماح بالإجابة بالعربية مع كتابة المصطلح العلمي بالإنجليزية
- إدراج أسئلة تقيس مهارات الترجمة الطبية والفهم المفاهيمي

7. تفعيل البحث العلمي باللغة العربية دون عزل دولي

- يمكن دعم اللغة العربية في البحث العلمي دون الإضرار بالانفتاح العالمي من خلال:
- قبول الرسائل الجامعية باللغة العربية مع ملخص موسع باللغة الإنجليزية
- تشجيع المؤتمرات المحلية على اعتماد العربية لغةً رئيسةً
- دعم كتابة المراجعات العلمية والتعليمية باللغة العربية

النموذج المقترح: "التعريب المرحلي المتوازن"

يمكن تلخيص الرؤية التنفيذية في نموذج عملي مرن يقوم على ثلاثة مبادئ رئيسة:

1. الشرح بالعربية... والمصطلح بالإنجليزية

2. المقرر المناسب بالعربية... مع الحفاظ على المراجع العالمية

3. إتقان مزدوج: هوية عربية + كفاءة دولية

> **لا يتعارض تعريب التعليم الطبي مع التقدم العلمي، بل يمكن أن يكون رافعة للبحث والابتكار إذا تم دعمه بالمراجع الحديثة والتقنيات الرقمية**

خاتمة

إن تعريب التعليم الطبي ليس خيارًا لغويًا فحسب، بل هو مشروع حضاري يعيد الاعتبار للغة العربية بوصفها لغة علم ومعرفة.

وفي ظل التحديات العالمية، يصبح من الضروري تبني نموذج متوازن يجمع بين:

- التعليم باللغة العربية لتعزيز الفهم
- والانفتاح على اللغة الإنجليزية لمواكبة التقدم العلمي

إن المستقبل لا يفرض علينا أن نختار بين هويتنا وعالمنا، بل يدعونا إلى الجمع بينهما بوعي وذكاء.

فهل يكون التعريب بداية لنهضة علمية جديدة في العالم العربي؟

الإجابة مرهونة بإرادتنا، ورؤيتنا، وقدرتنا على تحويل الفكرة إلى واقع.

إن التعريب لم يعد مشروعًا نظريًا مؤجلًا، بل يمكن أن يبدأ من داخل القاعات الدراسية، عبر خطوات صغيرة لكنها متراكمة، تُحدث تحولًا نوعيًا في جودة التعليم الطبي. فالتحدي الحقيقي ليس في اختيار اللغة، بل في كيفية توظيفها بذكاء لتحقيق أفضل تعلم وأفضل ممارسة.

تعليم العلوم لماذا بالعربية، بعيدا عن الهوية؟!

د. ندى نور الدائم

أستاذة مساعدة بجامعة الخرطوم

كلية الآداب
قسم اللغة العربية

ليس السؤال اليوم: هل نعلّم العلوم باللغة العربية أم باللغة الإنجليزية؟ بل السؤال الأصح: بأي لغة يفهم الطفل العلم على النحو الذي يمكّنه من الإبداع فيه؟

لقد انشغل الجدل العربي طويلًا باللغة بوصفها قضية هوية، بينما تؤكد الأبحاث التربوية الحديثة أن القضية تبدأ من مكان آخر؛ من لغة الطفل الأولى، لغة البيت، التي تتكون بها مفاهيمه الأولى عن العالم. فكلما اقتربت لغة التعليم من اللغة التي يعيش بها الطفل، ازداد فهمه العميق للمفاهيم العلمية، وارتفعت قدرته على التعلم والإبداع. أما حين يُطالَب بفهم لغة جديدة، وفهم العلوم من خلالها في الوقت نفسه، فإنه يخوض معركتين معًا، ويدفع ثمنهما من قدرته على الاستيعاب.

من هنا، يصبح النقاش حول تعليم العلوم بالعربية أبعد من كونه نقاشًا حول الهوية أو الانتماء؛ إنه نقاش حول جودة التعليم، وكفاءة التعلم، ومستقبل البحث العلمي في أوطاننا.

وقد تجسد هذا الجدل بوضوح أثناء التحضير لقمة (وايز 12) التي انعقدت في الدوحة يومي 24 و25 نوفمبر 2025، حين تلقيت دعوة كريمة من مركز مناظرات قطر للتعقيب على مناظرة حملت قضية:

تدريس العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات (STEM) باللغة العربية؟!

كانت المتناظرتان على بعد خطوات من الحصول على درجة الماجستير، وكلتاهما مستعدة لأن تكون في صف الموالاة أو المعارضة، بهدف واحد هو الوصول إلى إجابة مقنعة لهما، ولجيلهما، وللأجيال التالية، تحدد اللغة الأنسب لاكتساب العلوم. وقد هدفت المناظرة إلى فهم سبب تمسك بعض الآباء العرب بأن يتلقى أبناؤهم تعليمهم بالعربية، في مقابل إصرار آخرين على أن يكون التعليم باللغة الإنجليزية.

أوردت المتناظرتان في حجاجهما الحجج الأكثر تداولًا لدى الفريقين، وكان من أطرف التعليقات سؤال طرحته إحدى الحاضرات، وهي تعمل في مجال التعليم في بريطانيا، إذ قالت: لماذا ما يزال هذا السؤال مطروحًا؟ فأجبتها: ربما لأن هذه الأمة ما تزال ممتحنة!

خيار تعليم العلوم بلغة أجنبية يؤدي إلى تراجع في مستوى فهم الطالب للمفاهيم الجوهرية قد يصل إلى 60% مقارنة بالمتعلم بلغته الأم

حجة الموالاة الأولى كانت أن الفهم العميق للمواد يكون حين تُدرَّس باللغة العربية، بينما رأت المعارضة أن الإنجليزية هي لغة العلوم اليوم، وأن الفهم الأسرع والأقل تكلفة يتحقق بتقديم هذه العلوم بلغتها الأصلية، وأن المصطلحات العلمية تُقدَّم أصلًا بالإنجليزية حتى عند تدريسها بالعربية، ولذلك فإن الواقع يفرض التدريس بالإنجليزية، ومن الظلم للأجيال أن تبقى حبيسة لغة متأخرة معرفيًا بحجة الحفاظ على الهوية.

ومن هنا اخترت عنوان هذا المقال: «تعليم العلوم بالعربية... بعيدًا عن الهوية؟!»، لأنني أوجهه إلى الطلاب والآباء، وإلى كل من يظن أن تمسك المؤسسات التعليمية والمنظمات المعنية بالتعليم باللغة العربية مرده الوحيد الحفاظ على الهوية، مع أن الهوية نفسها تستحق هذا الحرص، غير أن القضية أعمق من ذلك بكثير.

دعونا نبدأ بحجة الموالاة: «الفهم العميق للمواد يكون حين تدرس باللغة العربية»؛ في الحقيقة أن العبارة الدقيقة هي أن الفهم العميق مرتبط بتقديم المعلومات وتلقيها باللغة الأم، فقد أشارت أبحاث اليونسكو 2024 إلى أن تلقى التعليم باللغة المتحدّثة في المنزل يزيد فرص القراءة مع الفهم بنسبة 14% في المرحلة الابتدائية مقارنة مع الأطفال الذين لا يتعلمون بلغة المنزل، وتصل هذه الفجوة في فرنسا إلى 28%، أما الدول التي تشبه في وضعها دول العالم العربي: تركيا وإيران مثلا، فتصل هذه الفجوة إلى 60 %! ترجمة هذه الأرقام: الطفل الذي يتعلم بالإنجليزية ويعود إلى البيت ليتكلم مع أسرته بلغة أخرى، مثلا التركية أو الفارسية أو العربية أقل فهما واستيعابا لدروسه من قرينه الذي يتلقى تعليمه بالتركية أو الفارسية أو العربية، ويعود لأسرة تتحدث معه بنفس لغة تعليمه بحوالي 60%!

المدهش أن الأستاذ ساطع الحصري كان قد كتب مقالا عام 1968 قال فيه: «من الأمور الثابتة بالأبحاث العلمية أن تعلّم لغة أجنبية قبل إتقان اللغة الأصلية، وقبل الوصول إلى درجة من النضج العقلي، يضر بمصلحة الطفل ويعرقل نموه الفكري عرقلة واضحة»! وهل من عرقلة أوضح من أن فهم هذا الطفل لمفاهيم أساسية في الرياضيات مثل الجمع والطرح تكون أقل من قرينه الذي يتلقى هذه العلوم بلغة البيت/ لغته الأم بفجوة تصل 60%؟ جاء مقال ساطع الحصري بمثابة رد على بحث نشرته اليونسكو 1963 عنوانه: اللغة الأجنبية في التعليم الابتدائي (Foreign language in primary education) يسوّق لكون التعليم باللغة الأجنبية يفيد النمو العقلي للأطفال!

فالمسألة إذن ليست في التعليم والتدريس باللغة العربية، وإنما في التعليم والتدريس باللغة الأقرب إلى لغة المنزل، ولعل هذا يقدم تفسيرا يجيب عن سؤال: لماذا تقدموا وتأخرنا؟! ربما لأننا لم نعد نفهم العلوم بالقدر الكافي لتطويرها!

لكن كيف نجيب من يرى أن: «الإنجليزية هي لغة العلوم حاليا، وأن الفهم الأسرع والأقل تكلفة سيكون بتقديم هذه العلوم بلغتها (الإنجليزية)». عند النظر إلى مرحلة التعليم الأساسي (المدارس)، حيث يكتسب الطالب مفاهيم العلوم والرياضيات والتقنية لأول مرة، تتبدد هذه الحجة؛ فإعداد المناهج الأساسية باللغة الأم (العربية) تكلفة تُدفع مرة واحدة ثم تتطلب تحديثاً بسيطاً، وتضمن فهم الطالب بعمق ودون حواجز للمفاهيم الأساسية في هذه العلوم. في المقابل، التدريس بالإنجليزية في هذه المرحلة يخلق تكلفة مضاعفة: ثمن المناهج الأجنبية،

إضافة إلى تكلفة تعليم اللغة الإنجليزية للطلاب والمعلمين، مع صعوبة في توحيد مستوى الفهم في الفصل الواحد. وللأسف تثبت الأبحاث أن هذا الخيار الأخير، رغم تكلفته المادية العالية، ضرره أكبر من نفعه، إذ يؤدي إلى تراجع في مستوى فهم الطالب للمفاهيم الجوهرية، قد يصل إلى 60% مقارنة بالمتعلم بلغته الأم. لذلك، فإن محاولة التوفير المزعومة في الوقت والجهد تتحول إلى هدر في الفهم وعبء مالي مستمر.

الجنوح إلى اللغة الأجنبية في مرحلة التعليم الأساسي يضع الطالب الناطق باللغة العربية وأسرته في تحدٍ مزدوج يتمثل في ضرورة إتقانه لغة أجنبية قبل اكتمال اكتسابه للغته الأم، إضافة إلى تحدي فهم المادة العلمية نفسها

وهذا الجنوح إلى اللغة الأجنبية في مرحلة التعليم الأساسي يضع الطالب الناطق باللغة العربية وأسرته في تحدٍ مزدوج يتمثل في ضرورة إتقانه لغة أجنبية قبل اكتمال اكتسابه للغته الأم، إضافة إلى تحدي فهم المادة العلمية نفسها. ويضع أسرته في مجموعة من التحديات المتصلة بدورها في تربيته وتيسير تعليميه نتيجة القطيعة اللغوية التي ستحدث بسبب تعلق الطفل باللغة المفروضة عليه في المدرسة بوسائل شيقة ولساعات طويلة، وستتوتر علاقته مع أسرته الممتدة حيث بطبيعة الحال ستكون العربية لغة أنسها وحديثها وأداة الجد والجدة لتمرير تجاربهم وذكرياتهم لأحفادهم.

ولقد ركزت اتفاقية حقوق الطفل 1989م على أن اللغة ينبغي أن تعتبر ذات قيمة تربوية، ونصت المادة 29 من هذه الاتفاقية على أن يكون تعليم الطفل موجها نحو تنمية احترام الطفل وهويته الثقافية ولغته وقيمه الخاصة، فالتوجه نحو تعليم أبناء الأمة العربية بلغة أجنبية يناقض في الواقع حقا أصيلا من حقوق أطفال هذه الأمة.

أما مسألة المصطلحات، فأي كتاب علمي، شديد التخصصية لن تزيد نسبة المصطلحات فيه عن 4%، وفي العالم العربي مؤسسات تشتغل في هذا المجال تذهب جهودها أدراج الرياح نتيجة عدم تبنيها من الجهات الرسمية مثل معاجم المصطلحات التي يصدرها مكتب التعريب التابع لجامعة الدول العربية، في المقابل لا يدخل مصطلح إلى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الفلندية....إلخ إلا بعد اعتماده وقياس شيوعه لدى المختصين، ولا تقبل بعد إجازة المصطلح ورقة بحثية تستعمل مصطلحا مرادفا له يحمل نفس المفهوم، لذلك اتفقوا على مصطلحاتهم وأصبحت توحّد لغة العلم، بينما اختلفنا في المصطلحات والمفاهيم التي تجمعنا!

تعليم أبناء الأمة العربية بلغة أجنبية يناقض حقاً أصيلاً من اتفاقية حقوق الطفل 1989م

لكن المفارقة الحقيقة تكمن في قولهم: «تقديم هذه العلوم بلغتها (الإنجليزية)»! بالعودة إلى أن هذه العلوم هي أساسيات العلوم، التي هي في الأساس عربية! أليست هذه الأرقام التي اخترعها الخوارزمي؟ أليست أساسيات هندسة المثلثات التي ابتدعها الخوارزمي وصحبه لتحديد القبلة ومواقيت الصلاة؟! أليست الأحياء التي قدم فيها الخيوط القابلة للامتصاص الرازي، وقلب

إذا ارتضينا أن تكون أول لغة يكتسبها أطفالنا هي لغة أجنبية فسنفقد صلتهم بنا، وستفقد الأسر دورها التربوي في حياة وتعليم أطفالها نتيجة القطيعة اللغوية بين هؤلاء الأطفال وأسرهم

ابن الهيثم موازين البصريات فيها، وقدم ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى، وقدم الزهراوي الأدوات الجراحية التي ما زالت إلى اليوم تستعمل في كل مشفى وأثناء كل جراحة والقائمة تطول وتعلو بها هممنا وهاماتنا، هل دُرِّست هذه العلوم في عصور المد الإسلامي في أوروبا بالعربية، لأنها لغتها؟! لا، ظلت العربية (لغة العلوم/الأجنبية) لغة الصفوة والمشتغلين بترجمة هذه العلوم ونقلها إلى لغات المتعلمين، حيث ظلوا يتلقون العلوم بلغاتهم الأم دائما، وأبدا! أما في بلادنا، مستعمراتهم لاحقا، فقد نشأت أجيال تظن أن لغة هذه العلوم الإنجليزية، ولا تعرف كيف أن الصفر غيّر خارطة الرياضيات وأن ما كان بعده لا يشبه ما كان قبله أبدا.

الآن... عود على مسألة الهوية:

الأمم تهتم بالتعليم لتحافظ على استمرار كينونتها، هويتها، لأن المتوقع من المتعلم أن يطور العلم لخدمة أمته، والإنسانية جمعاء، حين يتعلم أبناؤنا بلغة غير لغة آبائهم أو أجداهم فهم ينفصلون عن هؤلاء الأجداد، يفقدون تلك الذاكرة التي تزودهم

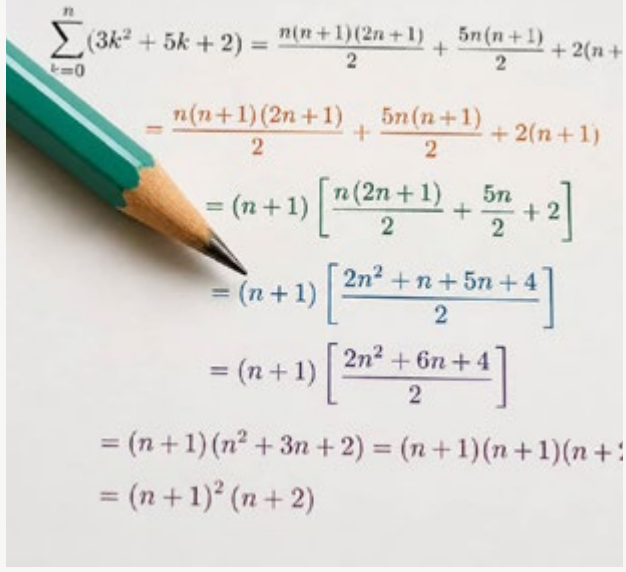

بالمعارف الخاصة بهم، بطبيعة أرضهم وبالمسائل التي تحتاج إلى معالجة في بيئاتهم، تصبح عقولهم حبيسة الفهم السطحي للعلوم، ومشاعرهم حبيسة الغربة الاجتماعية في أوطانهم!

-ولأترك أثرا تجريبا عن المتوقع من المتعلم حين يتعلم بلغته الأم ويحتضنه مجتمعه ويتفاعل معه، دعوني أعود إلى الخوارزمي: إن اختراعه للأرقام الغبارية، الأرقام التي ترسم بها الأعداد في اللغة الإنجليزية حاليا، اسمها بالعربية: أرقام غبارية، لأنه اخترعها للعامة، يرسمونها في الغبار ليسهل عليهم حساب الزكاة بعد أن علت الأصوات في الأسواق عند احتساب الزكاة لصعوبة الجمع والطرح والقسمة بالأرقام اليونانية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، هذه الأرقام القائمة على حساب الزوايا كانت نتيجة بحثه في رياضيات الهنود وعلمه بحسابات اليونان لكن الباعث لهذا الإلهام هو الانشغال بهموم الأمة، التي يدخل الحساب في زكاتها وميراثها وصيامها وصلاتها، أمة قدّر لها ربها نظام صلاة يقسم اليوم حسب نشاط الإنسان، ويمنحه راحة وسكينة بين كل قسم وقسم من أعمال اليوم. وحين اتسعت رقعة البلاد، وأصبح تحديد القبلة هاجسا استند الخوارزمي على (زيج السند هند)، مطورا الرياضيات والفلك الهنديين وصولا إلى تحديد القبلة ومواقيت الصلاة! إذن حين ينفصل المتعلم عن هوية أمته علميا ينفصل شاء أو أبى عن ذاكرتها الجمعية وعن همومها، ما يفقده أسباب الإلهام وتطوير العلم.

الخوارزمي والرازي وابن الهيثم وابن النفيس والزهراوي هم مؤسسو العلوم التي يدعو أنصار اللغة الأجنبية لتدريس أساسيات العلوم بها

وقد وجّهت اليونسكو 2003 إلى ضرورة ربط تعليم اللغات بتعليم ثقافة أهلها، وجعله فرصة للتعرف على أنماط عيشها وآدابها وعاداتها، فلننظر إلى ما سنفقده إذا ارتضينا أن تكون أول لغة يكتسبها أطفالنا هي لغة أجنبية! سنفقد أول ما نفقد صلتهم بنا، ستفقد كثيرا من الأسر العربية دورها التربوي والتيسيري في حياة وتعليم أطفالها نتيجة القطيعة اللغوية بين هؤلاء الأطفال وأسرهم، فكما سيخسر هؤلاء الأطفال التعرف على تراثهم من خلال قصة ما قبل النوم، التي سيحل محلها كتاب أجنبي لامع الصور، سيخسرون عمق العلاقة مع دينهم وثقافتهم الإسلاميين، فعندما يكبرون سيجدون عسرا ومشقة في فهم القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام السلف، ولا تنسَ أن كل هذا سيكون مع صعوبات في التعلم وسطحية في الفهم ومعوقات للإدراك، ما يجعل الحديث عن آملنا في جيل عربي مبدع ضربا من الوهم، إذا تقاعسنا عن حماية حقهم في التعلم باللغة العربية.

الدبلوماسية اللغوية

وتعليم العربية عالميًا

من اللغة بوصفها هوية ثقافية إلى اللغة بوصفها قوة ناعمة فاعلة

د. يوسف إسماعيلي

خبير بمركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها

المغرب

حين تعيد اللغة رسم خريطة النفوذ

لم تعد اللغة في عالم اليوم، مجرد أداة للتواصل اليومي أو وعاء للتراث الثقافي، بل تحوّلت إلى فاعل استراتيجي في العلاقات الدولية، وعنصر مؤثر في بناء الصورة الذهنية للدول والمؤسسات، وصناعة القبول، وتعزيز الثقة بين الشعوب. ففي زمن تتراجع فيه الحدود الصلبة، وتتقدّم فيه شبكات التأثير غير المرئية، أصبحت اللغة أحد أكثر أدوات النفوذ هدوءا وفاعلية، وأطولها عمرًا.

لقد أدرك العالم المعاصر أن الصراعات الكبرى لم تعد تُحسم فقط في ساحات المعارك، ولا تُدار حصريًا في غرف التفاوض، بل تُخاض أيضا في المدارس، والجامعات، ومن خلال إعادة صياغة المناهج التعليمية، وعبر المنصات الرقمية، ووسائل التواصل الاجتماعي، حيث تُبنى التصورات، ويعاد تشكيل العقول، وتُغرس القيم الجديدة. ومن هنا، لم يعد الاستثمار في اللغة ترفا ثقافيا، بل خيارا استراتيجيا ضمن ما يعرف بالقوة الناعمة.

في هذا السياق، يبرز مفهوم الدبلوماسية اللغوية باعتباره أحد أهم مسارات العمل الثقافي الدولي، خاصة حين يتعلق الأمر بلغة ذات امتداد حضاري عالمي مثل اللغة العربية، التي تجمع بين عمق التاريخ، وسعة الجغرافيا، وغنى الثقافة، وتنوّع السياقات.

1. الدبلوماسية اللغوية: من المفهوم إلى الممارسة

تشير الدبلوماسية اللغوية إلى مجموع السياسات والبرامج والمبادرات التي تُوظَّف فيها اللغة، تعليما وتخطيطا ونشرا، ضمن الاستراتيجية الثقافية الخارجية للدول والمؤسسات الدولية. وهي دبلوماسية طويلة النفس، لا تعتمد على الخطاب السياسي المباشر، ولا على الإكراه أو الضغط، بل على التأثير التراكمي الهادئ في الأفراد والمجتمعات. وما يميز هذا النوع من الدبلوماسية أنه:

- يستهدف الإنسان قبل الدول؛
- يراكم النفوذ عبر الأجيال؛
- يُنتج علاقات قائمة على الفهم لا على المصالح الآنية فقط؛
- يعيد تشكيل صورة الآخر من الداخل.

فاللغة، حين تُدرَّس، لا تنقل كلمات وقواعد فحسب، بل تنقل طرق التفكير وأنماط التعبير والقيم الضمنية، والتصورات عن الذات والعالم.

ومن هنا، يصبح تعليم اللغة فعلًا ثقافيا سياسيا بالمعنى العميق، حتى وإن لم يُقدَّم في خطاب سياسي مباشر.

2. زوال الدول وبقاء اللغة

يعلمنا التاريخ الإنساني أن النفوذ العسكري، مهما بلغ، يظل محدودًا زمنيا، بينما تمتلك اللغة قدرة فريدة على البقاء والاستمرار. فالإمبراطوريات التي حكمت بالسيف تلاشت، لكن اللغات التي ارتبطت بالعلم والمعرفة والحياة اليومية استمرت، وانتقلت، وتحوّلت، وأعادت إنتاج نفسها في سياقات جديدة.

وتُعد التجربة الأندلسية مثالًا دالًا في هذا السياق. فقد أصبحت اللغة العربية في الأندلس لغة جامعة لمجتمعات متعددة الأديان والثقافات، لا لأنها فُرضت بالقوة وحدها، بل لأنها كانت لغة:

- الإدارة؛
- العلم؛
- الطب؛
- الفلسفة؛
- الأدب.

> **لم تعد اللغة في عالم اليوم، مجرد أداة للتواصل اليومي أو وعاء للتراث الثقافي، بل تحوّلت إلى فاعل استراتيجي في العلاقات الدولية**

تعلّمها غير المسلمين لأنها كانت لغة الترقي الاجتماعي والمعرفي، وحين تراجع الوجود السياسي الإسلامي، لم تختفِ العربية من الذاكرة الأوروبية، بل انتقلت علومها إلى الجامعات الناشئة، وأسهمت في تشكيل ملامح النهضة الأوروبية. وهنا يفرض التاريخ سؤالًا جوهريًا:

ما الذي بقي من تلك الحضارة؟

الجواب ليس الجيوش ولا القلاع، بل آثار اللغة والمعارف التي أنتجت في سياق تلك الحضارة، حيث اقتبست اللغات الأوروبية التي كانت في طور التشكل، كما هائلا من المصطلحات والمفاهيم، وأسماء العلوم، والآلات، واللباس، وأنماط العيش، من اللغة العربية.

3. العربية اليوم - لغة عالمية في مفترق الطرق

تُعد اللغة العربية اليوم من بين أكثر اللغات انتشارا في العالم، وهي لغة رسمية في منظمات دولية كبرى، ولغة ثقافة وإعلام واقتصاد ودين، غير أنها تواجه في السياقات الدولية تحديات متعددة، من أبرزها:

- اختزالها في بعدها الديني؛
- ربطها بالصراعات بدل ربطها بالحوار؛
- تقديمها كلغة صعبة ومنغلقة؛
- وغياب خطاب عالمي موحّد حولها.

ومع ذلك، يشهد الواقع العالمي إقبالا متزايدا على تعلم العربية، خاصة في:

- الجامعات الأوروبية والأمريكية؛
- المعاهد الدبلوماسية؛
- مراكز الدراسات الدولية؛
- البرامج المرتبطة بالاقتصاد والطاقة والإعلام.

وهو ما يكشف مفارقة لافتة وهي، أن العربية مطلوبة عالميًا، لكنها لا تُقدَّم دائمًا بالصورة التي تليق بمكانتها. ومن هنا، لا يكمن التحدي في اللغة ذاتها، بل في الخطاب المصاحب لها، وفي الرؤية التي تؤطر تعليمها ونشرها.

> **اللغة، حين تُدرَّس، لا تنقل كلمات وقواعد فحسب، بل تنقل طرق التفكير وأنماط التعبير والقيم الضمنية، والتصورات عن الذات والعالم**

4. تعليم العربية للناطقين بغيرها: من اللسانية التعليمية إلى الكفاية التواصلية

عرف مجال تعليم العربية للناطقين بغيرها، خلال العقود الأخيرة، تحولات عميقة على مستوى الرؤية والمنهج. فلم يعد الهدف محصورا في تمكين المتعلم من القواعد، بل في بناء كفاية تواصلية وثقافية متكاملة. وأصبح تعليم العربية مجالًا تتقاطع فيه:

- النظريات اللسانية الحديثة؛
- اللسانيات التطبيقية؛
- اللسانيات التعليمية؛
- اللسانيات الاجتماعية؛
- علوم التربية؛
- والدراسات الثقافية والحضارية.

فالدرس اللغوي اليوم يُنظر إليه بوصفه:

- فضاء للحوار؛
- مجالاً لبناء التفاهم؛
- وسيلة للتقريب بين الثقافات؛

وحين يُحسن تصميم هذا الدرس، يتحول تعليم اللغة إلى ممارسة دبلوماسية صامتة، تُسهم في تفكيك الصور النمطية، وبناء علاقات إنسانية قائمة على الاحترام المتبادل.

5. المدرس.. من ناقل معرفة إلى سفير للغة

يشكل مدرس اللغة العربية للناطقين بغيرها حجر الزاوية في نجاح الدبلوماسية اللغوية. فهو ليس مجرد ناقل لقواعد لغوية، بل صانع صورة ثقافية، ووسيط حضاري، وموجّه تصورات. ويتطلب هذا الدور:

- تكوينا لغويا رصينا؛
- وعيا بالسياقات الثقافية المتنوعة؛
- وقدرة على إدارة الاختلاف؛
- ومهارات تواصل عابرة للثقافات؛

ومن ثم، فإن الاستثمار في تكوين المدرسين لا يقل أهمية عن الاستثمار في المناهج، لأن المدرس هو الوجه الإنساني للغة، ومن خلاله تتشكّل صورة الثقافة التي يمثلها.

6. المملكة المغربية والدبلوماسية اللغوية - تجربة نابعة من التعدد

تمثل المملكة المغربية نموذجا متميزا في مجال الدبلوماسية اللغوية، بحكم تاريخها الطويل في التعدد اللغوي والثقافي، وبفضل موقعها الجغرافي والحضاري الذي جعلها نقطة التقاء بين إفريقيا وأوروبا والعالم العربي. وقد راكمت المملكة المغربية خبرة كبيرة في:

- تعليم العربية للطلاب الأفارقة؛

• استقبال الدارسين الأجانب من أوربا وأمريكا..

• الانغماس اللغوي الثقافي؛

• تكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات؛

• إعداد برامج تعليمية تراعي الخصوصيات الثقافية.

وتتميز هذه التجربة بكونها قائمة على الاعتدال والانفتاح، وعلى ربط اللغة بالقيم الإنسانية المشتركة، وهو ما يمنحها مصداقية دولية، ويجعلها نموذجا قابلا للتطوير والتعميم.

يضطلع مركز الإيسيسكو للغة العربية بدور محوري في دعم اللغة العربية وتعزيز حضورها العالمي، من خلال رؤية شمولية تربط بين التعليم والثقافة والحوار الحضاري والتنمية المستدامة

7. دور مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها في ترسيخ الدبلوماسية اللغوية

يضطلع مركز الإيسيسكو للغة العربية بدور محوري في دعم اللغة العربية وتعزيز حضورها العالمي، من خلال رؤية شمولية تربط بين التعليم والثقافة والحوار الحضاري والتنمية المستدامة. ويعمل المركز على:

• دعم برامج تعليم العربية في الدول الأعضاء بالإيسيسكو وخارجها الناطقة بلغات أخرى؛

• تطوير المناهج والمواد التعليمية؛

• تكوين المدرسين وتأهيلهم؛

• تشجيع البحث العلمي؛

• تعزيز التعدد اللغوي والثقافي.

وتنطلق هذه الجهود من قناعة راسخة بأن اللغة ليست غاية في ذاتها، بل وسيلة لبناء الإنسان، وتعزيز السلم، وترسيخ قيم التعايش والتفاهم.

8. الذكاء الاصطناعي وتعليم العربية عالميا

يفتح التحول الرقمي آفاقًا واسعة أمام تعليم العربية ونشرها عالميًا، من خلال:

يعلمنا التاريخ الإنساني أن النفوذ العسكري، مهما بلغ، يظل محدودًا زمنيا، بينما تمتلك اللغة قدرة فريدة على البقاء والاستمرار

• المنصات التعليمية؛

• والموارد الرقمية المفتوحة؛

• والتطبيقات الذكية؛

• وتقنيات الذكاء الاصطناعي.

غير أن هذا التحول يطرح تساؤلات جوهرية من قبيل: كيف نضمن جودة المحتوى؟ وكيف نحافظ على البعد الثقافي؟ وكيف نوازن بين التقنية والبعد الإنساني؟ وهي أسئلة تفرض على الفاعلين في مجال الدبلوماسية اللغوية تبني رؤية استشرافية متوازنة.

خاتمة: اللغة العربية والمستقبل

إن الدبلوماسية اللغوية ليست ترفا ثقافيا، بل رهانا استراتيجيا في عالم تتزايد فيه أهمية القوة الناعمة. وتعليم اللغة العربية، حين يُبنى على الجودة، والانفتاح، والرؤية الحضارية، يمكن أن يشكّل رافعة حقيقية للحوار الثقافي، وجسرًا للتفاهم بين الشعوب.

ومن خلال مبادرات مؤسساتية واعية، وفي مقدمتها الإيسيسكو، ستظل العربية قادرة على استعادة دورها الحضاري المتجدد، لا بوصفها لغة ماضٍ فقط، بل لغة حاضر ومستقبل، تُسهم في بناء عالم أكثر توازنا، وعدلًا، وإنسانية.

جبال رونزوري -أوغندا - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

مدير عام الإيسيسكو الدكتور سالم بن محمد المالك

عنوان المرحلة الجديدة تعظيم الأثر وترسيخ الشراكات

حاورته: رئيسة التحرير

قادته أقداره إلى دراسة الطب، فبلغ فيه قمة التميز العلمي، ونال أعلى درجاته من كبريات الجامعات العالمية جامعاً بين درجتي الدكتوراة في طب المناعة وطب الأطفال، لكنه مع ذلك استجاب لنداء الثقافة، التي عشقها شاعراً وناثراً، لإيمانه أن علاج الأرواح لا يقل شأناً عن علاج الأجساد، لينتقل من رحاب المهنة إلى فضاء الرسالة الواسع.

ومنذ أن تولى قيادة منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) عام 2019، دخلت المنظمة طوراً جديداً من الحضور والتأثير؛ اتسعت فيه دوائر الشراكات، وتعددت المبادرات، وتعزز حضورها الدولي، حتى غدت أنموذجاً لمنظمة تنبض بالحركة، وتستشرف المستقبل بثقة وطموح.

ولذلك، لم يكن الإجماع الذي أحاط بتجديد الثقة لمعالي الدكتور سالم بن محمد المالك لولاية جديدة مدتها ست سنوات سوى ترجمة طبيعية لمسيرة حافلة بالإنجاز، وإقراراً بأن مرحلة التأسيس قد أفضت إلى مرحلة جديدة عنوانها تعظيم الأثر، وترسيخ الشراكات، والمضي بالمشروع الحضاري للإيسيسكو إلى آفاق أرحب.

في هذا الحوارالقصير، حاولنا استجلاء بعض ملامح هذه المرحلة، والاقتراب من رؤية معاليه لأولوياتها وتحدياتها وآفاقها

حظيتم بثقة الدول الأعضاء لولاية جديدة ما الدلالات التي يحملها هذا التجديد بالنسبة لكم وللنهج الذي انتهجته الإيسيسكو خلال السنوات الماضية؟

إن تجديد ثقة الدول الأعضاء يمثل بالنسبة لنا تقديراً لمسارٍ مؤسسي أكثر من كونه تقديراً لشخص فهو يعكس قناعة الدول بما حققته الإيسيسكو من تحول في أساليب العمل واتساع في مجالات التأثير والشراكات والحضور الدولي. كما أنه يؤكد سلامة الرؤية التي انطلقت من جعل التربية والعلوم والثقافة أدواتٍ للتنمية وبناء الإنسان. وننظر إلى هذه الثقة بوصفها مسؤولية جديدة تدفعنا إلى مواصلة العمل والابتكار والاستجابة بصورة أكبر لأولويات الدول الأعضاء وتطلعات شعوبها ومرحلة استكمال للبناء لا مرحلة بدء جديدة.

> **تجديد ثقة الدول الأعضاء بقيادة الإيسيسكو يؤكد سلامة الرؤية التي انطلقت من جعل التربية والعلوم والثقافة أدواتٍ للتنمية وبناء الإنسان**

ما هي أبرز التحولات التي تتوقعون أن تشهدها الإيسيسكو في مجالات التربية والعلوم والثقافة مع انطلاق رؤيتها الجديدة؟

أعتقد أن المرحلة المقبلة ستشهد انتقالاً أكبر من تنفيذ البرامج إلى بناء النماذج القابلة للتوسع والاستدامة ففي مجال التربية مثلاً سنواصل دعم إعادة تأهيل المؤسسات التعليمية في الدول المتضررة من الأزمات، كما يجري اليوم في سوريا، حيث قامت الإيسيسكو بدور الميسر والحاضن للشراكات، فيما تولت جمهورية أذربيجان تنفيذ هذه المبادرة المهمة على أرض الواقع كنموذج سيجري تعميمه على نطاق أوسع.

وفي المجال الثقافي، سنواصل تطوير برنامج عواصم الثقافة في العالم الإسلامي بوصفه أحد أنجح البرامج الحضارية للمنظمة، مع التركيز على تحويل المدن الثقافية إلى منصات للإبداع والتنمية الثقافية المستدامة كما ستتواصل مساعينا لإخراج أكبر عدد ممكن من مواقعنا التراثية من قوائم المواقع المهددة بالخطر وتوسيع قائمة المواقع المسجلة وإعادة الممتلكات الثقافية المنهوبة. أما في العلوم فسنمضي نحو تعزيز الابتكار والذكاء الاصطناعي وبناء القدرات العلمية للشباب، لأننا نؤمن بأن مستقبل العالم الإسلامي يتطلب الاستثمار في المعرفة إلى جانب الحفاظ على الهوية الثقافية والحضارية.

كيف تنظرون إلى إضافة عامين كتعويض للولاية الحالية بسبب تداعيات جائحة كورونا وما الأولويات التي تسعون إلى استكمالها خلال هذه الفترة؟

ننظر إلى هذين العامين بوصفهما فرصة لاستكمال عدد من المبادرات والمشروعات التي تأثر تنفيذها خلال فترة الجائحة، لا سيما أن تلك المرحلة فرضت تحديات غير مسبوقة على المؤسسات والمنظمات في مختلف أنحاء العالم.

وخلال هذه الفترة سنركز على ترسيخ ما تحقق في مجالات التحول الرقمي والذكاء الاصطناعي والاستشراف، وتوسيع برامج بناء القدرات للشباب والنساء، وتعزيز حضور الإيسيسكو الميداني في الدول الأعضاء من خلال المراكز الإقليمية والمشروعات التنموية المشتركة.

كما سنواصل تطوير برامج حماية التراث والعواصم الثقافية، ودعم المبادرات التعليمية النوعية، وتعزيز الشراكات بين الدول الأعضاء بما يسمح بتبادل الخبرات والموارد بصورة أكثر فاعلية.

وباختصار، فإننا نعتبر هذه الفترة فرصة للانتقال من مرحلة التأسيس والتحول إلى مرحلة ترسيخ المنجزات وتعظيم أثرها على أرض الواقع.

شهدت المنظمة توسعاً كبيراً في شراكاتها الدولية كيف أمكن للإيسيسكو تحقيق التوازن بين الانفتاح على العالم والحفاظ على خصوصية القيم الحضارية والثقافية للدول الأعضاء؟

أعتقد أن هذا التوازن كان أحد أهم عوامل نجاح الإيسيسكو خلال السنوات الماضية فنحن ننطلق من قناعة راسخة بأن الانفتاح على العالم لا يعني الذوبان فيه، كما أن الحفاظ على الهوية لا يعني الانغلاق.

ولذلك حرصنا على بناء شراكاتنا الدولية على أساس الاحترام المتبادل وتبادل الخبرات والمصالح المشتركة. فالإيسيسكو تدخل إلى هذه الشراكات وهي واثقة من رصيدها الحضاري والثقافي، وقادرة في الوقت نفسه على التفاعل الإيجابي مع التجارب الإنسانية الناجحة.

لا أستبعد انضمام أعضاء مراقبين جدد مستقبلاً خاصة في ظل اتساع شبكة شراكات المنظمة وحضورها الدولي المتنامي

وقد أثبتت التجربة أن العالم أصبح أكثر اهتماماً بالقيم التي تحملها حضارتنا الإسلامية في مجالات التعايش والحوار والتنوع الثقافي. ومن هنا جاء توسع شراكاتنا مع منظمات دولية ومؤسسات أكاديمية وثقافية كبرى، دون أن نفقد بوصلتنا الأساسية المتمثلة في خدمة أولويات الدول الأعضاء وصون هويتها الثقافية والحضارية.

نحن لا نرى تعارضاً بين الأصالة والمعاصرة، بل نعمل على بناء جسور تجمع بينهما.

ماذا يعني انضمام تركمانستان والبرازيل بصفة عضوين مراقبين؟ وهل تتوقعون انضمام المزيد من الدول بهذه الصفة؟؟ وما الذي يعكسه ذلك بشأن المكانة الدولية المتنامية للإيسيسكو؟

انضمام تركمانستان والبرازيل بصفة عضوين مراقبين يحمل أكثر من دلالة فهو يعكس أولاً تنامي الاهتمام الدولي برسالة الإيسيسكو وبرامجها، كما يؤكد أن المنظمة أصبحت منصة جاذبة للتعاون الثقافي والتربوي والعلمي تتجاوز حدود فضائها الجغرافي التقليدي.

أعتقد أن العالم اليوم أحوج ما يكون إلى الاستثمار في الإنسان وهنا تحديداً يكمن دور الإيسيسكو، فالتربية تبني الوعي والثقافة تعزز التفاهم والعلوم تفتح آفاق التنمية

ونحن نرحب بكل دولة أو مؤسسة ترى في الإيسيسكو شريكاً للحوار والتعاون وبناء المعرفة، ولذلك لا أستبعد انضمام أعضاء مراقبين جدد مستقبلاً خاصة في ظل اتساع شبكة شراكات المنظمة وحضورها الدولي المتنامي.

والأهم من عدد الأعضاء المراقبين هو ما يعكسه هذا التعاون من ثقة متزايدة في نموذج الإيسيسكو وقدرتها على بناء جسور التواصل بين العالم الإسلامي ومختلف دول العالم انطلاقاً من قيم التعاون والاحترام المتبادل وخدمة الإنسانية المشتركة.

تولي الإيسيسكو اهتماماً خاصاً للتعليم والتراث وتمكين الشباب والمرأة والابتكار كيف يمكن لهذه المجالات أن تسهم في بناء مجتمعات أكثر استقراراً وتنمية؟

نحن في الإيسيسكو ننظر إلى هذه المجالات بوصفها منظومة مترابطة، فالتعليم الجيد يبني الإنسان القادر على المشاركة في التنمية، وحماية التراث تعزز الهوية والانتماء، وتمكين الشباب والمرأة يوسع دائرة الإنتاج والإبداع داخل المجتمع، بينما يفتح الابتكار آفاقاً جديدة للنمو الاقتصادي والمعرفي.

ولذلك فإن الاستثمار في هذه المجالات هو في جوهره استثمار في الاستقرار والتنمية فالمجتمعات الأكثر تعليماً ووعياً واعتزازاً بهويتها والأقدر على إشراك شبابها ونسائها في صناعة المستقبل هي المجتمعات الأكثر قدرة على مواجهة التحديات وتحقيق التنمية المستدامة.

ومن هنا جاءت قناعة الإيسيسكو بأن بناء الإنسان يظل المشروع التنموي الأكبر والأكثر أثراً على المدى البعيد، وفي رصيدنا عدد من المبادرات الخلاقة بالخصوص منها: برنامج المهنيين الشباب وبرنامج سفراء السلام إضافة إلى تخصيص العام 2021 عاماً للمرأة، فضلا عن برامج تعليمية خاصة بالفتيات والنساء نفذتها المنظمة.

لدي الإيسيسكو عدد من المراكز الإقليمية وقد طُرحت مؤخراً فكرة إضافة مركز إقليمي للإيسيسكو في تتارستان. ما الإضافة التي يمكن أن يحققها للمنظمة؟

إن إنشاء مركز إقليمي للإيسيسكو في قازان سيمثل إضافة مهمة لمسيرة المنظمة، خاصة أننا نمتلك تجارب ناجحة في هذا المجال. فالمركز الإقليمي في الشارقة أصبح منصة فاعلة

للبرامج الثقافية وبناء القدرات، كما قدم مركز الإيسيسكو الإقليمي في باكو نموذجاً متميزاً في دعم التعاون العلمي والتقني وتعزيز الشراكات مع المؤسسات الوطنية والإقليمية.

ومن هذا المنطلق نتطلع إلى أن يشكل مركز قازان جسراً جديداً للتعاون مع مؤسسات الاتحاد الروسي ودول آسيا الوسطى، وأن يسهم في مجالات الابتكار والتكنولوجيا وريادة الأعمال والاقتصاد الإبداعي ففلسفة المراكز الإقليمية تقوم على تقريب عمل الإيسيسكو من شركائها ومستفيديها، وتحويل الرؤى والبرامج إلى مشروعات أكثر التصاقاً باحتياجات المناطق المختلفة وخصوصياتها التنموية والثقافية.

في ظل التسارع الكبير للذكاء الاصطناعي والتقنيات الحديثة ما الدور الذي يمكن أن تضطلع به الإيسيسكو لحماية الهوية الثقافية واللغوية لدول العالم الإسلامي مع الانفتاح على المستقبل؟

أرى أن الذكاء الاصطناعي فرصة تاريخية إذا أحسنا التعامل معها وتوظيفها، والسؤال اليوم ليس كيف نمنع التكنولوجيا أو نحدد نطاقها بل كيف نضمن حضور لغاتنا وثقافاتنا وقيمنا داخل هذه التكنولوجيا.

سنواصل تطوير برامج حماية التراث والعواصم الثقافية، ودعم المبادرات التعليمية النوعية، وتعزيز الشراكات بين الدول الأعضاء بما يسمح بتبادل الخبرات

ومن هنا تعمل الإيسيسكو على دعم المبادرات المتعلقة بالذكاء الاصطناعي الأخلاقي وتعزيز المحتوى الرقمي باللغة العربية ولغات العالم الإسلامي، وبناء القدرات في مجالات التقنيات الناشئة، حتى تكون دولنا شريكاً في صناعة المستقبل لا مجرد مستهلك له.

وفي الوقت نفسه نؤمن بأن حماية الهوية الثقافية لا تتحقق بالعزلة، وإنما بالحضور الفاعل والإنتاج المعرفي والإبداعي. لذلك نسعى إلى توظيف التقنيات الحديثة في خدمة التراث واللغات والتعليم والثقافة، بما يضمن انتقال موروثنا الحضاري إلى الأجيال القادمة بلغة العصر وأدواته، وقد كنا من أوائل المنظمات التي بادرت لإطلاق ميثاق أخلاقي لاستخدامات الذكاء الاصطناعي وهو ميثاق الرياض والذي يمثل الآن مرجعاً ومسطرة قيمية وتقنية مهمة.

نعتبر هذه الفترة فرصة للانتقال من مرحلة التأسيس والتحول إلى مرحلة ترسيخ المنجزات وتعظيم أثرها على أرض الواقع

في ظل التحولات المتسارعة التي يشهدها العالم كيف تتصورون دور الإيسيسكو مستقبلاً في جعل الثقافة والتربية والعلوم جسوراً للتقدم والسلام بين الشعوب؟

أعتقد أن العالم اليوم أحوج ما يكون إلى الاستثمار في الإنسان وهنا تحديداً يكمن دور الإيسيسكو فالتربية تبني الوعي، والثقافة تعزز التفاهم بين الشعوب، والعلوم تفتح آفاق التنمية والازدهار. ولذلك سنواصل العمل على جعل هذه المجالات جسوراً للحوار والتعاون لا سيما في عالم تتزايد فيه التحديات والانقسامات إذ نؤمن أن بناء السلام يبدأ من ترسيخ ثقافة الاحترام المتبادل والمعرفة المشتركة والاعتراف بالتنوع.

وطموحنا أن تظل الإيسيسكو منصة تجمع العقول والخبرات والثقافات وتسهم في بناء مستقبل تكون فيه التربية والعلوم والثقافة قوة دافعة للتنمية والسلام والتقارب الإنساني بين شعوب العالم.

إن طلب منكم توجيه رسالة واحدة إلى شباب العالم الإسلامي، فما القيمة أو الفكرة التي ترون أنها الأهم لبناء مستقبل أكثر إشراقاً وازدهاراً؟

رسالتي إلى شباب العالم الإسلامي هي: آمنوا بقدرتكم على صناعة المستقبل، وتمسكوا بهويتكم وأنتم تنفتحون على العالم.

نحن نعيش زمناً تتسارع فيه المعرفة والتقنيات بصورة غير مسبوقة ولن يكون النجاح فيه للأكثر عدداً بل للأكثر علماً وابتكاراً وقدرة على التعلم المستمر لذلك أدعو الشباب إلى الاستثمار في المعرفة وإلى التحلي بروح المبادرة والإبداع وعدم الخوف من التغيير.

وأؤمن أن أعظم معادلة يمكن أن تصنع مستقبلاً أكثر إشراقاً هي الجمع بين الأصالة والمعاصرة، أن نحافظ على قيمنا وهويتنا وفي الوقت نفسه نشارك بفاعلية في بناء عالم الغد فالشباب هم صناع المستقبل حقاً.

ما المكانة التي تتصورونها للأدب والفنون في مشروع النهضة الذي تسعى الإيسيسكو إلى ترسيخه في العالم الإسلامي وأنتم الشاعر والأديب والطبيب ؟

أؤمن بأن النهضة لا تُبنى بالعلوم والتقنيات وحدها، بل تحتاج أيضاً إلى الثقافة والأدب والفنون، لأنها المجالات التي تصوغ الوجدان الإنساني وتمنح التنمية معناها الأعمق.

فالآداب والفنون من أدوات بناء الإنسان، وتعزيز قيم الجمال والتسامح والحوار والانتماء. ومن هنا جاء اهتمام الإيسيسكو بإطلاق مبادرات ومراكز متخصصة تعنى بالشعر والأدب والفن والتراث، إيماناً بدورها في تنمية الإبداع وترسيخ الهوية الثقافية.

وأعتقد أن الأمم لا تُقاس بما تنتجه من معرفة مادية فحسب، بل أيضاً بما تنتجه من جمال ومعنى. ولذلك فإن مشروع النهضة الذي ننشده هو مشروع متوازن يجمع بين العقل الذي يبتكر، والروح التي تبدع، والإنسان الذي يبني الحضارة ويحافظ على قيمها في آن واحد.

ما تحقق للإيسيسكو خلال السنوات الماضية هو ثمرة دعم الدول الأعضاء وثقتها، وجهود الشركاء والخبراء والعاملين في المنظمة وتعاون اللجان الوطنية

كلمة أخيرة

أود أن أؤكد أن ما تحقق للإيسيسكو خلال السنوات الماضية هو ثمرة دعم الدول الأعضاء وثقتها، وجهود الشركاء والخبراء والعاملين في المنظمة وتعاون اللجان الوطنية في كل الدول الأعضاء، وما زال أمامنا الكثير لننجزه في خدمة التربية والعلوم والثقافة في عالمنا الإسلامي.

ونحن ننظر إلى المستقبل بتفاؤل كبير لأننا نؤمن بأن أمتنا تمتلك من الطاقات البشرية والإرث الحضاري والقدرات الإبداعية ما يؤهلها للإسهام الفاعل في صناعة مستقبل الإنسانية.

وستظل الإيسيسكو بعون الله بيتاً للمعرفة وجسراً للحوار ومنصة للتعاون، تعمل من أجل بناء الإنسان، وتعزيز قيم السلام والتنمية والتعايش، إيماناً بأن الثقافة والتربية والعلوم هي الاستثمار الأجدى لمستقبل أكثر إشراقاً للأجيال القادمة.

المواقع الأثرية من حضارة مروي - السودان - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

قـــازان

جوهرة تتارستان وعاصمة الثقافة في العالم الإسلامي 2026

د. سالم بن هلال الحبسي

مدير الأمانة العامة للجان الوطنية والمؤتمرات - الإيسيسكو

سلطنة عمان

تُعدّ مدينة قازان واحدةً من أبرز المدن الإسلامية والثقافية في روسيا الاتحادية، بل إنها تمثل نموذجًا فريدًا للتعايش الحضاري بين الشرق والغرب، وبين الثقافة الإسلامية والتراث الروسي. وتقع المدينة على ضفاف نهر الفولغا، وتُعرف بأنها عاصمة جمهورية تتارستان التابعة لروسيا الاتحادية، وقد استطاعت عبر قرون طويلة أن تحافظ على هويتها الإسلامية والثقافية رغم التحولات السياسية والتاريخية الكبرى التي شهدتها المنطقة.

وفي السنوات الأخيرة، برزت قازان باعتبارها منصة عالمية للحوار الحضاري والثقافي، ووجهةً رئيسيةً للتقارب بين روسيا والعالم الإسلامي، وهو ما تُوِّج باختيارها "عاصمةً للثقافة في العالم الإسلامي لعام 2026" ضمن برنامج منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة الإيسيسكو، في حدث يعكس المكانة التاريخية والحضارية التي تتمتع بها المدينة.

قازان.. نموذج للتعايش والحوار الحضاري

تأسست قازان منذ أكثر من ألف عام، وتُعدّ من أقدم المدن الروسية ذات الامتداد الإسلامي العريق. وقد شكّلت المدينة مركزًا مهمًا لدولة بلغار الفولغا التي اعتنقت الإسلام عام 922م، وهو الحدث الذي يمثل البداية الرسمية لدخول الإسلام إلى الأراضي الواقعة ضمن حدود روسيا الحالية. وتحمل قازان طابعًا حضاريًا مميزًا؛ إذ تمتزج فيها العمارة الإسلامية بالموروث الروسي الأرثوذكسي، وتجاور فيها المساجد الكنائس في صورة تعكس روح التعايش والانفتاح. ويقطن المدينة خليط من الأعراق والثقافات، إلا أن التتار يشكلون المكون الثقافي الأبرز فيها، وهم شعب مسلم حافظ على لغته وتقاليده الإسلامية عبر القرون. وتشير البيانات السكانية الحديثة إلى أن المسلمين يشكلون غالبية كبيرة في جمهورية تتارستان، حيث تتجاوز نسبتهم 53% من السكان، بينما يُعد الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية الديانتين الرئيسيتين في المنطقة.

المعالم الإسلامية والثقافية في قازان

تزخر قازان بعدد كبير من المعالم الحضارية التي تجعلها من أهم المدن الثقافية في روسيا والعالم الإسلامي. ويأتي في مقدمة هذه المعالم "كرملين قازان"، المدرج ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو، والذي يجسد صورة فريدة للتفاعل الحضاري بين العمارة الإسلامية والروسية.

ومن أبرز معالم الكرملين مسجد "قول شريف"، الذي يُعدّ أحد أكبر وأجمل المساجد في أوروبا، وقد أصبح رمزًا للهوية الإسلامية في تتارستان. يتميز المسجد بتصميمه المعماري الفريد وقبابه البيضاء والزرقاء، ويستقطب آلاف الزوار سنويًا من مختلف أنحاء العالم. كما تضم المدينة المكتبة الوطنية لجمهورية تتارستان، ومسرح الدولة الأكاديمي "غالياسكار كمال"، وقاعة الحفلات الموسيقية الكبرى، وكلية الفنون، وهي مؤسسات ثقافية تعكس اهتمام قازان بالثقافة والفنون والإبداع. بالاضافة إلى احتضانها عددًا كبيرًا من الجامعات والمؤسسات العلمية، وفي مقدمتها جامعة قازان الفيدرالية، التي تُعد من أعرق الجامعات الروسية، وأسهمت في تخريج علماء ومفكرين كان لهم دور بارز في النهضة العلمية والثقافية.

قازان ودورها في التاريخ الإسلامي

ارتبط اسم قازان بتاريخ الإسلام في منطقة الفولغا منذ قرون طويلة، فقد كانت مركزًا حضاريًا مهمًا للتتار المسلمين، كما شكّلت إحدى أهم الحواضر الإسلامية في أوروبا الشرقية. وعبر العصور الإسلامية، لعبت المدينة دورًا مهمًا في نشر العلوم الإسلامية واللغة العربية والتعليم الديني، وكانت ملتقى للعلماء والتجار والمسافرين القادمين من آسيا الوسطى والعالم الإسلامي. كما ساهم موقعها الجغرافي على طريق التجارة التاريخي بين الشرق والغرب في ازدهارها اقتصاديًا وثقافيًا.

> **قازان جسر حضاري يربط بين الشرق والغرب حيث تتجاور المساجد والكنائس، لتقدّم للعالم نموذجًا حيًا للتعايش**

وعلى الرغم من سقوط خانية قازان عام 1552م خلال توسع الدولة الروسية القيصرية، فإن الهوية الإسلامية للمدينة لم تختفِ، بل استطاع المسلمون الحفاظ على تراثهم وثقافتهم وتعليمهم الديني، حتى أصبحت قازان لاحقًا مركزًا للإصلاح الفكري الإسلامي في روسيا.

قازان وطباعة القرآن الكريم

من أبرز المحطات التاريخية التي منحت قازان مكانة خاصة في العالم الإسلامي، دورها الريادي في طباعة المصحف الشريف. فقد شهدت المدينة إصدار واحدة من أوائل نسخ القرآن الكريم المطبوعة على يد المسلمين في روسيا في بدايات القرن التاسع عشر، وهو حدث تاريخي بالغ الأهمية في مسيرة نشر المصحف الشريف.

وقد ارتبط اسم قازان طويلًا بطباعة المصاحف، حتى أصبحت بعض النسخ تُعرف تاريخيًا باسم "المصحف القازاني". وأسهمت مطابع المدينة في نشر المصحف الشريف والكتب الإسلامية في

مناطق واسعة من روسيا وآسيا الوسطى، الأمر الذي جعل قازان مركزًا رئيسيًا للثقافة الإسلامية والطباعة العربية والإسلامية. ويعكس هذا الاهتمام العميق بالمصحف الشريف مدى ارتباط المجتمع التتري بهويته الإسلامية وحرصه على تعزيز الثقافة القرآنية لدى الأجيال الجديدة.

قازان عاصمةً للثقافة في العالم الإسلامي 2026

شكّل اختيار قازان عاصمةً للثقافة في العالم الإسلامي لعام 2026 حدثًا تاريخيًا مهمًا، ليس فقط لتتارستان وروسيا، بل للعالم الإسلامي بأسره. وقد جاء هذا الاختيار ضمن برنامج الإيسيسكو للعواصم الثقافية، الذي يهدف إلى إبراز المدن ذات الإرث الحضاري والثقافي المتميز.

وشهدت مدينة قازان احتفالية كبرى لإطلاق هذا الحدث الثقافي العالمي في مركز "قازان إكسبو"، تحت رعاية رئيس جمهورية تتارستان رستم مينيخانوف، ونائب رئيس الوزراء الروسي مارت خوشنولين، وعدد من الوزراء ورؤساء اللجان الوطنية وممثلي المنظمات الدولية والإقليمية، ووفود رسمية وثقافية من مختلف دول العالم الإسلامي. وقد أكدت كلمات المسؤولين خلال الاحتفالات أن اختيار قازان يمثل اعترافًا عالميًا بالدور الثقافي والحضاري الذي تؤديه المدينة، وبقدرتها على بناء جسور الحوار بين روسيا والعالم الإسلامي.

كما وقّعت الإيسيسكو ووزارة الثقافة في تتارستان اتفاقية تعاون استراتيجية لتعزيز المبادرات الثقافية والتعليمية والعلمية المرتبطة بهذه المناسبة، مع التركيز على حماية التراث وتمكين الشباب ودعم الإبداع الثقافي.

وحرصت تتارستان على تنظيم برنامج ثقافي متكامل يمتد طوال العام، يشمل معارض فنية، ومهرجانات موسيقية، وندوات فكرية، وأنشطة شبابية، ومبادرات لحماية التراث الإسلامي، بما يعكس طموح قازان لأن تكون منصة دولية للإبداع الثقافي الإسلامي. ومع انطلاق فعاليات "قازان عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي 2026"، تبدو المدينة اليوم أمام فرصة تاريخية لتعزيز حضورها الثقافي العالمي، وترسيخ مكانتها بوصفها إحدى أهم العواصم الإسلامية والثقافية في العالم المعاصر.

روسيا الاتحادية والإيسيسكو

تُعدّ روسيا الاتحادية من الدول المراقبة في الإيسيسكو، وقد شهدت السنوات الأخيرة تطورًا ملحوظًا في التعاون بين الجانبين، خصوصًا في المجالات الثقافية والتعليمية والحوار الحضاري. وتلعب جمهورية تتارستان دورًا محوريًا في هذا التقارب، باعتبارها الجسر الثقافي الذي يربط روسيا بالعالم الإسلامي. وقد أصبحت قازان مركزًا رئيسيًا للمنتديات الدولية التي تجمع روسيا بالدول الإسلامية، ومن أبرزها منتدى "روسيا - العالم الإسلامي: قازان فوروم"، الذي يناقش قضايا الاقتصاد والثقافة والتعليم والشراكات الحضارية. كما تؤكد القيادة الروسية باستمرار أهمية بناء علاقات استراتيجية مع العالم الإسلامي تقوم على الاحترام المتبادل والتعاون الثقافي والاقتصادي، وهو ما انعكس في استضافة قازان لعدد من الفعاليات الكبرى المرتبطة بالإيسيسكو والعالم الإسلامي.

> **حافظت قازان على هويتها الإسلامية عبر القرون، لتصبح منارةً للحوار الحضاري فهي تزخر بعدد كبير من المعالم الحضارية التي تجعلها من أهم المدن في روسيا والعالم الإسلامي**

وقد ساهمت الإيسيسكو بدورها في تعزيز هذا التعاون من خلال برامج ثقافية وتعليمية مشتركة، وزيارات رفيعة المستوى، واتفاقيات تعاون تستهدف دعم التراث الإسلامي والحوار الحضاري في روسيا الاتحادية.

وفي ظل الحضور الدولي الكبير الذي شهدته الاحتفالات، والتعاون المتنامي بين الإيسيسكو وروسيا الاتحادية، تبدو قازان ماضية نحو مرحلة جديدة من التأثير الحضاري والثقافي، مستندةً إلى تاريخ عريق، وهوية إسلامية راسخة، ورؤية مستقبلية تؤمن بالحوار والتنوع والانفتاح.

إيسيسكو
ICESCO

مجلـــة الإيسيسكو

مجلة الإيسيسكو الثقافية مجلة فصلية شاملة، تصدر عن منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة-الإيسيسكو، وتنشر رقمياً وورقياً.

شروط النشر بمجلة الإيسيسكو الثقافية

مجال النشر

ترحب المجلة بالمواد الثقافية والفكرية والأدبية، بما يشمل: المقالات، الدراسات، القراءات النقدية، النصوص الإبداعية، الحوارات، الترجمات والتقارير. كما تفرد مساحة مقدرة للمواد التربوية والاجتماعية والعلمية.

الآراء الواردة في المجلة لا تعبر عن رأي منظمة الإيسيسكو ، ويتحمل كل كاتب المسؤولية الكاملة عن الآراء والأفكار الواردة في عمله.

الأصالة

يشترط أن يكون العمل أصيلاً وغير منشور سابقًا ورقيًا أو إلكترونيًا، وألا يكون مقدّمًا للنشر في جهة أخرى في الوقت نفسه.

تعرض الأعمال المرشحة للنشر على برنامج كشف الاقتباس (I Authenticate)، ويستبعد أي عمل تتجاوز نسبة الاقتباس فيه ٪30.

اللغة والأسلوب

تُقبل الأعمال المكتوبة باللغة العربية السليمة، مع مراعاة الوضوح، سلامة الأسلوب، والدقة اللغوية.

الالتزام الأخلاقي

تحرص المجلة على احترام القيم الإنسانية والأخلاقية، لذا لا تنشر أية مادة تتضمن إساءة دينية أو عرقية أو طائفية، أو تحض على الكراهية أو العنف.

حقوق النشر

تحتفظ المجلة بحق النشر الورقي والإلكتروني، مع حفظ الحقوق الأدبية للكاتب.

التحرير

رئيس التحرير هو المسؤول الأول عن ما ينشر بالمجلة.

تخضع المواد المقبولة للمراجعة والتحرير اللغوي والفني، بما لا يخل بمضمون النص أو فكرته الأساسية.

التوثيق

في المقالات البحثية أو النقدية، يُفضّل توثيق المصادر والمراجع.

آلية القبول

تخضع جميع المشاركات لقرار هيئة التحرير، ولا تلتزم المجلة بتوضيح أسباب الرفض.

معلومات إضافية

يُرفق مع المشاركة صورة شخصية حديثة للكاتب مع نبذة مختصرة عنه لا تتجاوز 3 أسطر، مع ذكر معلومات التواصل (البريد الإلكتروني، رقم الهاتف، العنوان).

يجب ألا يتجاوز عدد كلمات المادة المرسلة **2000 كلمة**، ما لم يتم الاتفاق مسبقًا مع رئيس التحرير.

ترسل المشاركات على البريد الإلكتروني :

ICESCO_MAGAZINE@ICESCO.org

عندما تُصبح الكاميرا جناحًا

...حليمة بوصديق

حين تعجز اللغة عن الرؤية

ياسين عدنان

شاعر وكاتب

المغرب

ثمة خسارة صامتة لا يكاد يلتفت إليها أحد: حين نعجز عن تسمية ما نراه، نبدأ ببطء في التوقف عن رؤيته. طائرٌ يمر فوق رؤوسنا فلا نُسمّيه فيغدو مجرّد ظل. شجرةٌ تُظلّنا فلا نعرف اسمها فتصير مجرّد خُضرة. وادٍ يجري فلا نتذكر ما كان يُدعى فيتحوّل إلى مجرّد ماء.

هذه ليست مأساة لغوية فحسب، بل انقطاع وجودي بين الإنسان ومحيطه، تراكمَ عبر عقود حين انسحبَت اللغة العربية من الحقل العلمي الطبيعي، تاركةً الميدان للمصطلح اللاتيني، الإنجليزي أو الفرنسي، يملأه وحده. وكانت هذه اللغة يومًا ما تزخر بأسماء دقيقة لكل صنف من أصناف الطير ولكل نوع من أنواع النبات؛ كان الشاعر العربي القديم يُميّز في قصيدته بين القَطا والحُبارى والقُمريّ والبُزاة، كما يُميّز العالِم بين الأجناس والفصائل. غير أنّ الحداثة التي أعادت رسم خريطة المعرفة لم تُعِد رسم خريطة المعجم معها، فوجد عربُ هذا الزمان أنفسهم أمام طبيعةٍ بلا أسماء، أو بأسماء لا يفهمها إلّا المُختصُّون في لغات أخرى.

وتتجلى هذه المفارقة بشكل لافت في المجال الأدبي: فبينما يكتفي الكاتب العربي بالحديث العام الفضفاض عن «طائر يحطُّ فوق شجرة»، يحرص نظيرُه الغربي على تدقيق نوع الطائر وتحديد اسم الشجرة، لأن في هذه التدقيقات، فضلًا عن قيمتها المعرفية، ما يمنح العمل الأدبي مصداقيةً ويُرسّخ جذوره في المكان. لهذا بالضبط تكتسب مجهودات أمثال حليمة بوصديق قيمةً تتجاوز حدود التخصُّص؛ إذ لا يتعلق الأمر فقط بتوثيق الطيور، بل بإعادة بناء الجسر المكسور بين اللسان العربي والعالَم الطبيعي، بين الذاكرة الثقافية والواقع البيئي الراهن.

يُعدّ المغرب الأغنى بأنواع الطيور في حوض البحر الأبيض المتوسط، بحكم تنوع نُظُمه البيئية

قبل أن يستيقظ العالم، تكون حليمة بوصديق قد سبقته. تحمل كاميرتها الثقيلة وتشقّ طريقها نحو الغابة أو الوادي أو السهل المفتوح. تختار مخبأها بصبر الصياد وحدس الفنان، وتنتظر تلك اللحظة التي لا تُحسب بالثواني، بل بنبضات القلب، حين يُفصح الطيرُ عن نفسه غافلًا، فتضغط على الزر لتصطاد لحظةً من الجمال الحيّ قبل أن تفرّ إلى الأبد.

هكذا تعيش حليمة بوصديق، المصوِّرة المغربية التي جعلت من عدستها لسانًا ينطق بما تعجز عنه الخُطب والتقارير؛ شاهدةً على جمال الطبيعة ومُنبِّهةً في الآن ذاته إلى هشاشة هذا الجمال وسُرعة تلاشيه. لكنها، وهذا ما يميّزها، لا تكتفي بالتقاط الصور؛ بل تبحث لكل صورة عن اسم وسياق، ممّا يجعلها في صميم مشروع أعمق: مشروع الوعي بالمجال البيئي والطبيعي الذي نعيش فيه.

لم تولد حليمة بوصديق مصوِّرةً، بل وُلدت مفتونة. منذ نعومة أظفارها كانت تقف مشدوهةً أمام جمال النباتات والحيوانات، كأنّ الطبيعة كانت تناديها بلغةٍ لا يسمعها إلا من أوتوا حساسية الفنانين. تلك الفتنة المبكرة شقّت طريقها إلى خياراتها الأكاديمية، فتخصصت في علوم الحياة والأرض وأصبحت أستاذة، لكنها لم تكتفِ بجدران الفصل الدراسي مسرحًا لشغفها؛ إذ انخرطت منذ ثمانينيات القرن الماضي في تأسيس أندية بيئية تعليمية بمدينة مراكش، حاملةً رسالتها إلى أجيال ناشئة.

ثم وجدت في الطير ما يكتمل به المعنى. انضمّت إلى مجموعة البحث لأجل حماية الطيور، وانتخبها زملاؤها عضوًا في مجلسها الوطني، فانكبّت على تعداد الطيور وتتبُّع أنواعها ورصد أحوالها. وفي تلك الرحلات الميدانية لاحقتْ عينُها جمالًا يفوق ما يستطيع القلم وحده أن يصفه، فأمسكت بالكاميرا أداةً لا للتزيين، بل للتوثيق والشهادة. وبعد أن أنهت مسارها في الوظيفة العمومية ووفّر لها التقاعدُ حريةً بلا أعباء، لم تستسلم لراحة الظل؛ بل تفرّغت للإبداع بكل ما أوتيت من طاقة، فانتُخِبَت رئيسةً للجمعية المغربية لمصوّري الحياة البرية، وباتت اليوم أول امرأة مغربية تقتحم هذا العالم الحِكر على الرّجال، وصارت موثّقةً رسمية مُعتَمَدة لطيور المملكة وحيواناتها من أقصى البلد إلى أقصاه.

حين نعجز عن تسمية ما نراه، نبدأ ببطء في التوقف عن رؤيته

من الواضح أنّ وراء الفتنة بصقرٍ يحلّق أو بشحرورٍ يُغرّد وجعٌ مكتومٌ تحمله حليمة بين عدستها وقلبها. تقول إن رحلاتها في الماضي كانت أكثر متعةً، أما اليوم فالإحباط صار يداهمها حين ترى كيف جفّت المناطق الرّطبة عبر ربوع الوطن: ليس بسبب الجفاف وقلة التساقطات وحدهما، بل أيضًا بسبب الاستعمال غير المُعقلَن

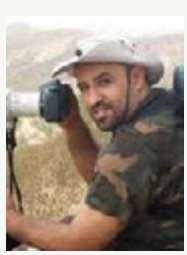

باتريك بيرجيي

عبد الجبار قنينبة

سعيد لحروز

رفراف صياد

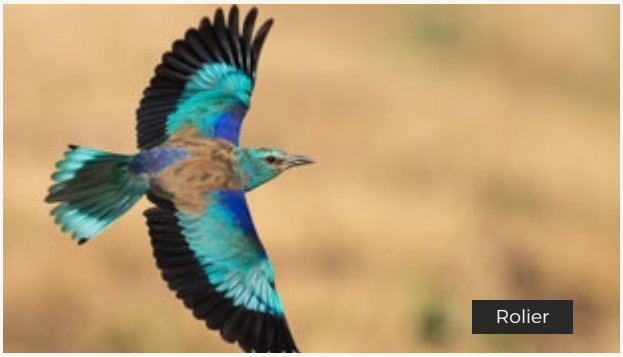
Rolier

الكاتب

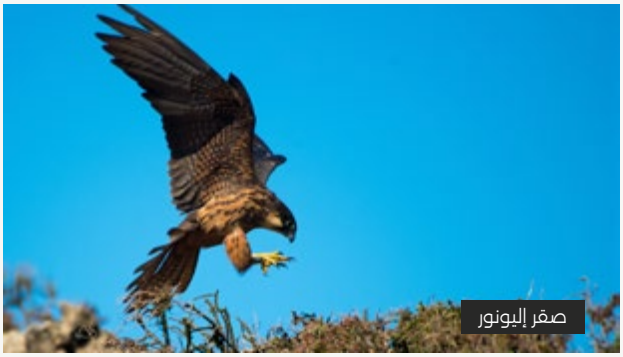
صقر إليونور

أبو اليسر المطوق

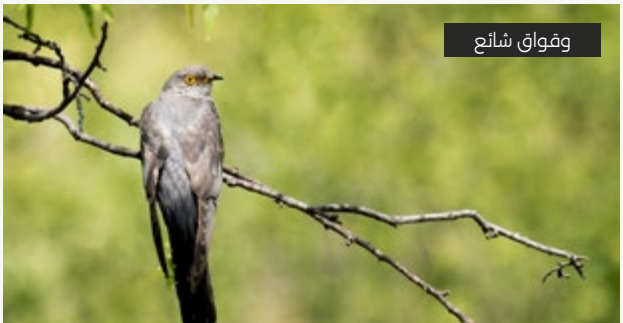
وقواق شائع

للموارد المائية وجشع الإنسان الذي حوّل هذه المناطق إلى مُنشآت من الإسمنت المسلّح. والنتيجة مؤلمة: طيور مهاجرة كانت تجد في المغرب ملاذًا لم تعد تقصد بلادنا.

من هنا جاء إيمانها بأن الكاميرا ليست أداة تجميل، بل وسيلة تحسيس. تقول إن تصوير الحياة البرية هو «إصغاء لرفرفة جناح الطير والفراشة، إصغاء لحفيف الأشجار وخرير المياه، وعناق لمختلف مكونات الطبيعة وتمثّل في دقيق تجليات الخالق». وهكذا صارت صورُها رسائل مفتوحة إلى ضمير الإنسان قبل أن تكون لوحات جمالية.

كان لا بدّ أن يتجاوز هذا الشغف حدود المعارض والمجلات ليتجسّد في عمل يصمد للزمن. فبالتعاون مع عبد الجبار قنينبة، الأستاذ الباحث بالمعهد العلمي لجامعة محمد الخامس، وباتريك بيرجيي، أستاذ التعليم العالي ومرجع لا يُنازَع في علم طيور المغرب، وسعيد لحروز، المتخصص في التنوع البيولوجي، أعدّت حليمة بوصديق موسوعة «المغرب على رفة جناح»، التي أصدرتها أكاديمية المملكة المغربية عام 2025 في طبعتين متوازيتين، عربية وفرنسية.

ليس هذا كتابًا يُصنَّف في خانة الأدلة العلمية الجافة؛ بل هو جسر بين المعرفة والجمال، يُقدِّم نحو مئتي نوع من أكثر طيور المغرب تمثيلًا وإثارةً، من خلال صور فائقة الجودة مرفوقة بنصوص دقيقة تتناول هيئة كل طائر وسِماته الشكلية، سلوكَه وأحواله الموسمية: دورة حياة الطائر بين الهجرة والتَّشتِية والتّوالد. ويُعَدّ هذا الكتاب المؤلَّفَ الأكثر شمولًا من حيث الصور المتوفرة للطيور المغربية حتى اليوم. أما نُسخَته العربية فليست مجرد ترجمة للنص الفرنسي، بل يمكن اعتبارها مجهودًا بيداغوجيًّا ومفاهيميًّا بالغ الثراء، موجَّهًا لصانعي القرار والجمهور الواسع على حدٍّ سواء، يجمع بين دقّة اللغة العربية وشاعرية المكان المغربي، بين رصانة العلم وجمالية التصوير.

وفي صفحات الكتاب تتجلى ثروة بيئية استثنائية؛ إذ يُعدّ المغرب الأغنى بأنواع الطيور في حوض البحر الأبيض المتوسط، بحكم تنوع نُظُمه البيئية: من سلاسل جبال الأطلس الشاهقة إلى غابات البلوط والصنوبر والأرز والعرعر والأركان، ومن أعماق الصحراء الكبرى إلى شريط ساحلي يمتد على أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. هكذا نتعرّف في الكتاب على الطيور المحلية كالغاق المغربي والعقعق المغاربي والقرقف المغاربي، وعلى الأنواع المهددة بالانقراض كالبط ذي الرأس الأبيض والحجل الرخامي والحبارى الملتحية، إضافةً إلى الطيور المهاجرة التي تعبر المغرب موسميًّا وتستقر خلال فترات التَّشتية بمناطقه الرطبة.

يبقى المغرب، بتنوع نُظُمه البيئية الاستثنائي، محطةً لا غنى عنها في خريطة الهجرة الطيرية العالمية. وهذا الكتاب ليس سوى مرآة لذلك الغنى، تمسك بها حليمة بوصديق بيدين لا ترتجفان، مؤمنةً بأن الجمال الحيّ ليس مكتسبًا محسومًا، بل يقف دائمًا على توازن هشٍّ بين الإنسان والمكان والزمان.

وحين تغلق الكتاب، لا تُغلق معه الصور؛ بل تظل تلاحقك، كأن تلك الطيور التي حبستها حليمة في صفحاته لا تزال تُرفرف في خيالك ووجدانك في انتظار من يُحسن تسميتها أولًا، ثم يُحسن صونها ورعايتها من أجل مستقبل لا تهجرُه الطيور ولا يُجافيه رفيفُ الأجنحة.

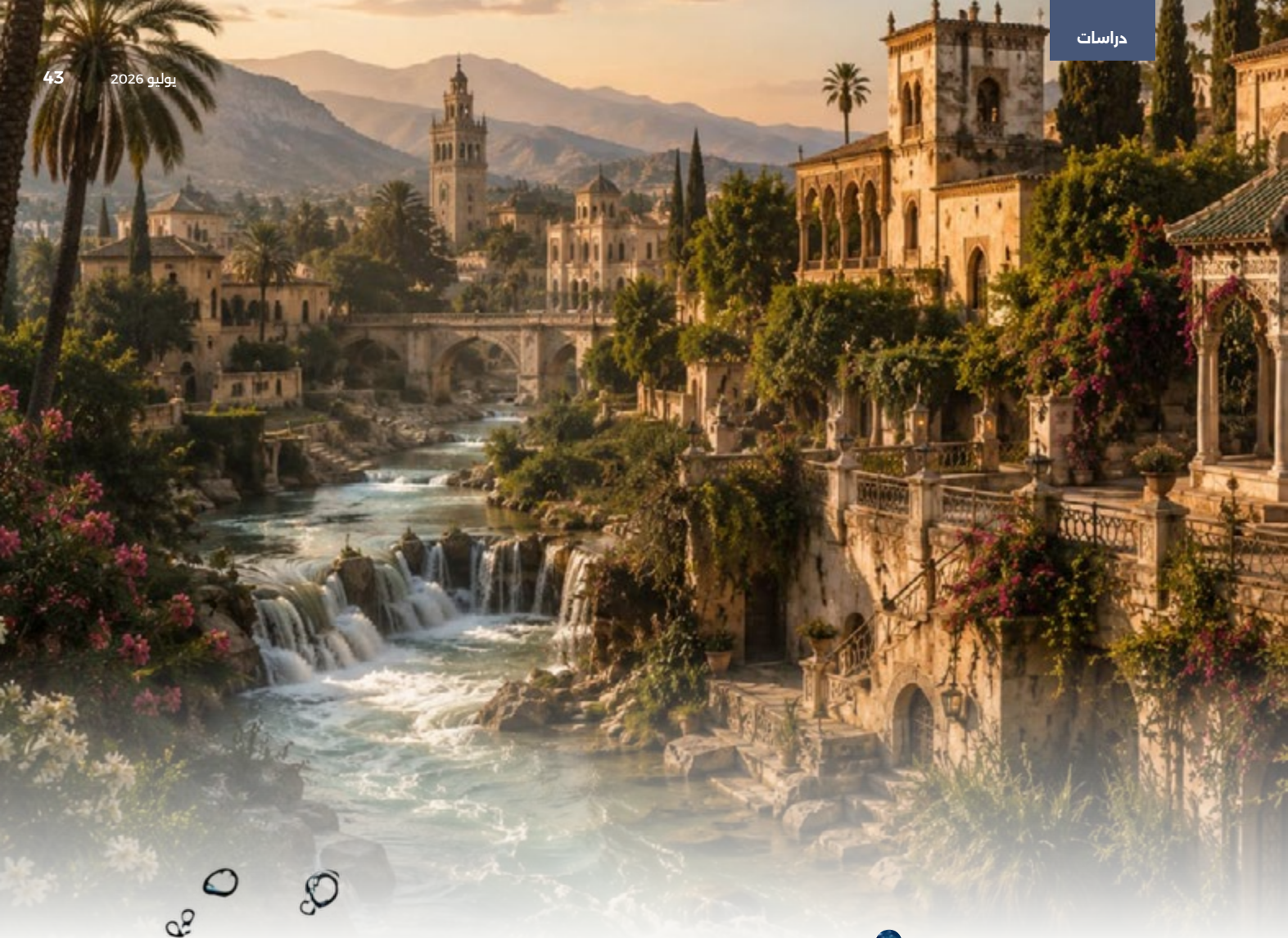

الماءُ في الشِّعر العربي: نبضٌ للحياة ومرادفٌ للرَّقص

د. سفيان البرَّاق
كاتب وباحث
المغرب

كنت ذات صائفةٍ بمسقط رأسي بالجنوب أجابه قسوة الطقس بمسامرة كتابٍ من أطايب تراثنا: «البصائر والذخائر»، وهو كتابٌ مؤنسٌ خفف عنِّي ونقلني من بيتنا الطيني إلى دواليب تتعدَّى الواقع؛ فمنه متحتُ روعة اللفظ، واستأنستُ بالنَّفَس الفلسفي الممزوج بالبراعة الأدبية في الانتقال من مسألةٍ إلى أخرى، وتُهْتُ في حكاياتٍ لطيفةٍ استدعاها أبو حيان التوحيدي بدقةٍ عالية ووظفها بمهارةٍ لافتةٍ في سياقات محددة متنقلًا بين درر التراث العربي الإسلامي من شعرٍ وأخبارٍ ونوادر. وأنا أقلِّب صفحات هذا الكتاب وقع بصري على عبارة بليغة لابن عباس يصف فيها محاسن المطر، الذي نعدُّه نحن أبناء الأرياف والمداشر، نبض الحياة: «المطر بعلُ الأرض» (يُنظر: أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج9، تحقيق: وداد القاضي، بيروت: دار صادر، ط1، 1988، ص187). لم أبالِ كثيرًا بالصورة الشعرية الزاهية التي يرشحُ بها هذا القول بقدر ما تصلبتُ في مكاني أتأمَّلُ الحياة بلا مطر في بيئة سِمتها صعوبة المناخ ووعورة التضاريس، وما إنْ فتحت باب الغرفة حتى رمقتُ صهريجًا صغيرًا غمره الخواءُ يحتلُّ بهو الدار لردح من الوقت دون أن تعبث به تصاريف الحياة. شُيِّد الصهريج لتُجمَّع فيه مياه الأمطار العذبة حتى لا يشملها الضياع، ويُوظف ماؤه في غسل الملابس والأواني، وإذا غزانا المطر وامتلأ يحفر والدي ثقبًا في الأسود فينزلُ الماء متدفقًا صوب النباتات المحيطة به.

ظلَّ هذا المشهدُ مرسومًا في تلابيب ذاكرتي، وتقوَّى عندي حينما زرتُ رِياضات (جمع رِياض) مدينة مراكش التي تزاوج بين الفخامة والعتاقة، بين الأصالة والبراعة في الخلق والابتداع، وكانت جلُّها تؤثثها نوافيرُ ترسمُ صورًا نضيرة يكون الماءُ نواتها. وكنتُ دائمًا أتساءلُ: «لماذا يتشبثُ الفردُ المغربي بهذه النوافير رغم تبدُّل الأحوال؟ وهل تغنى بها أدبيًا في سالف الأحقاب؟» ظلَّ هذا السؤال لصيقًا بذهني إلى أنْ شرعتُ في مطالعة بحثٍ نقديٍّ عُنِيَ بالغوص في صورة الماء كما تمثلها الشعر العربي في حقبتين رئيستين:

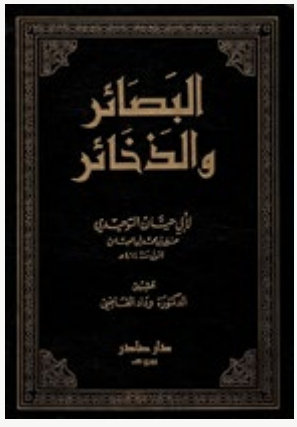

أبو حيان التوحيدي

ما قبل الإسلام وفترة المجد والحظوة في الأندلس قبل أن يلفّنا التخاذل والانكفاء، وهو للناقدة السعودية رانية محمّد العرضاوي التي كنّتهُ بعنوان: «خطواتٌ فوق الماء: دراسة ظاهراتية لصورة الماء في الشّعر العربي»، وقد صدر عن دار أدب بالرياض في طبعته الأولى عام 2023م، ويمتد على مساحة 415 صفحة من القطع المتوسط. لا شكَّ أنَّ الكائن العربي يعد من أجلّ من قرض حتى جعل اللغة خانعة أمامهُ، ومن ثمّة فإنّه صار يُطوعها ويشيّد صورًا شعرية بسخاء متخذا من الطبيعة مجالًا خصبًا لذلك، فكان يُقدّس الماء ويُلاعبُ النار، ويحومُ حول الصحراء، ويتبذخ في وصف العيس، غير أن الماء اتسم بالفرادة، ولعل منبع ذلك هو أنّه يُشكّل صورة أصيلة، متنوعة، وفي غاية التركيب مع الصور الأخرى التي تُشكّلها باقي مكونات الطبيعة. الراجح إذن أنَّ ما قد يُساور ذهن القارئ هو كيف يُمكن الاشتغال على تجربتين اهتمتا بصورة الماء في تباين واضح بينهما: الأولى كانت عطشى تُقاوم شظف العيش في صحراءٍ مترامية، بينما الثانية لم يغزوها الظمأ من قبل وكانت متنعمةً بلطافة الطقس واعتدال المناخ. ومن ثمّة فإنَّ النظر إلى الماء وقرض الشعر فيه سيكون في غاية الاختلاف، فضلًا عن أنَّ البحث قد استعان بآلية نقدية في غاية الأهمية تتمثلُ في الفلسفة الظاهراتية الجمالية لدى الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار الذي توغل في الصورة الشعرية وفككها أثناء انكبابه على تحليل حضور العناصر الكونية الأربعة في الشعر: الماء، النار، الهواء، والتراب. ومعلومٌ أنّها فلسفةٌ تقرأ جمالية الصورة وتعقد بينها وبين الوعي البشري أواصر متينة وتربطها بالأساطير والعادات والطقوس الدينية (ص18).

إنَّ هذه المقالة ستبالي بالقصيدة التي وظّفتها أستاذة الأدب والنقد بجامعة الملك عبد العزيز السعودية في سياق مقارنتها بين الفوارق الحاصلة بين التجربة الشعرية قبل الإسلام ونظيرتها زمن الأندلس، وهي قصيدة للشاعر المغلق ابن زمرك الذي قرض قصيدة وصفية خالصة بنفسٍ أنثويٍّ مغرٍ يتقصد من خلالها أنسنة الجامد وبثّ الحياة في الثابت، ويتأكد ذلك في البيت الآتي: «وراقصة في البحر طوعَ عِنانها --- تراجعُ ألحان القيان الأغانيا». يستنبط أنَّ هذه القصيدة قد جنحت إلى نسج علاقة بين الماء وحركة المرأة من خلال لغةٍ منمقة مشبعة بالتشبيهات والتقابلات والمفارقات رسمت حركة الماء المتدفق من الأسفل إلى الأعلى، ثم عودته التدريجية إلى منبعه، فيغدو، لشدة صفائه ونقائه، شبيهًا باللؤلؤ وهو ينزل بتمهل من السماء ليحتل الأرجاء: «إذا ما علتْ في الجو ثم تحدَّرتْ --- تُحلّي بمرفضِّ الجُمان النواحيا». الظاهر في هذه القصيدة أنَّ الماء لم يعد عنصرًا حيويًا يخضعُ لحركة صعود ونزول بقدر ما غدا صورة راقصة يسمها التناغم مصدرةً صوتًا موسيقيًا يكسر صمت القصر-البيت، ومن ثمة قد يصير مادةً صوتية باعثة على الرقص والتموج مع نغمته وحركته، وما يدعم هذا الزعم هو البيت الثامن من القصيدة الذي جاء فيه: «تعوَّد في أفنائها الطير كلما --- تجس به أيدي القيان الملاهيا» (ص352)، نلحظ في هذا البيت ربطا ذكيًا بين حركة الماء وشقشقة الطيور وغناء القيان؛ حيث إن حركة الماء هذه حينما تنصهر في صوت الطير وتتزيّن بغناء القانية فإنها تتحول إلى نغمة موسيقية مكتملة تشنف الأذن وتأسر اللُّب وترجُّ وجدان السامع.

اتسم الماء بالفرادة، ولعل منبع ذلك هو أنَّه يُشكّل صورة أصيلة، متنوعة، وفي غاية التركيب مع الصور الأخرى التي تُشكّلها باقي مكونات الطبيعة

د. رانية العرضاوي

تكشف الناقدة، التي بذلت جهدًا محمودًا في العودة إلى النصوص المؤسّسة في الشعر: نقدًا وإبداعًا في البيئتين العربية والغربية وتحليلها وتأويلها، أثناء تحليلها لنص ابن زمرك أنه تمكن بمهارة من الجمع بين الإنسان والجامد؛ حيث صارت الراقصة-النافورة تستكملُ الأغاني التي تخلقها القيان في القصر لتصنع جوًّا من الفرح والمتعة، وهذا الاستكمال الظريف يجعلها مشاركة بالقوة في الفرح، لأنها لا تفتر عن الترديد خلفهم، فهن قد يشملهن التعب والإنهاك بينما النافورة تواصل نشر نغمتها في القصر بلا بخل أو اقتصاد. جمع ابن زمرك بين صوت القيان الفاتن ونغمة الماء المتدفق نحو الأعلى والمتهادي صوب الأسفل في الآن نفسه؛ حتى إذا ركز الناظر في حركته عجز عن تمييز الجامد عن الجاري، وبين صوت الطير، وهي أصوات تنتج «جوقة غنائية» متناغمة ومنسجمة، ولعل هذا ما يدفعنا إلى استحضار ما

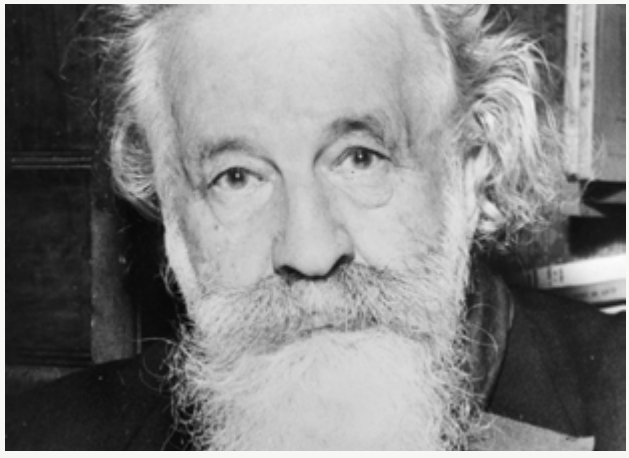

غاستون باشلار

سماه باشلار بـ «أصوات الكون المتحدة في الماء» (ص357)، ويعني بذلك أنَّ حركة هذا العنصر لم تكن يومًا حركة عادية، اعتباطية، طبيعية، بقدر ما كانت حركة تقرنُ بين الرقص والتموج والغنج الأنثوي المستنفر للمشاعر والباعث على الدهشة والتعجُّب، وهذا ما يفضي إلى جمعها لمختلف الأصوات التي تسمعها الأذن من غناء، وزقزقة، وطبطبة، وسُحٍّ حينما ينزل المطر بلا انقطاع ويعانق الأرض بقوة...إلخ؛ فالماءُ له أصواتٌ متعددة تختلفُ بتباين البيئة والتضاريس؛ فصوته المسموع في الشلال يختلف عن صوته وهو يعبرُ بتأنٍ ممرًا ضيقًا.

> **توغل الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار في الصورة الشعرية وفككها أثناء انكبابه على تحليل حضور العناصر الكونية الأربعة في الشعر: الماء، النار، الهواء، والتراب**

إنَّ فنَّ اختلاق النوافير ما كان ليُحرز في الأندلس لولا وجود فرشةٍ مائية منتعشة لم تنهك بعد، وهذا دليلٌ على وفرة المطر الذي يهطلُ معظم السنة بلا انقطاع، ومن ثمّة فإنَّ ما يرسم مخيلة الشاعر ويضع حدودها وأفقها ويتحكم في وعيه هو البيئة التي تحتويه؛ إذ لا يُمكن لشاعرٍ لم يتعرف على لطافة الجو إلّا في فترات قليلة من السنة، ولا يغزوه المطر إلّا لِمامًا، وقد تعوَّد على إيصار الفيافي والقفار، أن يبدع نصًّا مماثلًا لهذا يزخرفُ فيه العبارة ويُطوع الكلمة ويروض التشبيه محتفيًا بالماء احتفاءً ملؤه الدلال والغنج والرقص الفاتن؛ ومن هنا نفهم الحضور الكبير للخمر مقابل الماء في مختلف الحِقب الشعرية ببلدان الشرق بوصفه «مادة مائية» (ص358)، فالأول غدا في وقتٍ معين أسَّ الشعر العربي لوفرته واحتفاء

> **إن التميز الذي لحق التجربة الشعرية بالأندلس أثناء احتفائها بالماء هو إيلاء الاهتمام لصوت الماء وللأصوات التي تصاحبه وتحيط به**

الشعراء والأدباء به، ولعلَّ شعر (أبو نواس والأخطل) وكتاب «قطب السرور» وجزء مهم من «العقد الفريد» هي خيرُ توكيد على ذلك، إلّا أنَّ التشابه والتقاطع تجسد في أنَّ التجربتين الشعريتين ربطتا الماء والخمر بالرقص والغناء والموسيقى والزهو، بينما الثاني كان شحيحًا وضئيلَ المنسوب.

خلصت الناقدة، في كتابها هذا الذي دافع عن فكرة مضمونها أن الكائن البشري يعيش في تماهٍ مع الكون وفي وحدة معه ويعبر عنه من خلال الخيال والتعايش وهذه إيماءة إلى تقاطع التجربة الشعرية بالأندلس مع نظيرتها بأوروبا من خلال نقد باشلار لصورة الماء في الشعر الغربي (ص370)، خلصت إلى أنَّ التجربة الشعرية بالأندلس قد اتصفت بإمعان النظر في الجمال والسير صوب التفتيش عن مكامن الألق في الطبيعة لأن الإنسان في ذلك الإبَّان لم يعد قلقًا ومهتجسًا بالغيب، والراجح أن المعرفة الدينية التي أتاحت له إجابات عن جملة من الأسئلة هي التي جعلته بمبعد عن هذا القلق والتهجس، فضلا عن أن وفرة الماء غيَّرت التكنيك الافتتاحي من البكاء على الأطلال إلى رثاء الموتى، ضف على ذلك انتفاء ما سمَّته الناقدة رانية العرضاوي بـ «الارتباط بالصورة البدئية الممتدة من أساطير وثنية» (ص364) وهذا ينابذ الإسلام المنبني على التوحيد. إن التميز الذي لحق التجربة الشعرية بالأندلس أثناء احتفائها بالماء هو إيلاء الاهتمام لصوت الماء وللأصوات التي تصاحبه وتحيط به وتجعل صورته أبهى وأروع في الآن نفسه، علاوة على مبالاتها الواضحة بعنصر آخر يتمثلُ تقديم صورة الماء في شكل أنثوي-الرقص- رغم ذُكورته على مستوى الاسم.

إسهامات العلماء العرب والمسلمين في إرساء أسس الكيمياء الحديثة

د. عبد الوهاب السعدون

الأمين العام السابق للاتحاد الخليجي للبتروكيماويات

السعودية

استعراض إسهامات العلماء العرب والمسلمين في إرساء أسس الكيمياء الحديثة ليس مجرد استطراد تاريخي سبقني إليه الكثيرون، بل يتجاوز ذلك إلى التوقف التحليلي عند المراحل المهمة في رحلة تطور العلوم الطبيعية ودور العلماء العرب والمسلمين في إرساء قواعدها. ولا يكمن ذلك فقط في أهمية هذه العلوم وإسهامها في الحضارة الإنسانية المعاصرة، بل يكمن في أن النسبة العظمى والأهم من هذه العلوم قد تم توظيفها من قبل شعوب هذه الحضارات لبناء نهضتها العلمية والتقنية، وللأسف تم تجاهل دور صناع نظرياتها ورؤاها العلمية والمعرفية الأساسيين من العرب والمسلمين، ولذا تتضمن هذه المقالة إضاءة مختصرة لبيان وترسيخ مكانة وقيمة العلوم العربية والإسلامية في بناء المكونات الحضارية والعصرية التي نعيشها اليوم وتأكيد بصمة العرب والمسلمين في هذه العلوم وما استطاعت أن تحققه للعالم أجمع في مختلف الميادين العلمية ومنها على وجه التحديد علم الكيمياء وما أرتبط به من الصناعات الكيماوية.

ومن المهم التأكيد في هذا السياق على أن القصد من العودة إلى بدايات الكيمياء والصناعات المرتبطة بها وتدبر دور العلماء العرب والمسلمين في نشأتها هو الرد على المشككين في موروث الماضي الذي تبنى عليه معطيات الحاضر وتطلعات المستقبل.

منشأ علم الكيمياء في الدولة الإسلامية

كانت الأحداث التي حصلت ما بين القرنين السابع والعاشر حاسمة في مسار تطور علم الكيمياء، فالفتوحات الإسلامية أسهمت في اتساع رقعة الدولة الإسلامية وخلال أقل من قرن بعد وفاة الرسول ﷺ كانت الدولة الإسلامية مترامية الأطراف تحدها شرقاً بلاد السند في الهند، وغرباً جبال بيرينيه في فرنسا. ومع دخول أعراق وشعوب كثيرة في الإسلام كان لأبناء تلك الشعوب إسهامات واضحة ومؤثرة في إثراء الحضارة الإسلامية ثقافياً وعلمياً. وبعد استتباب الأمن وتوطيد أركان الدولة الإسلامية، أتجه المسلمون إلى نهل العلوم من الحواضر الإغريقية والفارسية التي كانت مراكز إشعاع ثقافي وفكري كالإسكندرية بمصر، وحرّان ونصيبين والرها بجنوب تركيا، ومدينة جنديسابور بجنوب غرب بلاد فارس. ونشطت عمليات الترجمة إلى العربية للعديد من المخطوطات الإغريقية والسريانية والفارسية، وأضحت الدولة الإسلامية بمثابة بوتقة صهرت معارف مصر الإغريقية بمزيج من المعارف المحلية، واليونانية القديمة، والفارسية.

ولم تكن الكيمياء قبل الحضارة الإسلامية سوى محاولات فاشلة لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة، معتمدة في ذلك على العقل والاستدلال المنطقي، ومبتعدة عن المنهج العلمي القائم على التجربة والملاحظة. ويسجل للعلماء العرب والمسلمين إسهامهم في تحويل علم الكيمياء إلى علم حقيقي وإخراجه من إطار الأفكار النظرية التي نقلوها عن الإغريق إلى التجربة والملاحظة والاستنتاج، وكان نتاج ذلك ذخيرة قيّمة لم يحجبوها عن العالم، بل قدّموها لمن خلفهم في العمل فبنوا أسس صرح الكيمياء الحديثة، وكان العلماء المسلمون دعامة ذلك الصرح وركيزته (Aftalion 1991: 1-7).

> **يعد جابر بن حيان أول عالم عربي مسلم يؤسّس ويبتكر علم الكيمياء، والذي بات يُعرَف في أوربا ولعدّة قرون بـ«صنعة جابر»**

وكان جابر بن حيان أول عالم عربي مسلم يؤسّس ويبتكر هذا العلم، الذي بات يُعرَف في أوربا ولعدّة قرون بـ«صنعة جابر». وبدخول القرن الثامن بدأت تتوالى نتاجات العلماء العرب المسلمين الذاتية في مجال الكيمياء القديمة أو ما كان يعرف عند العرب بـ«صنعة الكيمياء» (Sanát al-kimiya)، وكان نتاج أعمالهم بمثابة «ربيع العلوم» حتى أضحت اللغة العربية هي اللغة المتداولة للعلوم (Lingua francas) خلال القرون الوسطى. ونتيجة للإضافات التي أدخلها العلماء المسلمون وتميز نتاجاتهم الفكرية لجهة النوع والكم ظهر مصطلح الكيمياء العربية «Arabic alchemy» الذي يعكس دور العلماء العرب في ترسيخ أسس الكيمياء كعلم يعنى بالعناصر وتفاعلاتها بدلا عن الخيمياء التي كانت مرادفة للسحر وتركز على تحويل المعادن إلى الذهب.

ريادة العلماء المسلمين في علم الكيمياء ..

لم يكن لدى العرب في شبه الجزيرة العربية الذين قامت على أكتافهم الدولة الأموية (662-750) إلمام وإطلاع على علومٌ متنوعة مثل علوم الطب والكيمياء، ولذا لم يبد الأمويون في بداية دولتهم اهتماما بالمجالات العلمية بقدر اهتمامهم بالعلوم اللغوية التي شهدت تطوراً لافتاً وتوسعاً في الدراسات والأبحاث التي اهتمت بعلم النحو، خصوصاً بعد اتساع رقعة الدولة الأموية، وإسلام العديد من غير العرب، وهذا ما دفع علماء اللغة العربية للاهتمام بتثبيت قواعد اللغة العربية، وكل ما اتّصل بها من أدبٍ عربيّ في مجال الكتابة النثرية والشعرية.

أما فيما يخص الحركة العلمية فتشير المراجع التاريخية إلى أن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان كان أول من أنشأ مركزا علميا في الحضارة الإسلامية وكان وقتها منارة للترجمة والتصنيف، وآلت مكتبته إلى حفيده خالد بن يزيد (665-708) الذي يعد وفقا لابن النديم صاحب «كتاب الفهرست» أول من أنشأ خزانة عامة للكتب في الإسلام وعرف عنه اهتمامه بعلم الصنعة (الكيمياء).

استقطب خالد بن يزيد عددا من الفلاسفة الإغريق من مصر وأنفق من ماله الخاص لترجمة الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية. وذكر الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» أن خالداً كان أول من ترجم كتب الفلك والطب والكيمياء وكان ذلك أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة، وفي ذلك تأكيد على انفتاح العقلية الإسلامية، وتعايشها مع الحضارات الأخرى، فلم يُؤثر عن الحضارة الإسلامية أنها محتْ تراثاً، ولكنها استفادت من التراث الإنساني، وأضافت إليه ونقلته بأمانة، فأفادت البشرية جميعا. وكان لخالد بن يزيد فضل انتقال الكيمياء من طور البدايات المترجمة إلى طور الإنجازات العينيَّة والاكتشافات الواضحة، وقد وثقها في رسائل ثلاث ؛ هي: (السر البديع في فك الرمز المنيع)، و(فردوس الحكمة في علم الكيمياء)، و(مقالتا مريانوس الراهب).

ويُجمع المؤرخون على أن وضع أسس العلوم في الحضارة العربية الإسلامية كان خلال العصر العباسي (750-1258) وجرى عبر مرحلتين: الأولى بالاعتماد على ترجمة أعمال الفلاسفة والعلماء اليونان، والثانية بإضافة إسهامات وابتكارات العلماء العرب والمسلمين في العلوم النظرية والتقنية.

وكان لتقريب الخلفاء المستنيرين كهارون الرشيد (764-809) والمأمون (786-833) للعلماء أثره في رقي النتاج الفكري

والثقافي والعلمي في بغداد حاضرة الدولة الإسلامية آنذاك، ونتج عنه إنجازات لعلماء الكيمياء العرب والمسلمين كانت أهمها ابتكارهم «الطرق العلمية التجريبية» المستخدمة في الكيمياء الحديثة اليوم والتي أرست مبادئ التجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها، والملاحظة الدقيقة، والقياس بأسلوب لم يكن معروفاً من قبل لدى الإغريق. (Holmyard 1957:58-102).

وأسهم ثلاثة من العلماء المسلمين، وهم: جابر بن حيان والرازي والكندي في وضع اللبنات الأساسية لعلم الكيمياء الحديث «Modern Chemistry» الذي أضحى متداولا بدءا من القرن السابع عشر (سزكين 2007: 261-301).

جابر بن حيان .. والريادة في المنهج التجريبي العلمي

يعد جابر بن حيان الأزدي ويعرف في الغرب باسمه اللاتيني (Geber) «المؤسس الحقيقي لعلم الكيمياء» الذي كان يعرف بـ «علم الصنعة». وأطلق عليه الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون لقب «سيد الكيمياء» «Master of Chemistry»، وقال عنه الكيميائي والمؤرخ العلمي الفرنسي مارسيلان بيرتيلو (1827-1907) في كتابه «تاريخ الكيمياء»: «إن لجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق». (ريسلر، 1993).

جابر بن حيان

ولد جابر بن حيان في مدينة طوس بخراسان عام 722 لأب من قبيلة الأزد العربية وتنسب له الموجة الثانية من ترجمة الكتب الإغريقية إلى العربية ليس فقط في علم الكيمياء، بل في العلوم الأخرى كالفلسفة، والفلك، والطب. وتقدر المراجع التاريخية كتبه ورسائله بما يزيد على 300 مخطوطة في مختلف العلوم، وقسم كبير منها لا تتعدى كونها مقالات قصيرة. ومن أهم كتبه في مجال الكيمياء كتاب «المئة واثنا عشر كتاباً» والذي يتضمن طريقة تحضير الإكسير من النباتات والحيوانات، وكتاب «السبعين» الذي يعد مصدر ثري لدراسة العمليات وأجهزة الكيمياء في العصور الوسطى، وكتاب «الميزان» الذي تضمن آراءه حول تحويل المعادن واستنتاجه بوجود توازن طبيعي في مكونات المعادن معتبرا الذهب المعدن المثالي لجهة توازن مكوناته، مطوراً نماذج رياضية لحساب مكونات المعادن تميز بين التركيب الخارجي والداخلي للمعادن (Holmyard 1957:58-102).

> **ظلت كتب الرازي في مجال الطب المترجمة إلى اللاتينية من المراجع الأساسية التي يدرسها طلبة كليات الطب في أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر**

وتنسب لجابر الريادة في اتباع المنهج التجريبي العلمي وهو الذي جعل التجربة أساس العمل، ولذلك يُعد أول مَنْ أدخل التجربة العلميَّة المخبريَّة في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده؛ وتجسد ذلك في دعوته إلى الاهتمام بالتجربة ودقَّة الملاحظة التي يقوم عليها المنهج التجريبي، فيقول:

«ومِلاكُ كمال هذه الصنعة العملُ والتجربة؛ فمن لم يعمل ولم يُجرِّب لم يظفر بشيء أبدا».

وكان جابر بن حيان أول من صنف المواد إلى مواد كيميائية سائلة، ومعادن، وفلزات، ويُقرن باسمه اكتشاف الصودا الكاوية وطرق لتحضير حامض النتريك وحامض الخل وحامض الهيدروكلوريك، كما ينسب إليه وضع طرق للتقطير، والتنقية، والأكسدة، والتبخير، والترشيح

الرازي .. مؤسس علم الكيمياء الحديث

يعد الرازي ويعرف باللاتينية (Rhazes) المولود في عام 864 في مدينة الري الواقعة في إيران حالياً ذا عقلية فذة حتى أن كتبه في مجال الطب المترجمة إلى اللاتينية بقيت من المراجع الأساسية التي يدرسها طلبة كليات الطب في أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر. ومثل الكثيرين من الأطباء في العصور الوسطى انصرف الرازي لدراسة الكيمياء ويعد أول من ربط الكيمياء بالطب، فكان ينسب الشفاء من الأمراض بفعل الأدوية إلى التفاعلات الكيماوية التي تتم في جسم المريض. ومثلت كتبه ومخطوطاته أوج الكيمياء العربية (Arabic Alchemy) وجسدت توجهًا لإعطاء

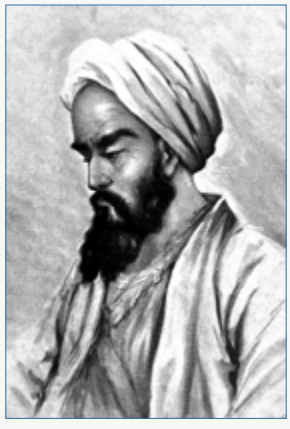

الرازي

أهمية مضاعفة للعقاقير المعدنية مقارنة بالمعالجة بالأعشاب التي كانت سائدة لدى الإغريق، ما أنتج ما يطلق عليه بدستور العقاقير (Pharmacopeia) الذي نقل إلى أوروبا في القرن الحادي عشر بواسطة الطبيب المسلم قسطنطين الإفريقي.

ويعد المؤرخون الرازي أحد أعظم علماء الكيمياء المسلمين لغزارة ما ابتكره من نظريات وآراء دقيقة ضمّنها دراساته العديدة. ووضعه المستشرق ستابليتون الذي تعمق في دراسة أعماله في مجال الكيمياء في مرتبة جاليلو (Stapleton, 1927).

وبلغت مؤلفات الرازي نحو 232 كتابا ورسالة تميزت بالالتزام بالمنهج التجريبي. ولم تصلنا من مؤلفاته سوى كتابه (سر الأسرار) «Sirr al-asrār» الذي تمت ترجمته إلى الألمانية من قبل المستشرق الألماني روسكا (Ruska) وفيه يتجلى ميله إلى الكيمياء التطبيقية كونها تقدم الكثير للطب والتي كانت بمثابة تهيئة لبروز فرع جديد هو الكيمياء الطبية (Medical Chemistry) كما كانت مدخلا لما يطلق عليه اليوم العلاج الكيمياوي (Chemotherapy). وتضمن كتابه القواعد الرئيسية لمختبرات التحليل الكيميائي، مقدماً وصفاً دقيقاً لأكثر من 20 جهازاً ابتكرها. ودوّن الرازي في مقدمة كتابه تتلمذه على كتب جابر بن حيان فكتب: «وشرحنا في هذا الكتاب ما سطّره القدماء من الفلاسفة مثل: أغاثا ديموس، وهرمس، وأرسطو، وخالد بن يزيد، وأستاذنا جابر بن حيان، بل وفيه أبواب لم يُر مثلها، وكتابي هذا مشتمل على معرفة معادن ثلاثة: العقاقير، والآلات، والتدابير (التجارب)».

بدخول القرن الثالث عشر تم اكتمال نقل المعارف العربية في مجال الكيمياء وبدأت تظهر أعمال أصيلة لمؤلفين باللاتينية متأثرة بما تم استيعابه من المخطوطات العربية

ويعد الرازي أول من طور طريقة لإنتاج الكيروسين (النفثا) من تقطير البترول (الأسفلت)، ووصف أول مصباح للكيروسين. وهو أيضا أول من ذكر حامض الكبريتيك وأطلق عليه «زيت الزاج» أو «الزاج الأخضر»، كما نجح في استخلاص الكحول بتقطير مواد نشوية وسكرية مختمرة. وكان الرازي رائداً في تطوير العديد من تقنيات الكيمياء مثل التقطير البخاري. وينسب له ابتكار العديد من الأجهزة المختبرية مثل إناء التقطير، والبوتقة، وغيرها من الأدوات التي لا تزال مستخدمة في الوقت الحاضر. كما ابتكر الرازي طرقا لتصنيع الصابون وترك وصفات دقيقة لتحضير المواد المطهرة، وكان أول من استخدم الزئبق في تركيب المراهم، وكذلك استخدم الفحم في إزالة الألوان والروائح من المواد العضوية.

الكندي .. وأطروحاته في كيمياء العطور

والركن الثالث في هذه المنظومة هو العالم والفيلسوف العربي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (805-873) الذي عرف عند الغرب باسمه اللاتيني (Alkindus) وكان له إسهامات بارزة في علوم الكيمياء. عاش الكندي في بغداد في فترة الإنارة العربية فانكب على دراسة الفلسفة والعلوم القديمة حتى حذقها وسماه ابن النديم في «الفهرست»: «فيلسوف العرب». وفي الكيمياء، عارض الكندي الأفكار القائلة بإمكانية تحويل المعادن الرخيصة إلى ثمينة في رسالة سماها «كتاب في إبطال دعوى من يدّعي صنعة الذهب والفضة». ويعد الكندي من الرواد في إرساء أسس صناعة العطور وله أبحاث وتجارب على العديد من النباتات العطرية وطرق تحويلها إلى زيوت وكتب فيها «رسالة في كيمياء العطر» والتي تعد واحدة من أوائل المراجع في تقطير واستخلاص زيت الورد وتضمنت طرقا لتحضير 107 نوع من أنواع العطور. كما ينسب للكندي الريادة في فصل الإيثانول الكحولي وبدرجة نقاوة عالية من تقطير النبيذ. .

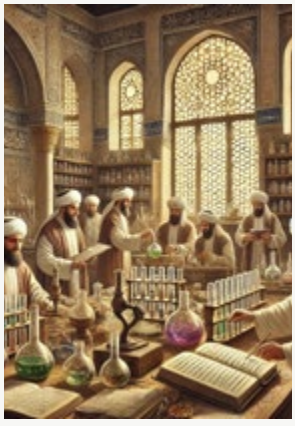

الكندي

الإرث العلمي الإسلامي .. بين الإحراق والإغراق والإشراق

نتيجة لتدمير المغول عدداً لا يحصى من الكتب عند اجتياحهم بغداد عام 1268 اندثر الكثير من أعمال العلماء العرب والمسلمين، ولذا كان انتقال علوم ومعارف المسلمين إلى أوروبا عن طريق قرطبة، أكثر مما هو عن طريق بغداد. وعلى الرغم من أن الأندلس لم تخلُ من محاولات لطمس التراث العربي والإسلامي وأبرزها في عام 1499م عندما أمر الكاردينال سيسنيروس بحرق الآلاف من المخطوطات العربية في ساحة الرملة بغرناطة مستثنيا كتب الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والصيدلة، والتي لايزال عدد كبير منها موجودا في مكتبة الإسكوريال. ولحسن الحظ لم يُفقد جزء من الموروث العلمي والتقني والطبي الإسلامي بعد سقوط الأندلس (بالإحراق) كما حصل بإتلاف الكتب والمخطوطات العربية (بالإغراق) على يد مغول الشرق عند سقوط بغداد. وبذلك أسهمت العلوم والمعارف العربية في بناء الحضارة الإنسانية الحديثة عبر انتقالها إلى أوروبا، ودحضت سردية زائفة مفادها أن العلم قفز مباشرة من الإغريق إلى النهضة الأوروبية وأن المسلمين لم يكونوا سوى حراس مؤقتين لتراث الآخرين. والحقيقة التي يقرها

مؤرخو العلوم الغربيون أنفسهم أن المسلمين لم يكونوا ناقلين، بل مبتكرين، فهم الذين أصلحوا الفلك اليوناني، وأسسوا المنهج العلمي التجريبي، وابتكروا علوم الجبر والمثلثات والبصريات، وحدّثوا الكيمياء، وأوجدوا علوم الصيدلة، وغيرها. والحضارات لا تبدأ من فراغ، فعلوم الغرب هي حلقة في سلسلة إنسانية طويلة، كان المسلمون حلقتها الأكثر إشراقاً لقرون. (سزكين، 2007)

وكانت مدينة طليطلة أهم معبر تم عبره نقل العلوم العربية إلى أوروبا عبر مدرسة طليطلة للترجمة، وشهد النصف الأول من القرن الثاني عشر بداية الظهور المنتظم للتراجم الكاملة لمخطوطات الكيمياء العربية التي ألفها جابر بن حيان والرازي على يد مجموعة من المستشرقين أبرزهم: الإنجليزي روجر بيكون الذي يعد أول من وضع قوانين المنهج العلمي متأثرا بالعلوم الإسلامية، وأهم كتبه «العمل العظيم» (Opus Majusالذي تضمن أبحاثه في الرياضيات والبصريات والكيمياء وعلم الفلك، والإيطالي هيوغو دي سانتالا الذي ترجم «رسائل في الكيمياء وعلم الرمل»، والإيطالي جيراردو الكريموني الذي ترجم مؤلفات الرازي وابن سينا والخوارزمي وابن الهيثم وجابر بن حيان والفارابي والكندي وبلغت حصيلة أعماله المترجمة من العربية 24 كتاباً في الطب، و 17 في الهندسة والرياضيات والبصريات، و 12 في الفلك، و 7 في الكيمياء. وبدخول القرن الثالث عشر تم اكتمال نقل المعارف العربية في مجال الكيمياء وبدأت تظهر أعمال أصيلة لمؤلفين باللاتينية متأثرة بما تم استيعابه من المخطوطات العربية. ومع اختراع آلة الطباعة سنة 1450 م صارت كل تلك العلوم تطبع بالآف النسخ وتنتشر في أرجاء أوروبا ما جعل طليطلة بمثابة منارة النور التي أضاءت للأمم الأوروبية دروب الخروج من ظلام العصور الوسطى. (Naser, 1983).

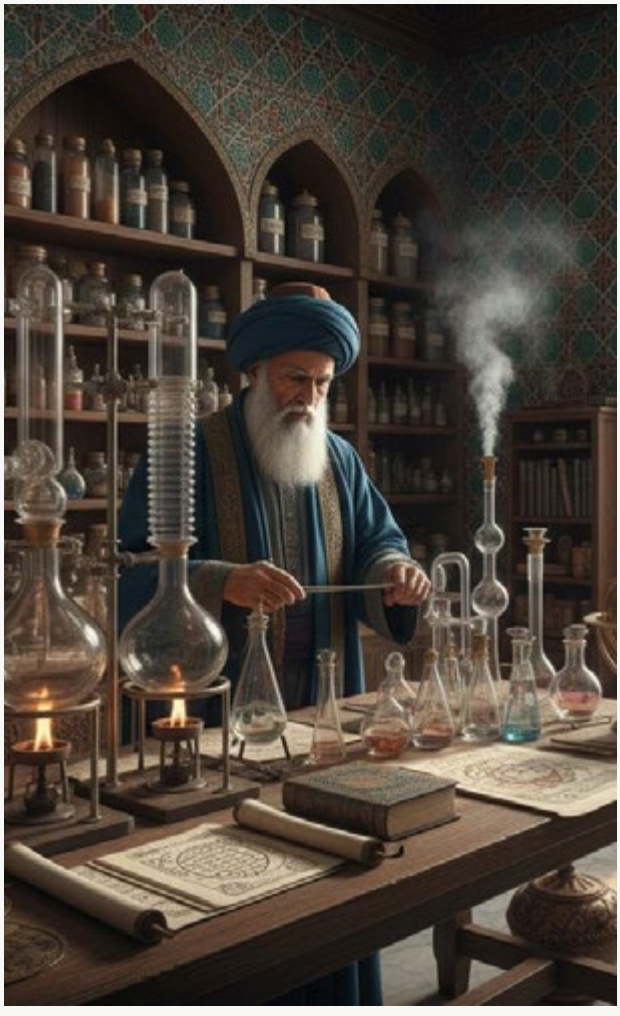

من الثوابت التاريخية المؤكدة أن مدينة طليطلة بعد سقوطها في عام 1085 على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون أصبحت أهم جسر ومعبر تم عبره نقل العلوم العربية إلى أوروبا

وبدخول عصر النهضة الأوروبية تم تطوير عمليات التصنيع الكيميائية لتلبية احتياجات السوق المتنامية التي كانت تتطلب كميات أكبر من المنتجات. وهيأت تلك المعطيات الأرضية لانطلاقة الثورة الصناعية في إنجلترا ولاحقا في ألمانيا في الفترة ما بين 1750-1850 م والتي شهدت التحول من الصناعات الصغيرة، كصناعة المنظفات الكيماوية وصناعة صبغات الأنسجة في الورش والمزارع والبيوت إلى نظام المصانع المستقلة، ورافق ذلك التحول من العمل اليدوي إلى المكننة، والتي جاءت معها الانطلاقة الحقيقية لصناعة الكيماويات الحديثة.

المراجع

1. Fred Aftalion, “A History of the International Chemical Industry”; University of Pennsylvania Press, 1991, pp 1-7.
2. E.J. Holmyard; “Alchemy- The story of the fascination of gold and the attempts of chemists, mystics and charlatans to find the Philosophers’ Stone”, Penguin Books, 1957, pp. 58-102.

3. فؤاد سزكين: «العلوم والتقنية في العالم الإسلامي – مدخل إلى تاريخ العلوم العربية والإسلامية»، المجلد الأول، 2007، ص 261-301

4. جاك ريسلر: الحضارة العربية 1993، ص172، نقلاً عن د. محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص158.

5. Henry E. Stapleton; “Chemistry in Iraq and Persia in the 10th Century AD”, Memories of the Asiatic Society of Bengal 8, 1927, pp 317-418.
6. Seyyed Hossein Naser, “Science and Civilization in Islam”, 2nd ed., Lahore, Pakistan, 1983.

شاعرٌ في زمن الضياع

م. هزبر محمود
شاعر
العراق

مَـــنْ ذَا رَأَى شَـــاعِـــراً، لا سَـــمْـــعَ يَعْـــبُـــدُهُ
تَسَـــوَّلَ العِشْـــقَ حتـــى لَمْ تَعُـــدْ يَـــدُهُ؟!

مَـــنْ ذَا رَأَى شَـــاعِرَاً لَـــمْ يَمْتَلِـــكْ أَرَقـــا
وَلازمَـــانـــاً وَلا شَكـــوى تُخَـــلِّـــدُهُ؟!

لا أُمَّ تُلْقِـــيْـــهِ فـــي يَـــمٍّ فَـــتَرْقُبُـــهُ،
وَأَلْـــفُ فِرْعَـــونَ خَلْـــفَ المَـــوجِ يَرْصُـــدُهُ

يَجـــيءُ مِـــنْ قَـــرْيَةٍ، مَـــا هَزَّهَـــا خَـــبَرٌ
مِـــنْ نِصْـــفِ قَـــرْنٍ، الى أَنْ حَـــانَ مَوْلِـــدُهُ

يَحِـــلُّ ضَيْفـــاً عَلَـــى تَـــأْرِيْخِ أُمَّـــتِـــهِ
وَ حَاتِـــمُ طَـــارِئُ الكَـــفَّـــيْنِ يَطْـــرُدُهُ!

فَيَنْـــزَوِي، خَلْـــفَ وُجْـــهِ الدَّهْـــرِ، ذاكِـــرَةً
وَ كُلَّمَـــــا رَمَشَـــتْ عَـــيْنٌ تُـــبَـــدِّدُهُ!

ضَاعَـــتْ طُفُوْلَتُـــهُ بِالـــذَّوْدِ عَـــنْ لُعَـــبٍ
كانَـــتْ عَلـــى لُعَـــبٍ أُخْـــرى تُجَنِّـــدُهُ!

كُـــلُّ النِّســـاءِ عَلـــى شَـــكٍّ تُقِيْـــمُ بِـــهِ
وَمَـــا مِـــن امْـــرأَةٍ تَرضـــى تُؤَكِّـــدُهُ!

وَالـــرُّوْحُ سَيَّـــابُهُ فِـــي عَـــيْنِ بَصْرَتِـــهِ،
يَمِيْـــلُ مِـــنْ سَقَـــمٍ، وَ الكُحْـــلُ يَسْنِـــدُهُ

وَجِـــيْنَ هَـــاجَرَ مِـــنْ دَارٍ لِـــدَمْعَتِـــهِ
وَ ظَـــنَّ أَنَّ بَنَـــاتِ الـــدَّارِ تَفْـــقِـــدُهُ

تَشَـــابَكَتْ، خَلْفَـــهُ فـــي البـــابِ، أَلْـــفُ يَدٍ
كُـــلٌّ تَقُـــولُ: أَنَـــا مَنْ سَـــوْفَ يُوْصِـــدُهُ!

وَكـــانَ لِلأَمْـــسِ أَعْتَـــابٌ، تَجَـــاوَزَهَـــا،
وَظَـــلَّ مُنْشَغِـــلاً حَـــتَّى مَـــضى غَـــدُهُ!

فَأَمْتَـــدَّ فَـــوقَ مَسَاحَـــاتِ العِتَـــابِ فَمـــاً،
لَـــمْ يَـــدْرِ أَقْرَبُـــهُ مـــا قـــالَ أَبْعَـــدُهُ

وَقَلْـــبُـــهُ هَـــرَمٌ، هَـــمٌّ جَـــوانِـــبُـــهُ
مِـــنْ أَيْـــنَ مـــا جَـــاءَتِ الأَشْعَـــارُ تَصْعَـــدُهُ

وَكـــانَ يَبْـــتَـــلُّ بالأَقْـــدَارِ، فَانْطَـــفَـــأَتْ
مَشَاعِـــلُ الصَّـــبْرِ بَـــرْداً وَهْـــيَ تُوقِـــدُهُ

وَكَـــانَ يَغْـــفِـــرُ لِلأَقْـــوَاسِ زَلَّتَـــهَـــا،
فَقَـــدْ يُصِـــيْـــبُ، إِذا غَـــافٍ يُسَـــدِّدُهُ!

تَفَـــرَّقَ العُمُـــرُ المـــاضـــيْ فَفَرَّقَـــهُ
فَضِـــدَّ مَـــنْ، أَيُّهَـــا الآتـــيْ! تُوَحِّـــدُهُ؟

قَـــدْ حَاوَلَتْ جَمْـــعَهُ الدُّنْيَـــا فَمَـــا قَـــدِرَتْ
وَكَيْـــفَ يُجْمَـــعُ إِسْـــمٌ، مَـــاتَ مُفْـــرَدُهُ؟!

لكَنَّـــهُ مَا انْتَهَـــى! لَـــوْ جَـــفَّ فِيْـــهِ دَمٌ
أَتَـــى ابْنِسِـــيَـــابُ دَمٍ ثَـــانٍ يُجَـــدِّدُهُ

وَظَـــلَّ مِثْـــلَ جِبَـــالِ العِشْـــقِ مُنْتَصِبـــاً
وَلا يَـــقِـــلُّ، وَكُـــلُّ الرِّيْـــحِ تَـــبْـــرُدُهُ

أَحْصَتْـــهُ مُقْلَتُـــهُ الأُولـــى فَصَادَفَـــهَـــا
مَـــنْ ذَا لِمُقْلَتِـــهِ الأُخـــرى يُـــعَـــدِّدُهُ؟!

هُـــوَ الإِشَـــاراتُ والأَقْـــوالُ أَجْمَعُـــهَـــا،
فَكُـــلُّ مَنْ لَـــمْ يَقُـــلْ! أَوْ قَـــالَ، يَقْصُـــدُهُ!

وَتَطْمَـــئِنُّ كَحَقْـــلِ النُّـــورِ مُهْجَـــتُـــهُ
تَبْـــكِي عَلَيْـــهِ الليـــالِي حِـــيْنَ تَحْصِـــدُهُ

مقاصد الإيسيسكو

ومدى انطباقها على التجربة الثقافية اللبنانية

السفير
علي ضاهر

سفير لبنان
لدى المغرب

منذ تأسيسها في العام 1982، وضعت منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) لنفسها حزمة أهداف نبيلة لخدمة الإنسان في العالم الإسلامي بشكل خاص وخدمة الإنسانية بشكل عام وذلك عبر برامج وخطط تنفيذية ورؤى استشرافية وأنشطة متنوعة في غير حقل ومضمار. ويهمنا في دراستنا لهذه الأهداف ما له علاقة بحماية اللغة العربية وتطويرها والتشجيع على النشر والترجمات والحوار بين الثقافات وحماية التراث الإسلامي بشقيه المادي والروحي ونشر قيم التسامح واحترام الاختلاف والانفتاح على العصر.

ولا شك بأن مجلوبات العولمة والتطور التقني الهائل وتطور وسائل التواصل والرقمنة وتنامي ظاهرة الذكاء الصناعي، ستدفع بالضرورة بمنظمة الإيسيسكو العريقة إلى توسيع حزمة أهدافها، لتواكب وتواجه التحديات الجديدة، كونها ستطبع مستقبل الإنسانية إلى آمادٍ بعيدة.

وإنّا على ثقة، بأنّ الإدارة الرشيدة للمنظمة الممثلة بشخص المدير العام ومعاونيه، لا تفوتهم المقاربات الرصينة للتصدي ومعالجة تلك التحديات، انطلاقا مما عرفناه عنهم بالاحتكاك المباشر من التزام وجدية في العمل ومراكمة الإنجازات، لكأنّ مقولة رائد الإصلاح التربوي الإمام محمد عبده (ما أكثر القول وما أقل العمل) تنطبقُ على كل أحد أو جهة، سوى الإيسيسكو، لأن العملَ عندها هو الكثير الكثير والكلامَ هو القليل القليل.

خليل مطران

رياض معلوف

سعيد عقل

مارون عبود

إبراهيم اليازجي

شارل مالك

أمّا بالنسبة للعنوان فلم أشأ اسقاطه تعسفياً على علاقة غير موجودة بين حدَّيهِ، عنيتُ حدَّ مقاصد الإيسيسكو وحدَّ تجربة لبنان الثقافية، بل لقناعة أن تجربة لبنان الثقافية تجد صداها في الأهداف الرئيسة للمنظمة.

سأسوق فيما يلي بعض المجالات الكبرى التي تظهر هذا الترابط والانطباق بين التجربة اللبنانية والإيسيسكو:

من أهداف الإيسيسكو احترام الاختلاف والدعوة إلى الانفتاح على الآخر. وهو ما يتجلى بوضوح في شعر وأدب عدد من الشعراء والأدباء اللبنانيين المسيحيين

أولاً: مدائح الشعراء اللبنانيين المسيحيين للرسول الأكرم والإسلام

من أهداف الإيسيسكو المعلنة احترام الاختلاف وحرية الاعتقاد الديني والدعوة إلى الانفتاح على الآخر. هذا الهدف يتجلى بوضوح في شعر وأدب مجموعة كبيرة من الشعراء والأدباء اللبنانيين المسيحيين الذين عبَّروا عن إعجابهم بالإسلام وتقديرهم للرسول الأكرم محمد.

نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: حليم دموس، خليل مطران، رشيد سليم الخوري الملقب بالشاعر القروي، إلياس فرحات، محبوب الخوري شرتوني، رياض معلوف، مارون عبود، أمين نخلة الذي كان يرى في الثقافة الإسلامية ثقافته، وشاعر الأرز، شبلي ملاط المعروف بإشادته بالإسلام ورسوله، وسعيد عقل الذي مدح مكة وأهلها في غنائية فيروز، (غنَّيتُ مكة)، وكثيرون آخرون...

سنعرض بعضاً من أبيات قصائد هؤلاء الشعراء للدلالة على حبهم للإسلام.

فالشاعر رشيد الخوري، الملقب (بالشاعر القروي) يمدح الرسول في قصيدته المعروفة «عيد البرية»:

عِيدُ البَرِيَّةِ عِيدُ المَوْلِدِ النَّبَوِي ... في المَشْرِقَيْنِ لَهُ وَالمَغْرِبَيْنِ دَوِيّ
عِيدُ النَّبِيِّ ابنِ عَبْدِ اللهِ مَنْ طلعَتْ ... شَمْسُ الهِدَايَةِ مِنْ قُرْآنِهِ العلوَيّ
يَا قَوْمُ هَذَا مَسِيحِيٌّ يُذَكِّرُكُمْ ... لا يُنْهِضُ الشَّرْقَ إلاّ حُبُّنَا الأخَوِيّ

كذلك لم ينسَ القروي الإشادة بعدالة الفاروق عمر، رضي اللّهُ عنه بقوله في أحد أبياته

خفضتَ رأسكَ لا ذلاً ولا خجلاً ... بلْ اتضاعِ وريقٍ مُثقلٍ بثمَرْ
ولمْ يُطأطأْ لغيرِ اللهِ هامتَهُ ... إلا ليُطعمِ صبيانَ العجوزِ عمر

ويتصدر خليل مطران (شاعر القطرين)، قائمة الشعراء الذين اشادوا بالرسول وصفاته وتحمله العناء لنشر الدين يقول:

عانى محمد ما عانى بهجرته ... لمأربٍ في سبيل الله محمودِ
وكم غزاة وكم حرب تجشمها ... حتى يعود بتمكين وتأييدِ

وفي قصيدة أخرى يقول:

أعاد ذاك الفتى الأمِيُّ أمتهُ ... شملاً جميعاً من الغر الأماجيد
صعبانِ راضهما: توحيدُ معشرهم ... وأخذهم بعد إشراكٍ بتوحيد
وزاد في الأرض تمهيداً لدعوته ... بعهدةٍ للمسيحيينَ والهود

كان للأدباء واللغويين والموسوعيين اللبنانيين الدور البارز في حماية وتطوير اللغة العربية وهو ما يتفق مع أحد أهم مقاصد الإيسيسكو إذ أنشأت مركزاً رائداً ومرجعياً لهذا الغرض

وبالطبع لا ننسى إلياس فرحات (1893-1976) الذي يمدح الرسول غير كاتمٍ شكواه له من واقع الأمة:

غمـــرَ الأرضَ بأنـــوار النبـوة كوكبٌ لم تـدركْ الشمسُ عُلُّـوهْ
بينمـــا الكـــونُ ظـــلامٌ دامـــسٌ فتحـــتَ فـــي مكَّـــةَ للنـورِ كُوَّة

والشاعر اللبناني حليم دموس (1888-1957) الذي يصف محمداً بجميل الصفات:

أمحمـدٌ والمجدُ بعضُ صفاتـه مجَّدْتَ فـــي تعليمـــكَ الأديانـــا
إنّـي مسيحـيٌ أحـبُّ محمـــدا وأراه فـــي فـــلك العـــلا عنوانـا

والأديب والشاعر مارون بلغَ حُبَّهُ للرسول أنْ سمى ابنه محمداً، كما ترك لنا قصيدة مطولة من عيون الشعر في مدح رسول الإسلام محمد:

لـــولا كتابـك مـا رأينـــا معجـــزاً فـــي أمـــةٍ مـرصوصـــة البنيـــان
للـــه دينـــك جنـــةٌ مختومـةٌ مـــن كل فاكهـــةٍ بهـا زوجـــان
ديـــنٌ تدفّـــق حكمـــةً وتـجددا كالبحـر لفظـاً والسمـاء معانـي
ألّفـــت منـــه وحـــدةً كونيـــةً العبـــد والمولـى بهـا نـــدان

وفي قصيدته «عرب الحجاز تحية وسلام» يفصح الشاعر اللبناني محبوب الخوري الشرتوني (1885-1931)، عن حبه للعرب وللنبي:

قالـوا تحـب العُـرْبَ قلتُ أحبهم يقضـــي الجـوارُ علـيّ والأرحـام
ومحمـــدٌ بطـــلُ البريّـــةِ كلهـا هـوَ للأعـارب أجمعيـن إمـــامُ

وهذا الشاعر اللبناني المهجري رياض المعلوف، يرى القرآن الكريم معجزة خالدة ويشيد بالنبي الأكرم:

وحِّـــدِ اللّهَ فالـــمؤذِّنُ وحَّـــدْ وبذكر النبي في العيد أنشدْ
إيـــه قرآنـــك الكريـــم كتـــابٌ رائـع كلـه ومـنْ درٍّ مُنَضَّـدْ
وكفـى العـربُ فخرهم بانتسابٍ لنبـيٍّ هـوَ النبـيُّ محمـد

والشاعر اللبناني، شبلي ملاط، ألقى قصيدة رائعة بمناسبة مبايعة أحمد شوقي بإمارة الشعر، تحدث فيها عن فضل الرسول الكريم على العرب، وعلى العالم، ومما قاله:

من للزمان بمثل فضلِ محمـدٍ وعـدالـــةِ كعدالـــة الخطـابِ؟
رفع الرسولُ عمـاد أمة يعـــربٍ وأمـدَّهـا بـــالآل والأصحـــاب

بالمقابـل، وانطلاقـاً مـن التفاعـل المسيحي الإسلامـي فـي لبنـان المرتكز على مبدأ الحوار واحترام العقائد والقيم الدينية للآخرين، نرى الكثير من الشعراء والأدباء المسلمين اللبنانيين يشيدون في نتاجهم الأدبي بالسيد المسيح وبدوره الإنساني وبمفهوم المحبة المسيحي والفداء والرجاء وبالصفح والغفران ...

من هؤلاء عمر أبو ريشة، وهو شاعر سوري المولد، إلاّ أن هويته الثقافية ارتبطت بلبنان، وخليل حاوي، وعصام العبد الله.

ثانيا: اللغة والأدب، القواميس والمعاجم والطباعة

من أولويات منظمة الإيسيسكو حماية اللغة العربية وتطويرها، وذلك لعلاقتها المباشرة بالتربية والتعليم وارتباطها بحفظ التراث وهوية الأمة والتفقه بالدين وباعتبارها الرابطة الجامعة لدولنا العربية ولمؤسسات العمل العربي المشترك. ونشر اللغة يحتاج إلى الطباعة التي عبرها تكون الصحافة والترجماتَ والمكتبات والكتاب والمعاجم والقواميس والنتاج الفكري والأدبي والعلمي على اختلاف تنوعاته.

في هذا المضمار ومنوّعاته، كان للأدباء واللغويين والموسوعيين اللبنانيين الدور البارز والإسهام الكبير في حماية اللغة العربية وتطويرها ووفروا لحمايتها وتطويرها كل الوسائل التنفيذية.

وقد تجلى هذا الدور بوضوح في النتاج الأدبي اللبناني منذ القرن التاسع عشر، مع الأدب المهجري، على خلفية رفض حركة التتريك في تلك المرحلة، ولاحقاً مع بدايات القرن الحالي، بعد أن تنامت حملات اتهامها بالعجز عن مواكبة روح العصر في مجال العلوم والتقانة...

ومن أدباء وشعراء المهجر الذين ساهموا في النهضة الحديثة ونشر اللغة العربية:

- جبران خليل جبران (1883-1931) صاحب كتاب (النبي)، وهو من مؤسسي (الرابطة القلمية) وصاحب قصيدة (أعطني الناي وغنّ)؛
- وميخائيل نعيمة (1889-1988) الذي ترك لنا أهم الكتب في الأدب ومنها: الغربال، وهو صاحب قصيدة (النهر المتجمد) المشهورة؛

• وإيليا أبو ماضي (1889-1957) صاحب الروائع الجميلة من القصائد، حيث جمع بين الغنائية العميقة، والتأمل الفلسفي، وهو المعروف بلقب شاعر التفاؤل من آثاره: الجداول، الخمائل...

• وكذلك أمين الريحاني (1876-1940): فقد ساهم في تطوير أدب الرحلات والرواية الفكرية.

ونجد في الصُّفوف الأولى من الإبداع اللغوي بِشارة الخُوري الملقَّب (بالأخطل الصَّغير).

أما الموسوعيون واللغويون اللبنانيون فقد ساهموا مساهمات جليلة في خدمة العربية من خلال تأليف المعاجم وكتابة قواميس حديثة وإنجاز ترجمات لمظان الفكر الغربي والعربي وإصدار جرائد ومجلات باللغة العربية. وأسسوا المدارس التي ركزت على تعليم اللغة العربية وآدابها.

وقد قال فيهم اللغوي اللبناني المرموق الشيخ عبد الله العلايلي بأنهم «العُمُد الجدد للغة العربية»، بهم تزهو ويزهون بها. من هؤلاء:

أحمد فارس الشدياق (1804 – 1887) رائد النهضة المعجمية العربية المعاصرة، حيث كتب معجما عربيا حديثا، تجاوز فيه المعجم العربي القديم، المتمثل بـ«القاموس المحيط» للفيروز أبادي، أسماه: «الجاسوس على القاموس»،

جبران خليل جبران

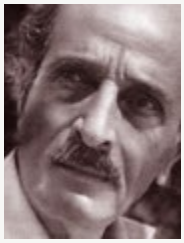

ميخائيل نعيمة

ايليا ابو ماضي

الشيخ عبد الله العلايلي

أحمد فارس الشدياق

بِشارة الخُوري

> **يعتبر لبنان نموذجاً فريداً للتنوع والتعدد الثقافي والديني في الشرق الأوسط، حيث تشكل قيمتا الاعتدال والتسامح ركيزتيْن أساسيتين للعيش المشترك بين مختلف طوائفه وأبنائه**

والمعلم بطرس البستاني (1819-1883) الذي كان أول من وضع معجماً عربياً عصرياً مطولاً (محيط المحيط)، وأول من أطلق دائرة معارف عربية، لدرجة أنه، في المنهج العلمي الذي اتبعه، بوسعنا القول إن مجلوبات معجمه اللغوية والحضارية والمعرفية عربيا وإسلاميا تضارع مجلوبات دائرة المعارف الإنكليزية في العالم الغربي.

واليازجيان هما علمان لبنانيان عربيان مسيحيان اشتغلا باللغة والتجديد اللغوي، ناصيف اليازجي (1800 – 1871) وابنه إبراهيم (1847 – 1906). وكانت حماسة الأب مشهودة للعربية، وقام بترجمة الإنجيل والعهد القديم إلى العربية، وقد لُقِّبَ «المسيحي الذي كان يحفظ القرآن الكريم». من مؤلفاته «فصل الخطاب» و«مجمع البحرين».

أما إبراهيم اليازجي، فسلكَ نهج والده في الارتقاء باللغة العربية، وتمجيد الشعور القومي في صدور الشباب العربي. وقد كان مبرزا في الترجمة، ومن أهم مؤلفاته اللغوية معجم: «نجعة الرائد».

وهناك أيضاً أفرام البستاني (1906-1994) صاحب سلسلة «الروائع» الأدبية، وبطرس البستاني (1819-1883) صاحب أول معجم عربي حديث موسوعي، وكذلك الأب أنستاس الكرملي (1866-1947): والده لبناني وهو لغوي كبير، أصدر مجلة «لغة العرب»، وله مؤلفات قيمة في المعاجم وتاريخ اللغة، مثل «أغلاط اللغويين» والأب لويس معلوف (1867-1946) مؤلف «المنجد» المشهور، الذي وفر خدمة جليلة للطلاب والباحثين.

أما الأب أنطون الصالحاني (1847 - 1941): هو سرياني يسوعي، وعلى قلة شهرته قياساً لمعاصريه وسابقيه، لهُ كتاب اسمه «رنّات المَثالث والمَثاني في روايات الأغاني» المطبوع سنة 1888 تلقفه الدارسون والمختصون باهتمام كبير.

وما دفعنا إلى الحديث عن هذا الكاهن الجليل، وهو بالمناسبة دمشقي، ما أورده الكاتب والسياسي المغربي حسن أوريد في مقالة نشرها في مجلة الفراش بتاريخ 2024/6/13 بأنه كان من بين المتعلّمين الذين درسوا هذا الكتاب (....شابٌّ سيَكون له شأنٌ، وأيُّ شأنٍ. هو الفتى مولاي الحسن، ....دَرَسه الملكُ الحسن الثاني في شبابه وسَعَى لطباعته ونشره بعد تولّيه مُلْكَ المغرب، لكنّه لم يعثر عليه، واستدل عليه الكاتبُ لاحقاً).

وبغض النظر عن صحة هذه القصة من عدمها، فإنها تظهر شغف جلالة الملك الراحل بالقراءة والبحث عن المراجع التي شكلت ثقافته، والأهم تقديره لإسهامات الآباء المسيحيين ودورهم في نهضة اللغة العربية.

ولا شك من أن هناك لغويين ومعجميين آخرين مرموقين، لا يسمح المجال بمزيد توسع في نتاجهم اللغوي والمعجمي.

كما كان للمطابع التي أسسها المسيحيون في لبنان الدور الرائد في نشر اللغة العربية، ثم استمرّ هذا الدور في الحاضر من خلال دور النشر الكثيرة.

ويذهب بعض مؤرخي الطباعة إلى أن أول نصٍّ طُبِع بالعربية كان «كتاب المزامير» الذي تمت طباعته عام 1610 في دير القدّيس أنطون قزحيا في لبنان.

وتُعد مطبعة دير قزحيا من أوائل المطابع في الشرق التي أسسها الرهبان الموارنة، ونشرت لاحقاً كتباً لغوية وأدبية، وأسهمت المطابع في نقل الثقافة من المخطوط إلى المطبوع، الأمر الذي سهّل انتشار اللغة العربية.

كما تم تأسيس مطبعة مار يوحنّا الصايغ عام 1732 ثُمَّ مطبعة القدّيس جاورجيوس في بيروت عام 1753.

وفي عام 1874 ظهرَت في بيروت المَطبعة الأمريكية ثُمَّ المَطبعة الكاثوليكيَّة. وبعد ذلك أنشِئت مَطبعة المَعارف سنة 1867 للمُعلِّم بُطرس البُستاني وخليل سركيس. وأنشأ هذا الأخير بعد ذلك المَطبعة الأدبيَّة عام 1874.

ومن المعروف أن المَطابِع انتشرت في العالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، وظلت للمَسيحيّين الريادة فيها، إذ وفروا عبرها الأداة اللازِمة لنَشر الفِكر النهضوي، ولازدِهار الصحافة، وللتجديد في اللُّغة العربية.

وإلى اليوم تحتفظ بيروت بتسمية (مطبعة العرب) وما زال دورها رياديا في النشر وهذا القطاع ينمو باضطراد.

أما دَور اللبنانيين المسيحيين في إنشاء وتطوير قطاع الصحافة والإعلام فهو مَعروف، حيث أسهموا مع المُسلمين في تطوير اللغة العربية بما يتلاءم مع مقتضيات الأخبار والمقالات التي نشرُوها في صُحُفهم.

ومن أقدَم دُور الصُّحف التي كان وراءها لبنانيون مسيحيون: «الأهرام» و«دار الهلال»، وصحيفة «المحروسة» عام 1880 والمُقطَّم سنة 1889 و«الزهور» ومجلَّة «الجِنان» 1870، و«الجنينة» عام 1871.

وفي سياق متصل، ألَّفَ إبراهيم اليازجي كتابًا بعنوان «لُغة الجرائد»، حمل فيه بعُنفٍ على لُغة الصحافة، انطلاقاً من حرصه على ضرورة استخدام اللغة العربية في الصحافة بشكلٍ راقٍ وسليم.

أما في الترجمة، فقد كان المسيحيون ومنذ عصر النهضة، سبَّاقين إلى ترجمة عيون الأدب الفرنسي والإنجليزي خاصَّةً إلى العربية، وكان أشهر هؤلاء سليم البُستاني ونَجيب طراد ونيقولا رزق الله وطانوس عبده.

ثالثا: إسهامات اللبنانيين في موضوع حقوق الإنسان والإنسانية

إن الهدف الأسمى من هذا الوجود هو الإنسان لأن علة خلق العالم لا تستقيم بدون وجوده، وقد سخر الله له الموجودات ليفيد منها ويعمر الأرض بالعدل ويستخدم الموارد بحكمة انطلاقا من كونه أميناً ومكلفاً. ومن الطبيعي أن يكون موضوع الإنسان والحقوق الإنسانية هو جوهر العقائد والفلسفات وفي صلب برامج وأهداف الحكومات والأحزاب والمؤسسات والمنظمات والهيئات الدولية، ومنها منظمة الإيسيسكو.

في هذا الجانب للبنان تجربة مضيئة تجلت من خلال إسهام المفكر والفيلسوف ووزير خارجية لبنان الأسبق الدكتور شارل مالك في صياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام 1948.

لقد كان شارل مالك أحد الأعضاء السبعة الرئيسيين في لجنة الصياغة، وقد ساهمت صياغته في تضمين المبادئ الأساسية للإعلان.

وقد تم اختياره لهذه المهمة، حيث كان حينها رئيسا للمجلس الاقتصادي والاجتماعي ومن قبل سفيرا للبنان في الأمم المتحدة، بعد أن رأت فيه المندوبة الأميركية السيدة اليانور روزفلت بأن ثقافته الواسعة تجعله أهلاً للمسؤولية وجديرا في التشريع في موضوع حقوقي عالمي الاهتمام وبمنتهى الحساسية. وقيل أنه كان صوت العرب في الاجتماعات.

رابعًا: قيم الإيسيسكو في احترام التنوع والحوار الديني وانطباق ذلك على التجربة اللبنانية

يعتبر لبنان نموذجاً فريداً للتنوع والتعدد الثقافي والديني في الشرق الأوسط، حيث تشكل قيمتا الاعتدال والتسامح ركيزتيْن أساسيتين للعيش المشترك بين مختلف طوائفه وأبنائه. وقد رسخ الدستور المساواة وحرية المعتقد، كما عززت التقاليد الاجتماعية قبول الآخر بغض النظر عن عقيدته وإيمانه وفلسفته، الأمر الذي أرسى حالة من التوازن والوئام بين مكوناته، رغم ما شهده البلد من تحديات سياسية وأزمات تم تجاوزها غالباً عبر الحوار وثقافة التواصل.

ومن مظاهر قيم الاعتدال والتسامح والحوار في لبنان:

- العيش المشترك في ظل عالم يتفاقم فيه خطاب الكراهية والاعتدال والتسامح؛
- مشتركات ومستويات التفاعل والتقارب من خلال التعليم والعمل والزواج المختلط وإقامة المناسبات الدينية المشتركة والتبرك بزيارة أولياء وصالحين والمواساة في الأتراح والتهاني في الافراح واحتفاء المسلمين بشجرة الميلاد وتسمية المسيحيين والمسلمين بأسماء دينية وصالحين من الديانتين؛
- إصدار الحكومة اللبنانية في العام 2010 قراراً اعتبرت فيه 25 آذار من كل عام عطلة رسمية وإسلامية-مسيحية جامعة في لبنان، تُقفل فيه الإدارات العامة والمؤسسات والبلديات. هذا اليوم تم تسميته عيد البشارة، ينظم فيه المسلمون والمسيحيون لقاءات واحتفالات مشتركة، خاصة في المزارات المريمية. وسبب التسمية إحياء ذكرى بشرى الملاك جبرائيل للسيدة مريم العذراء بحملها بيسوع المسيح.
- دور المغتربين والمنتشرين في تعزيز قيم الحوار والاعتدال والانفتاح، حيث بنوا جسور التواصل وساهموا في نهضة الدول المضيفة ولكنهم حافظوا على إيمانهم وهويتهم الثقافية. فكانوا بذلك يؤسسون لتعاون دولي بين الشعوب يسبق في أكثر الأحيان حكوماتهم.
- حث اللبناني أفراد عائلته على متابعة التحصيل العلمي لنيل أعلى الشهادات، بغض النظر عما إذا كان غنياً أم فقيراً، لأن المستوى العلمي هو صورة من صور الامتياز المجتمعي للعائلة.

حتى أن بعض الأهل يبيع أرضه أو يراكم الديون وتقوم الأم ببيع مصاغها، لتوفير العلم للأبناء، مع علمهم أن هذه الشهادات مآلها في آخر المطاف التثبيت على الجدار لتستغرق في استراحة أبدية، وذلك لانعدام فرص العمل.

وما من شك بأن هذه التجربة اللبنانية انطلاقاً من الخصائص التي تميزت بها تتناغم وتتلاقى مع أهداف منظمة الإيسيسكو، خصوصاً في مقارباتها المجتمعات التعددية.

خلاصة عامة :

لم يكن مبتغانا من وراء عرض إسهامات المفكرين والشعراء والأدباء والموسوعيين اللبنانيين، لا سيما المسيحيين، في حماية اللغة العربية وتطويرها وكتابة المعاجم والقواميس والقيام بالترجمات والسبق في الطباعة والنشر والإشادة بنبي الإسلام وبدينه وعرض نماذج مضيئة من حياتهم المشتركة، من باب الإنتشاء بالذات الوطنية أو تمجيداً لحقبة تاريخية من ماضينا الغابر أو القول بأنَّ منظومة قيم اللبنانيين مثالية لا تطالها المآخذ ولا تستدعي المراجعة والتطوير، بل كان مبتغانا من هذا البحث تحقيق مجموعة أهداف مترابطة فيما بينها نوجزها بالآتي :

> **موضوع الحقوق الإنسانية هو جوهر العقائد والفلسفات وفي صلب برامج وأهداف الحكومات والأحزاب والمؤسسات والمنظمات الدولية، ومنها الإيسيسكو، وللبنان تجربة مضيئة في هذا الجانب**

1. إظهار مدى الترابط الوثيق بين الأهداف الرئيسة لمنظمة الإيسيسكو وبين ما تركه اللبنانيون الأوائل لنا في الميادين التي أشرنا إليها، وأن أهدافها تجد جذوراً لها وصدى لدى هؤلاء قبل تأسيسها؛
2. إثبات أن المسيحيين المشرقيين هم أبناء هذه الحضارة وهم من عشاق اللغة العربية ومن المبرزين فيها، وأنهم، كالمسلمين عارفون بأصولها وبأسرارها وآدابها. فنظرية قدسية اللغة واصطباغها بصبغة دينية لا يجوز مطلقاً استخدامها كذريعة لحجب اهتمامنا وإفادتنا من إنجازات المبرَّزين الأعلام من غير دين، أو اعتبار أن اللغة والشعر هما نتاج إسلامي صرف؛
3. العرفان بصنيعهم المميز وبرقةِ هذا الصنيع وتعريف الجيل الجديد بهم، كي لا يحجبهم النسيان، في ظل عالم تتراكم فيه المعارف بسرعة هائلة ويختلطُ فيه الغث والسمين؛
4. استلهام سِيَرهُمْ وإبداعهم لتنقية مناخات التواصل الحضاري والتفاعل الثقافي وتعزيز الحوار الديني المسيحي-الإسلامي ومد الجسور وهدم جدران الفرقة؛
5. الإفادة من تراث هؤلاء الأدبي والشعري لتضمينه في برامجنا التربوية ونشر قيمه الأخلاقية والجمالية والبيانية في بلداننا والعالم، لا سيما بعد أن أصبحتْ الألينة والسلعنة والشيأنة للإنسان والقرصنة لإبداعه، هي سمةُ العصر.

نظرية المعرفة والتحولات الاجتماعية والبيئية في العالم العربي

«المعرفة ليست عملية تحدث داخل ذاتٍ معزولة، بل هي نمط من أنماط الوجود في العالم»

مارتن هايدغر

د. شادن دياب

خبيرة دولية في علم المناخ والبيئة

فرنسا

يقدّم مارتن هايدغر نقدًا عميقًا للتصور الديكارتي التقليدي للمعرفة، بوصفها عملية ذهنية محضة تتم داخل عقل الذات بمعزل عن العالم الخارجي. في مقابل هذا التصور، يرى هايدغر أن المعرفة لا تنفصل عن التجربة الإنسانية المعيشة، بل تنشأ من انخراط الإنسان المباشر في العالم ووجوده داخله. وبذلك تصبح المعرفة مرتبطة بالوجود اليومي والتفاعل العملي مع الواقع، وليس مجرد بناء منطقي أو تمثيل عقلي مجرد (Hubert Dreyfus, Heidegger and the Problem of Knowledge, 1991).

كما يؤكد ابن خلدون في كلامه عن المعرفة والتعلّم والتعليم أن المعرفة ليست معطى طبيعيًا فطريًا عند الإنسان، بل هي مكتسبة تُبنى عبر التعلم والممارسة الاجتماعية والتجربة. فالعلم عنده عملية ديناميكية وتفاعلية مرتبطة بالسياق الاجتماعي والتاريخي، وليس مجرد نقل سلبي للمعلومات أو حفظ لها (Haddab, Mustapha, 2010).

من هذا المنظور، تصبح العملية المعرفية عملية تفاعل بين العقل والواقع الاجتماعي، حيث تُكتسب القواعد الفكرية عبر الممارسة والخبرة وليس فقط عبر الاستنتاج النظري. وهذا يعني أن العقلانية نفسها ليست معطى جاهزًا، بل نتيجة تطور اجتماعي وتاريخي. وفي ظل هذه التحولات المتسارعة والتحديات العالمية المتشابكة، تصبح المعرفة ديناميكية ومتجددة تتأسس داخل سياقها التاريخي.

ولكن كيف يمكن لمنظومة المعرفة أن تتكيف مع هذه التحديات البيئية والتكنولوجية التي يواجهها الإنسان المعاصر؟

الأزمة البيئية أزمةٌ أبستمولوجيا

تواجه البشرية في العصر الحديث ظاهرة التغير المناخي، التي تُعدّ من أخطر التحولات البيئية، إذ توصَف أحيانًا بأنها «أكبر تحدٍّ في تاريخ الإنسانية» (Grousson, 2023). وتتجلى خطورتها في تزايد الكوارث والظواهر المناخية المتطرفة التي يشهدها العالم، مثل موجات الحرّ والجفاف والفيضانات والحرائق واسعة النطاق، وما تخلّفه من آثار متزايدة على النظم البيئية والاقتصادات والمجتمعات حيث تشير تقارير الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ (IPCC) إلى أن مستقبل الاحترار العالمي يعتمد بشكل مباشر على مسارات الانبعاثات والسياسات المناخية المعتمدة، إذ يُتوقع أن تتراوح زيادة متوسط درجات الحرارة العالمية بحلول عام 2100 بين نحو 2 و5 درجات مئوية أو أكثر في السيناريوهات الأكثر تشاؤمًا، مع احتمال تجاوز ذلك في بعض التقديرات القصوى، (IPCC, 2023 UNEP, 2023) ويترتب على هذه التحولات المناخية آثار عميقة لا تقتصر على الجانب البيئي فقط، بل تمتد إلى الاقتصاد والأمن الغذائي والصحي والاستقرار الاجتماعي والسياسي. ومن ثمّ، تسعى العديد من الدراسات المعاصرة إلى التفكير في التحولات البنيوية الضرورية لتغيير المسار التاريخي للمجتمعات وتعزيز قدرتها على التكيّف مع هذه التحديات المتصاعدة، من خلال تطوير سياسات أكثر استدامة وعدالة بيئية.

تواجه البشرية في العصر الحديث ظاهرة التغير المناخي، التي تُعدّ من أخطر التحولات البيئية، إذ يُوصَف أحيانًا بأنها «أكبر تحدٍّ في تاريخ الإنسانية»

وتُشكّل الأزمة البيئية في عصرنا الراهن علامة على دخول البشرية مرحلة تاريخية جديدة، حيث يمثل هذا المنعطف الحضاري، قبل كل شيء، أزمة في عقلانية الحداثة، كما يحيل في جوهره إلى إشكالية معرفية. فالتدهور البيئي، أو ما يمكن وصفه بـ«الموت الإنتروبي للكوكب»، هو نتيجة لأنماط المعرفة التي شيدت البشرية من خلالها العالم، ثم ساهمت في تدميره عبر ادعائها الكونية والعمومية والشمولية، ومن خلال نزعتها إلى موضوعنة العالم وتحويله إلى «شيء» قابل للاختزال والسيطرة.

من هذا المنظور، تصبح المقاربة المعرفية البيئية مطالَبة بإعادة التفكير في أسسها، بحيث تكون معرفة مرنة وقابلة للتكيّف مع تعقيد الواقع البيئي وعدم اليقين الذي يميّزه. كما أن التربية البيئية مطالَبة بدورها بالتكيّف مع هذه التحولات، من خلال تطوير أساليب تعليمية جديدة تساعد على فهم القضايا البيئية المعاصرة والتعامل معها بوعي وفعالية أكبر. ولكن كيف؟

المقاربة المعرفية لعلوم البيئة

إن ظهور اللغة والنظام الرمزي يمثّل تحوّلًا نوعيًا داخل المسار التطوري للإنسان؛ إذ لم يعد الإنسان مجرد كائن طبيعي يخضع بشكل مباشر لقوانين البيئة، بل أصبح كائنًا منتِجًا للمعنى والمعرفة والرموز، وقادرًا من خلالها على إعادة تنظيم العالم والتدخل في مساراته. ومن هذا المنظور، فإن الأزمة البيئية المعاصرة لا تُفهم فقط بوصفها نتيجة للاستغلال المادي للطبيعة، بل أيضًا باعتبارها انعكاسًا للأطر المعرفية والثقافية التي شكّلت علاقة الإنسان بالعالم وبالبيئة المحيطة به (Leff, 2006). يتأثر مفهوم المعرفة نفسه بالتحولات المناخية والبيئية الجارية، إذ تكشف هذه الأزمات حدود النماذج التقليدية للفهم والتنمية، وتفرض الحاجة إلى مقاربات متعددة التخصصات تجمع بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية. كما أن تزايد المخاطر البيئية والظواهر المناخية المتطرفة يطرح تحديًا معرفيًا يتمثل في كيفية إنتاج معرفة قادرة على التنبؤ والتكيّف واتخاذ القرار في ظل حالة متزايدة من عدم اليقين (IPCC, 2023).

في الواقع، تطرح التغيرات المناخية تحديات مزدوجة؛ فهي من جهة تُوجّه اهتمام العلوم المعرفية إلى تحديد العوائق الإدراكية التي تحول دون فهم الظاهرة البيئية والتحول نحو الفعل، ومن جهة أخرى تُلزم التربية البيئية بالبحث عن آليات تمكّن الأفراد والمجتمعات من تجاوز هذه العوائق. ويمكن النظر إلى التربية البيئية والتوعية بالقضايا البيئية بوصفها فضاءً لتكوين هوية بيئية جديدة، وتنمية قيم ومواقف وسلوكيات معارف الكينونة أو «السلوك القيمي» (savoir-être) ضمن ثقافة للالتزام الإيكولوجي والاجتماعي، تقوم على التفاعل الديناميكي بين: «الكينونة – المعرفة – الإرادة – القدرة على الفعل» (Sauvé, 2009). كما أن تعلم هذا الالتزام، رغم ارتباطه بحلّ المشكلات البيئية (Hart, 1981)، يتطلب تحليلًا معمّقًا للتحديات التي تفرضها التغيرات المناخية. وإذا كانت التربية البيئية يمكن أن تستفيد من إسهامات العلوم المعرفية كما تشير بعض الدراسات (Talkhabi & Nouri, 2012؛ American Psychological Association, 2015) – فإن ذلك يفتح تساؤلًا نقديًا حول طبيعة هذه الإسهامات وحدودها، ومدى كفائتها في تفسير السلوك البيئي المعاصر.

على سبيل المثال، يمكن اعتبار العلوم الإنسانية كالأدب البيئي نوعاً من تلك المقاربات المعرفية بين العلم والأدب وأحد الأدوات المهمة للتحسيس والتوعية بالقضايا البيئية، إذ يتجاوز وظيفته الجمالية أو السردية ليصبح فضاءً للتفكير النقدي وإعادة تمثيل العلاقة بين الإنسان والطبيعة. كما يساهم في كشف الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للأزمات البيئية، وبناء وعي أخلاقي وبيئي لدى القارئ عبر ربط التجربة الفردية بالتحولات البيئية العالمية. وبهذا المعنى، يصبح الأدب وسيلة لإنتاج الوعي، وأداة للمشاركة في النقاشات المجتمعية حول الاستدامة ومستقبل الكوكب (van Herten & Perez2022)

الذكاء الاصطناعي: ثورة في الصناعة المعرفية

يثير التطور السريع للذكاء الاصطناعي والثورة الصناعية الرابعة تساؤلات جديدة حول طبيعة التعلم وإنتاج المعرفة. فإذا كانت المعرفة في التصورات الكلاسيكية ترتبط بالعقل البشري والخبرة الإنسانية، فإن الأنظمة الذكية اليوم أصبحت قادرة على تحليل كميات هائلة من البيانات وتقديم استنتاجات وتوقعات معقدة، الأمر الذي يدفع إلى إعادة التفكير في الحدود الفاصلة بين المعلومات والمعرفة، وبين القرار البشري والمعالجة الخوارزمية. ومع ذلك، تبقى المعرفة الإنسانية مرتبطة بالسياق الثقافي والقيمي وبالقدرة النقدية، وهي عناصر لا يمكن اختزالها بالكامل في الأداء التقني.

يتزامن هذا التحول مع الثورة الصناعية الرابعة، التي تقوم على تقارب واسع بين تقنيات متعددة مثل البيانات الضخمة، والذكاء الاصطناعي، وإنترنت الأشياء، والمركبات ذاتية القيادة، والمدن الذكية، وتقنية البلوك تشين، إضافة إلى التطور السريع في مجالات الروبوتات والأتمتة (Boutillier, 2024). وقد أصبحت هذه التقنيات يُنظر إليها كأدوات محتملة لدعم التحول البيئي وتحسين إدارة الموارد الطبيعية.

وفي ظل هذه التغيرات المتسارعة، لم يعد التغير المناخي والثورة التكنولوجية والذكاء الاصطناعي قضايا منفصلة، بل أصبحت عوامل متداخلة تؤثر مباشرة في أنماط إنتاج المعرفة وفهم الإنسان للعالم.تعيد هذه التحديات الجديدة طرح أسئلة أساسية تتعلق بطبيعة المعرفة وحدودها ومصادرها، وهو ما يمنح نظرية المعرفة (الإبستمولوجيا) أهمية متزايدة في القرن الحادي والعشرين. إذ لم تعد المعرفة تُبنى فقط من خلال التجربة العلمية التقليدية أو المؤسسات الأكاديمية، بل أصبحت تتشكل أيضًا عبر التدفقات الرقمية، والخوارزميات، والذكاء الاصطناعي، وشبكات الاتصال العالمية التي تعيد تعريف العلاقة بين الإنسان والمعلومة.

تبرز قضية نظرية المعرفة اليوم في عدة قطاعات أساسية، من بينها وسائل الإعلام، والصناعات، والذكاء الاصطناعي. كما ترتبط بتطوير خوارزميات قادرة على تغيير أنماط إنتاج المعرفة والوصول إليها، مما يؤدي إلى تحول عميق في طبيعة المعرفة نفسها وفي العلاقة بين العلم والتكنولوجيا والمجتمع، مع جعل البيئة (الإيكولوجيا) محورًا أساسيًا في التفكير المعاصر. فالتطور لا ينبثق فقط من القدرة التوليدية للطبيعة (physis)، فهو ليس مجرد انعكاس للطبيعة على ذاتها، بل هو نتيجة تفاعل معقد بين الطبيعة والمعرفة والتقنية، حيث تؤثر المعرفة بدورها في تشكيل الواقع وإعادة إنتاجه.

وفي هذا الإطار، يرى عدد من الباحثين وصناع القرار أن الذكاء الاصطناعي يمكن أن يلعب دورًا محوريًا في تسريع الاستجابة للتغير المناخي، سواء من خلال تحسين كفاءة الطاقة، أو مراقبة النظم البيئية، أو تعزيز إدارة الموارد الطبيعية بشكل أكثر دقة واستدامة (مارتي، 2018؛ المنتدى الاقتصادي العالمي، 2018). كما يشير تقرير النائب الفرنسي سيدريك فيلاني حول "إضفاء معنى على الذكاء الاصطناعي" إلى إمكانيات كبيرة لتوظيف هذه التقنيات في فهم تعقيد النظم البيئية، وحماية التنوع البيولوجي، وتطوير أساليب جديدة لإدارة المناطق الطبيعية المحمية، البرية والبحرية، عبر استخدام الروبوتات الذكية والحلول التقنية المتقدمة (فيلاني، 2018).

شكّلت الأزمة البيئية في عصرنا الراهن علامة على دخول البشرية مرحلة تاريخية جديدة، حيث يمثل هذا المنعطف الحضاري، قبل كل شيء، أزمة في عقلانية الحداثة

العالم العربي، الهشاشة المناخية والتحول الرقمي

وتكتسب هذه التحولات أهمية خاصة في العالم العربي، الذي يواجه تحديات مزدوجة تجمع بين الهشاشة المناخية والتحول الرقمي غير المتكافئ. فالمنطقة العربية تُعد من أكثر مناطق العالم تعرضًا لارتفاع درجات الحرارة، وشحّ المياه، والتصحر، وتهديد الأمن الغذائي، في الوقت الذي لا تزال فيه الفجوات التعليمية

والرقمية والبحثية تحدّ من القدرة على إنتاج المعرفة العلمية محليًا. لذلك، فإن التكيّف مع هذه التحديات لا يقتصر على تطوير البنية التحتية أو تبني التكنولوجيا، بل يتطلب أيضًا إعادة بناء منظومات المعرفة والتعليم والبحث العلمي بما يسمح بإنتاج معرفة عربية قادرة على فهم الواقع المحلي والتفاعل مع التحولات العالمية.

تُعد المنطقة العربية من أكثر مناطق العالم تعرضًا لارتفاع درجات الحرارة، وشحّ المياه، والتصحر، وتهديد الأمن الغذائي

وعلى المستوى الإقليمي، يكتسب هذا النقاش أهمية خاصة في العالم العربي، حيث يواجه هذا الفضاء الجغرافي تحديات مناخية متزايدة تتمثل في ارتفاع درجات الحرارة، وشحّ الموارد المائية، وتزايد التصحر، وتراجع الأمن الغذائي، إضافة إلى هشاشة بعض المناطق الساحلية أمام ارتفاع مستوى البحر. وتُعدّ هذه

التحديات من بين أبرز القضايا الاستراتيجية التي تهدد الاستقرار التنموي والاجتماعي في العديد من الدول العربية.في المقابل، بدأت بعض الدول العربية في إدراك أهمية إدماج التحول الرقمي والتكنولوجي ضمن استراتيجياتها البيئية، من خلال الاستثمار في مشاريع الطاقة المتجددة، وتطوير المدن الذكية، واستخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي في إدارة المياه والطاقة والزراعة. ومع ذلك، لا يزال هذا التحول في مراحله الأولى ويواجه تحديات مرتبطة بالبنية التحتية، ونقل التكنولوجيا، والفجوة المعرفية.

يمكن القول إن التغير المناخي في العالم العربي لم يعد مجرد قضية بيئية، بل أصبح تحديًا مركبًا يجمع بين الأبعاد البيئية، والاقتصادية والتكنولوجية والسياسية. ومن هنا، فإن مستقبل المنطقة يعتمد بشكل كبير على قدرتها على التكيف مع هذه التحولات، واستثمار الثورة الصناعية الرابعة كأداة لتعزيز الاستدامة.

ومن هذا المنطلق، يصبح تطوير المعرفة في العالم العربي مشروعًا استراتيجيًا يتجاوز نقل التكنولوجيا أو استهلاكها، ليشمل بناء ثقافة علمية ونقدية قادرة على دمج المعارف المحلية مع الابتكارات العالمية، وربط قضايا المناخ والاستدامة والذكاء الاصطناعي بالتعليم وصنع السياسات العامة. فالتحدي الحقيقي لا يكمن فقط في مواجهة الأزمات البيئية أو الرقمية، بل في قدرة المجتمعات على تطوير نظم معرفية أكثر مرونة وعدالة واستقلالية تمكنها من التكيف مع مستقبل يتسم بالتعقيد وعدم اليقين. وفي العصر الحديث، أصبح من الضروري ربط هذه النظرية بالتطورات التكنولوجية، خاصة مع ظهور الذكاء الاصطناعي، الذي يطرح أسئلة جديدة حول طبيعة المعرفة: هل يمكن للآلة أن "تفهم" كما يفهم الإنسان؟ أم أنها تكتفي بمعالجة البيانات دون وعي أو إدراك؟ لذلك، فإن دراسة المعرفة اليوم لم تعد مقتصرة على الفلسفة فقط، بل أصبحت تشمل علم النفس، Cognitive neuroscience علم الأعصاب المعرفي، الإعلام، والتكنولوجيا، مما يجعلها مجالًا أساسيًا لفهم التحولات التعليمية في العالم العربي ومستقبل التعلم فيه.

من هذا المنظور، تصبح العملية المعرفية عملية تفاعل بين العقل والواقع الاجتماعي، حيث تُكتسب القواعد الفكرية عبر الممارسة والخبرة وليس فقط عبر الاستنتاج النظري. وهذا

يعني أن العقلانية نفسها ليست معطى جاهزًا، بل نتيجة تطور اجتماعي، مما يجعل المعرفة عند ابن خلدون معرفة ديناميكية تتأسس داخل سياقها التاريخي.

القضايا الأخلاقية والسياسية للذكاء الاصطناعي

يبرز المحور الاخلاقي في كتاب "الذكاء الاصطناعي، الذكاء البشري: اللغز المزدوج" الصادر عام 2023، إذ طرح دانيال أندلر فكرة وجود فجوة بين فهم غير المتخصصين لفلسفة الذكاء الاصطناعي والوضع الراهن للبحوث في هذا المجال. ويرى أندلر أن هذه الفجوة تبرز بشكل خاص عند التطرق إلى القضايا الأخلاقية والمشكلات الأساسية المتعلقة بإمكانية ظهور الذكاء الاصطناعي العام (AGI) أو الذكاء الاصطناعي القوي، وهي مواضيع بالغة الأهمية في فلسفة ما بعد الإنسانية. يتعلق جزء كبير من فلسفة الذكاء الاصطناعي بالقضايا الأخلاقية والسياسية للذكاء الاصطناعي مثل التحيز والإنصاف والثقة والشفافية، ولكنه يظل دائمًا مرتبطًا بالقضايا المعرفية، اعتمادًا على الأدوات التقنية المستخدمة في الذكاء الاصطناعي، وتحديدًا التعلم الآلي الخاضع للإشراف أو غير الخاضع للإشراف، أو الشبكات العصبية العميقة الالتفافية أو الأنظمة الرمزية الكلاسيكية.

هايدغر

سيدريك فيلاني

كيف يُغير الذكاء الاصطناعي العلاقات الإنسانية والديناميات الاجتماعية ونظرية المعرفة، بينما يؤثر في الوقت نفسه على الحقوق الاجتماعية والتفاعلات المادية ووسائل الإعلام ونظم التعليم لا سيما في سياق العالم العربي.

في مقالتها المنشورة عام 2020، تقترح كاثلين كريل تحليلًا للشفافية من خلال ثلاثة أشكال: (1) شفافية الخوارزمية، (2) تطبيق الخوارزمية في الكود، و(3) كيفية تنفيذ الكود على أجهزة وبيانات محددة. بالتركيز على الشفافية في هذه الأشكال الثلاثة، يُمكن تحديد مستوى الشفافية الأمثل لمهمة معينة، وذلك بتوفير شفافية جزئية عند استحالة الشفافية الكاملة، مع تجنب الاستخدام غير المشروع للأنظمة المبهمة.

ابن خلدون

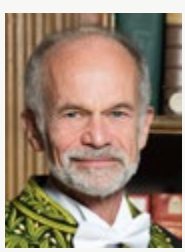

دانيال أندلر

إن الذكاء الاصطناعي ليس مجرد أداة تكنولوجية؛ بل إنه يشارك في إعادة تشكيل المعرفة والعلاقات الاجتماعية والحقوق، مما يتطلب تكييف الأطر النظرية والأخلاقية والمؤسسية، لا سيما في المجتمعات العربية التي تواجه تغيرات سريعة.

يقتضي تطوير الخوارزميات والذكاء الاصطناعي أيضًا مراعاة الخصوصيات الثقافية والحضارية للمجتمعات العربية، بحيث لا تقتصر هذه التقنيات على استنساخ نماذج معرفية وتكنولوجية خارجية، بل تستجيب للسياق الثقافي العربي ولطرائق التفكير والإبداع وإنتاج المعرفة داخله. ومن هذا المنطلق، يمكن أن يسهم تطوير ذكاء اصطناعي منسجم مع الثقافة العربية في تعزيز القدرات الإبداعية وإعادة التفكير في أنماط المعرفة والتعلم والتواصل، بما يدعم بناء وتطوير نظرية المعرفة ويعزز فهم العلاقة بين الإنسان والمعرفة والتكنولوجيا في السياقات العربية المعاصرة.

إن استخدام الذكاء الاصطناعي في وسائل الإعلام العربية يفتح مجموعة من الإشكالات والفرص المرتبطة بتحول الفضاء الإعلامي المعاصر، خاصة فيما يتعلق بالتضليل الإعلامي، ودور الخوارزميات في تشكيل الرأي العام، وإعادة إنتاج المحتوى

الثقافي والصحفي. كما يطرح الذكاء الاصطناعي إشكاليات مهمة تتعلق بتحول الإنتاج الثقافي والإعلامي، حيث لم تعد العملية الصحفية والثقافية تعتمد فقط على الإنسان، بل أصبحت تشارك فيها أنظمة خوارزمية قادرة على إنتاج وتحليل وتوزيع المحتوى.

ومن جهة أخرى، تبرز القضايا اللغوية وإشكالية تمثيل العالم العربي داخل أنظمة الذكاء الاصطناعي، سواء من حيث ضعف تمثيل اللغة العربية في البيانات الرقمية، أو من حيث الصور

يمكن للذكاء الاصطناعي أن يلعب دورًا محوريًا في تسريع الاستجابة للتغير المناخي، سواء من خلال تحسين كفاءة الطاقة، أو مراقبة النظم البيئية، أو تعزيز إدارة الموارد الطبيعية

النمطية التي قد تنتجها هذه الأنظمة حول المجتمعات العربية. وفي السياق نفسه، يرتبط الابتكار الإعلامي بمجموعة من التحديات الاجتماعية والسياسية الإقليمية، حيث يصبح الذكاء الاصطناعي عاملًا مؤثرًا في إعادة تشكيل المجال العام، والتأثير في النقاشات السياسية والاجتماعية داخل المنطقة.

وتفترض هذه المقاربة أن نظرية المعرفة لم تعد محصورة في شكلها التقليدي، بل أصبحت تتخذ شكلًا جديدًا من التفاعل، يقوم على تطور أنظمة خوارزمية قادرة على التكيف مع التحديات المناخية والمعرفية والإعلامية. كما يبرز هنا الدور المتزايد للتربية الإعلامية والبيئية في تمكين الأفراد من فهم آليات إنتاج المعلومات، والتعامل النقدي مع المحتوى الرقمي، بما يعزز الوعي ويحد من مخاطر التضليل، ويدعم بناء معرفة أكثر وعيًا وتعقيدًا في العصر الرقمي.

قائمة المراجع

American Psychological Association. Psychology and Climate Change: Addressing a Major Environmental and Social Challenge. Washington, DC: APA, 2015.

Boutillier, Sophie. "Révolution industrielle, industrie 4.0 et idéologie." Marché et Organisations 51, no. 3 (2024): 13–42.

Dreyfus, Hubert L. Heidegger and the Problem of Knowledge. Cambridge, MA: MIT Press, 1991.

Gallimard. Intelligence artificielle, intelligence humaine: la double énigme. Paris: Gallimard. Consulté le 20 mai 2026. https://www.gallimard.fr/Catalogue/GALLIMARD/NRF-Essais/Intelligence-artificielle-intelligence-humaine-la-double-enigme.

Glotfelty, Cheryll, and Harold Fromm, eds. The Ecocriticism Reader: Landmarks in Literary Ecology. Athens: University of Georgia Press, 1996.

Grousson, Mathieu. "L'origine humaine du réchauffement fait officiellement consensus depuis au moins 15 ans." CNRS Le Journal, 9 mars 2023.

Haddab, Mustapha. Philosophie et savoir socio-historique dans la pensée d'Ibn Khaldoun. 2010.

Hart, Roger. Children's Participation in Environmental Problem Solving. Paris: UNESCO, 1981.

Intergovernmental Panel on Climate Change (IPCC). Climate Change 2023: Synthesis Report. Geneva: IPCC, 2023.

Leff, Enrique. Racionalidad ambiental: La reapropiación social de la naturaleza. Mexico: Siglo XXI, 2006.

Sauvé, Lucie. Éducation relative à l'environnement : enjeux et perspectives. Montréal, 2009.

Talkhabi, M., and J. Nouri. "Studies on Cognitive Sciences and Environmental Education." 2012.

United Nations Environment Programme (UNEP). Emissions Gap Report 2023. Nairobi: UNEP, 2023.

Van Herten, M., and P. Perez. "Ecocritical Analysis of 'Glocal' Essays on Lived Experiences of Climate Change in Higher Education." Frontiers in Sustainability 3 (2022): 980530.

كريل، ك. أ. «الشفافية في الأنظمة الحسابية المعقدة». فلسفة العلوم، 87، العدد 4 (2020): 568–589. http://philsci-archive.pitt.edu/16669/.

Psyche. "Should We Be Concerned That the Decisions of AIs Are Inscrutable?" Consulté le 20 mai 2026. https://psyche.co/ideas/should-we-be-concerned-that-the-decisions-of-ais-are-inscrutable.

إيسيسكو
ICESCO

جمعة الزي الوطني بالإيسيسكو

تُعدُّ مبادرةُ منظمة الإيسيسكو بارتداء موظفيها للأزياء الوطنية كلَّ جمعة فكرةً ثقافيةً رائدةً تجمع بين الاعتزاز بالهوية والانفتاح على التنوع الحضاري. ففي مؤسسةٍكالإيسيسكو تضمُّ موظفين من دول وثقافات متعددة، تتحول الأزياء التقليدية إلى لغةٍ بصريةٍ تُعرِّف بالشعوب وتُبرز ثراء الموروث الإنساني الذي تحمله كل أمة.

وتتجاوز أهمية هذه المبادرة الجانب الشكلي والاحتفالي، إلى معان تتصل بترسيخ قيم الاحترام المتبادل والتعارف بين الثقافات، انسجاماً مع رسالة الإيسيسكو في تعزيز الحوار الحضاري والتقارب بين الشعوب.

كما تسهم هذه المبادرة في إحياء الأزياء التقليدية والمحافظة عليها من الاندثار في ظل العولمة المتسارعة، وتمنح العاملين شعوراً بالفخر والانتماء، وتضفي على بيئة العمل أجواءً من البهجة والتنوع والجمال.

إن فكرة «جمعة الزي الوطني» تمثل نموذجاً عملياً لكيفية تحويل الثقافة من مفهومٍ نظري إلى ممارسةٍ يوميةٍ حية، تؤكد أن التنوع ليس سبباً للاختلاف، بل مصدرٌ للإثراء والتكامل الإنساني.

الخلاوي التقليدية ونشر الإسلام والعربية في.. شرق إفريقيا

الزبير مهداد
باحث وكاتب
المغرب

حين دخل الإسلام أرض السودان، لم يكن يحمل ديناً فحسب، بل كان يحمل معه "النور" والمعرفة؛ فكانت اللغة العربية مفتاحاً لكنوز القرآن، ووسيلة لاستجلاء علوم الدين، وجد القوم في ذلك جدّاً منقطع النظير. وفي ربوع السودان الشرقي، برزت "الخلوة" كمؤسسة تعليمية أهلية، أدت دوراً ثميناً في نشر الإسلام والعربية، لتصبح جذراً من جذور الهوية السودانية التي يصعب اقتلاعها.

تعد "الخلاوي القرآنية" أقدم مؤسسة تعليم عرفتها منطقة شرق إفريقيا، لذلك يمكن عدها مَعْلَماً من معالم التراث الإسلامي في المنطقة. فهي إرث ثقافي عريق، ونمط تعليمي تليد، توارثه المسلمون قرونا عدة. قامت بمهام التعليم، والتنشئة الاجتماعية الأخلاقية، والدعوة إلى الله، واشتغل فيها نخبة من الشيوخ الأتقياء، الذين احتسبوا عملهم لوجه الله.

مفهوم الخلوة

الخلوة في مدلولها اللغوي والروحي تعني الانقطاع إلى الله تعالى، والانفراد مع كتاب الله لتلاوته وترسيخه في القلب. ويطلق اللفظ على مؤسسات تعليمية عريقة، يختلي فيها معلّم القرآن مع الصبيان، بعيدا عن مشاغل الدنيا، لتحفيظ القرآن وبعض المتون الدينية واللغوية. انتشرت في السودان، وتشاد، وإريتريا، ولا سيما مناطق المنخفضات التي هي شديدة التأثر بالأجواء الثقافية في السودان ؛ وعرفت أحيانا بأسماء أخرى، منها "قرآنية"، وتارة "جامعة" أو "مسيد"، لكنها تظل محتفظة بقدسيتها، مرتبطة بالمساجد، أو قائمة بذاتها كبيوت للعلم منعزلة عن صخب الدنيا .

النشأة والتاريخ

تعود بداية الخلاوي إلى عهد الفتح الإسلامي للسودان إبان حملة عبد الله بن سعد بن أبي السرح لبلاد النوبة في القرن السابع الميلادي، وكانت تلك بداية مباشرة لانتشار الإسلام واللغة العربية . ثم توسعت وازدهرت في أواخر القرن السادس عشر في ظل حكم الشيخ عجيب المانجلك ، وانفصلت عن المساجد، فأصبحت مؤسسات تعليمية مستقلة، يختلي فيها المتعلمون لحفظ القرآن بعيداً عن شوائب الدنيا.

> **لم تكن الخلوة في السودان مجرد فضاء لتحفيظ القرآن، بل مؤسسة تربوية واجتماعية أسهمت في نشر الإسلام واللغة العربية عبر قرون طويلة**

انتشرت الخلاوي في طول البلاد وعرضها، نذكر منها خلاوي "الغبش" في بربر التي يضرب بها المثل في القدم، إلى خلوة "أولاد جابر" بالشمالية، وخلوة "بطيبة الخوّاض"، وخلاوي "المجاذيب" بالدامر التي سطرتها كتب التاريخ، مروراً بخلاوي "همشكوريب" في الشرق، و"الفادنية" في الجزيرة، و"الشيخ البرعي" في كردفان .

ولم يقتصر تأثيرها في السودان وحده، إذ شمل البلدان القريبة من السودان، فقد وفد عليها الأرتيريون أيضا لتعلم القرآن، وخاصة خلاوي «أم ضبان» سابقاً، التي حملت لاحقاً اسم «أم ضواً بان» ، وخلوة «أسوت» بشرق السودان، وكثير من المشايخ الذين تعلموا فيها، أنشأوا بدورهم خلاوي في بلدانهم، لنشر التعليم الإسلامي والثقافة العربية . وتواصل ارتباط الخلاوي الإرتيرية بالسودانية، فكان المتعلمون الذي ينهون دراستهم في خلاوي أرتيريا يرحلون إلى السودان، لاستكمال تعليمهم، ومن السودان، يرحل الراغبون في بلوغ مستويات علمية أعلى، إلى مصر لمواصلة تكوينهم في الأزهر وغيره من مراكز اللغة العربية والدين الإسلامي .

أنواع الخلاوي وهيكلها

تنقسم الخلاوي في السودان إلى نوعين:

1. الخلوة الصغرى: تكون لأبناء الحي الواحد، وقل أن تخلو منها قرية في السودان، وتقدم تعليما ابتدائيا.
2. الخلوة الكبرى (المسيد/القرآنية/الجامعة): ترتبط بالمساجد الجامعة، وبنيتها كبيرة، وتضم مساكن وإعاشة للطلاب الوافدين من خارج القرية، تقدم تعليما أعلى، يدرس فيها المتعلمون المتون العلمية على الشيوخ خطباء المساجد الجامعة.

المكونات البشرية:

يتألف مجتمع الخلوة من:

الفكي (الفقيه): المعلم الشيخ الذي يُعلّم الصبية القرآن والدين. ينادي الإريتريون شيخ الخلوة بـ "سيدنا" أو "شيخنا" أو "أبو شيخنا" و "أبو" هنا للتعظيم، احتراماً وتقديراً له؛

أما الطلبة الذين يحفظون القرآن، ويدرسون الفقه، فيسمونهم في إرتيريا «درسة» أي الدارسون . بينما يطلق عليهم في السودان لفظ "الحيران" (جمع حُوار).

ولا تعيش الخلوة معزولة عن مجتمعها، بل هي نموذج للتكافل الاجتماعي؛ يعتمد تمويلها على الأوقاف وصدقات المحسنين ، ويسهم أهل القرية في إطعام "الحيران" عبر ما يُعرف بـ"الجبية"، حيث يطوف الطلاب البيوت حاملين صحونهم، ليتكفل كل بيت بوضع شيء من الملاح والكسرة والقراصة، كنوع من التكافل الاجتماعي لإطعام الطلاب. فيعودون بها ممتلئة بالطعام، تعاوناً وبراً.

المنهج التعليمي

هذه المؤسسة التعليمية أداة لتحفيظ القرآن، ولتلقين العقيدة، وتعليم الدين، فالغرض الأول من إنشائها هو تلقين مبادئ الدين، وتعليم النشء اللغة العربية التي هي أداة لفهم الدين وقراءة مصادره. لذا فمكونات المنهج تخدم هذا الغرض.

يبدأ البرنامج بتعليم القرآن الكريم ضرورة أولى، ويواكب ذلك تعليم اللغة العربية نطقاً وكتابة وضبطاً، وتعليم عقائد أهل السنة. بعد حفظ القرآن، يوجه الطالب لتعلم العلوم الدينية (الفقه، الحديث، التوحيد) والعلوم الآلية (النحو، الصرف، البلاغة، المنطق، الرياضيات). وقد أضاف العلماء السودانيون مؤلفات محلية إلى المدونات الشهيرة المتداولة في البلاد الإسلامية . وهو منهج شبيه بما يلقن في كل مكاتب التعليم في شمال إفريقيا وغربها.

الحياة داخل الخلوة

حياة الخلوة لا تعرف الكسل؛ اليوم الدراسي يبدأ قبل الفجر بـ"الدغشية" وينتهي بعد العشاء. نظام تعليمي فردي فريد، تتبع الخلوة منهجاً فردياً يعتمد على التلقي المباشر من الشيخ، ولا ينقسم الطلاب إلى فصول، بل يتقدم كل طالب حسب قدرته . لا يعترف بالفصول الدراسية التقليدية، بل يعتمد على "التلقين" و"الرمية"، حيث يجلس الحيران (الطلاب) في حلقات دائرية، يلتقطون الآيات من فم الشيخ، ويرددونها بأصوات هادرة تشبه أزيز المراجل، في مشهد روحاني مهيب.

لا يُقاس الزمن في الخلوة بالسنوات، بل بالقدرة والجهد؛ فكل طالب يسير حسب همته، كبيرهم يعلم صغيرهم، ومتقدمهم يعين متأخرهم. المنهج لا يقتصر على حفظ الآيات، بل يمتد ليشمل اللغة العربية نطقاً وكتابة، والفقه، والتوحيد، والحساب، في تكوين معرفي متكامل.

ومن أبرز الوسائل:

1. التلقين (الرمية): يُلقي الشيخ أو الطالب المبرز على الحيران "الفرض" (المقرر) في جو روحاني مهيب .
2. المحاكاة والتقليد: يرسم الشيخ الحرف على الرمل أو الأرض، ويقلده الطلاب، ثم ينتقلون للكتابة على الألواح .
3. التصحيح المباشر: يصحح المعلم الأخطاء النحوية والصرفية أثناء القراءة، ويشرح المفردات.

كان المدرسون لهم دور رئيس في الحلقات أشبه شيء بالمعجم، فهم يصححون الأخطاء النحوية والصرفية أثناء القراءة تصحيحاً مباشراً، حتى لا يستقر الخطأ في ذهن المتعلم، ويشرحون المفردات اللغوية شرحاً وافياً بلغة محلية، وتارةً يفسرونها بلفظ عربي سهل يعرفه الطالب.

اليوم الدراسي والطقوس

يبدأ اليوم الدراسي في السودان منذ الساعة الثالثة والنصف صباحاً وحتى العاشرة مساءً، مقسماً بحسب أوقات الصلاة:

1. الدغشية (الفجرية): قبل الفجر، يراجع فيها الطلاب المقرر اليومي.
2. الرمية: بعد صلاة الفجر، يملي الشيخ على كل طالب ما سيحفظه.
3. الضحوة: بعد شروق الشمس، يراجع الطالب ما حفظه منفرداً ثم يعرضه على الشيخ لتصحيح الأخطاء (صحة القلم).
4. المقيل: فترة راحة وأكل بعد الضحوة.
5. الظهرية: بعد صلاة الظهر، يقرأ الطالب على الشيخ لتصحيح النطق والتجويد (صحة الفم) .
6. المطالعة: بعد العصر، يستمر الحفظ في مجموعات.
7. العرضة: قبل المغرب، يعرض الطالب ما حفظه.
8. السُّبُع: بعد العشاء، يراجع الطالب سبعة أجزاء من حفظه السابق.

الأدوات والوسائل التعليمية

تتميز الخلاوي ببساطة أدواتها التي يصنعها الطلاب بأنفسهم:

- اللوح: عود مفلطح أملس من لحاء الأشجار، يكتب عليه الطالب الآيات ليحفظها ثم يمحوها.
- قلم البوص: قلم من البامبو مبري، يغمس في الحبر.
- و"براية" لسن القلم.
- الدواية: قنينة تحتوي على الحبر المصنوع من الصمغ وبدرة الكربون والماء ، أو من مسحوق الفحم وعصارة القرض .
- التراب: يُستخدم كلوح تعليمي أولي للكتابة بأطراف الأنامل.

حفل الختم "الشرافة"

ما إن يختم الطالب جزءاً من القرآن حتى تقام احتفالية "الشرافة"؛ طقس احتفالي شعبي تقليدي، يقام في كل البلاد العربية بمناسبة ختم حفظ القرآن، وتطلق عليه أسماء تختلف باختلاف البلدان.

يقام حفل "الشرافة" في السودان في ختام حفظ أجزاء معينة، فهناك "شرافة عم" (عند سورة النبأ)، و"شرافة تبارك" (عند سورة الملك)، وتختتم بـ"الشرافة الكبرى" (عند سورة البقرة) .

في حفل الشرافة، يتم تكريم المتعلم ومعلمه، يزخرف لوح الطالب برسم قبة ومنارة، ويكتب عليه الآيات، وتقام وليمة، ويرتدي الطالب "جبة" أو "قفطان" دلالة على التشريف، إعلاناً لانتقاله من مرحلة إلى أخرى، وسط فرحة الأهل وولائم الشكر. ويتلقى الهدايا هو والشيخ.

أهداف التربية في الخلوة

تتجاوز مهمة الخلاوي التعليم إلى أدوار مجتمعية كبرى، نلخصها في رؤوس الأقلام التالية:

1. **التنشئة الاجتماعية:** مهمة الخلاوي، مزدوجة تتمثل في التعليم والتنشئة الاجتماعية من أجل تسهيل اندماج الناشئة. وبنقلها الثقافة واللغة المشتركة والعادات والتقاليد الاجتماعية، والمعتقدات، تسهم في التماسك الاجتماعي داخل العشيرة ؛
2. **بناء الهوية الدينية:** تلعب هذه المؤسسات دوراً محورياً في التنشئة الروحية وشحذ الهوية الدينية من خلال المناسبات والطقوس المشتركة.
3. تلبية الحاجة المجتمعية إلى العلماء تغذي المجتمع باحتياجاته من الأئمة والفقهاء والقضاة، والتوثيق، والقادة الدينيين، والمثقفين القادرين على إدارة الشأن العام، والاشتغال في دواوين الحكومة.
4. الدعوة الإسلامية، تسهم الخلاوي في نشر الدين، بما تبثه من معرفة بالإسلام، وتحفيظ القرآن، وتعريف بالآداب الإسلامية؛
6. طقس انتقال: تعد الخلوة مرحلة انتقالية للطفل نحو الكبر والاتصال بدين آبائه، مما يرسخ شعوره بالانتماء والأمان. فحين يرسل الطفل الى الخلوة ليتعلم القرآن يشعر أنه قد بدأ يخطو نحو الكبر ويتصل بأمر الدين ليعلم منه ما يعلم أبواه وكبار أسرته.

> **من ألواح الخشب البسيطة إلى حلقات التلقين الجماعي، صنعت الخلاوي القرآنية نموذجًا تعليميًا فريدًا جمع بين التربية الروحية والتكوين العلمي**

إن الخلوة السودانية، ببساطة أدواتها وعمق مضمونها، تظل شاهداً حياً على قدرة المجتمع السوداني على صناعة نسيجه الاجتماعي والتعليمي بأسلوب يعكس روح الإسلام وقيم التكافل، بعيداً عن تعقيدات الحضارة المادية، قريبة من القلب والوجدان.

آثار الخلاوي في الحياة الإفريقية

كان لنظام التعليم التقليدي الإسلامي في إفريقيا آثار طيبة في الحياة الإفريقية، تشمل المجال الديني، والتعليمي، والإداري، والسياسي أيضا:

نشر الإسلام السني: بفضل الجهود المباركة للدعاة المسلمين، ولمعلمي الكتاتيب انتشر الإسلام انتشارا واسعا في إفريقيا، وما زالت المساجد والأربطة والزوايا، والأضرحة الإسلامية تشهد بانتشار الإسلام في هذه الأصقاع. فقد كان الفرد ينشأ على حفظ القرآن، ومعرفة الدين، وتلقي مبادئ الإيمان والتوحيد وفق عقائد أهل السنة، وبالاستعانة بكتبهم.

نشر اللغة والثقافة العربيتين: تلازم تعليم القرآن والدين بتعليم اللغة العربية، فهي أهم وسيلة لمعرفة الدين، وأداء مناسكه، والتوسع في دراسته، والتواصل مع علمائه، ومواصلة التكوين لمن رغب في تعميق معرفته بالدين.

وقد انتشرت العربية في أصقاع إفريقيا بفضل هؤلاء المعلمين، حتى باتت لغة التدوين لمؤرخيها وعلمائها ومثقفيها، ولغة التواصل الإداري والديبلوماسي لحكامها وقادتها.

مع انتشار التعليم الإسلامي أصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والتعليم لدى معظم سكان إفريقيا، وبعد ما يقرب من ألف سنة من دخول الإسلام في إفريقيا بدأت بعض الشعوب الإفريقية كتابة لغاتها بالحروف العربية، وكان أبرز هذه اللغات إنتاجاً أدبياً اللغات السواحلية والهوسا واليوروبا والفولاني والصومالية، ومن اللغات الإفريقية التي كتبت بالحروف العربية: الأفريكانية والعربية التشادية والبالانت والبجا والنوبية والقمر والماندنكا والكانوري والصوصو والطوارقية والسرر واللوغندا والمدغشقرية والولوف .

تشجيع الدراسات العربية الإفريقية: إن الإسلام دين لا يستغني عن القراءة والكتابة. وكان دخول الإسلام تلازمه الحركات العلمية والثقافية فى أكثر الأحايين، لذلك أقبل جم غفير ممن أسلم في غرب إفريقيا على القرآن واللغة العربية تعلماً وتعليماً، ولكن ما يكاد ينشغل الفرد بدراسة مقدمات اللغة العربية حتى تجذبه أمواج هذه اللغة، فيغوص في أعماقها على قدر طاقته اللغوية وموهبته الذهنية. وعلى هذا المنوال أكب المسلمون على تعلّم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في الحلقات العلمية المتوفرة في شرق وغرب إفريقيا، حتى برز منهم علماء وأساتذة لا تنكر جهودهم وإنتاجاتهم العلمية والأدبية.

ربط إفريقيا بالبلاد العربية والإسلامية: ارتبطت البلدان الإفريقية بالبلاد العربية والإسلامية، فكان المسلمون يرسلون أولادهم إلى موريتانيا للدراسة، ولما كثر المتخرجون في مجالس تلك البلاد أسسوا بدورهم المدارس العربية التي أصبحت تستقبل طلبة العلم، حتى انتشرت المراكز العلمية في كل مكان، بل وقامت جامعات تواءمت تحت كيانها جميع الأعراق.

أسرار الخلود والصمود

لقد نجحت الخلوة في الصمود أمام تيارات التغيير، وعجز المستعمر عن طمس معالمها، رغم إنشائه لمدارس حديثة على النمط الغربي؛ رآها السودانيون والأرتيريون مرتبطة بالاستعمار، وغريبة عن جذورهم الثقافية، فتمسكوا بمؤسستهم الأصيلة، التي تعبر عن تاريخهم وثقافتهم. فصمدت الخلوة لأنها لم تكن مجرد مدرسة لتعليم القراءة والكتابة، بل كانت "محضناً" أصيلا للتنشئة الاجتماعية والروحية، وبانية للهوية، ومصنعاً للأئمة والقادة. رأت فيها الأسرة السودانية فيها الحصن الأمين لأبنائها، ووجدت فيها امتداداً لقيمها وتاريخها.

د. معز البرقاوي
باحث في التنمية المستدامة والتراث الثقافي
تونس

في قلب الشمال الغربي بالجمهورية التونسية وعلى بُعدِ 125كلم عن تونس العاصمة، تَتَرَبَّعُ مدينة بَرْقُو تحت سفح جَبَلِ بَرْقُو الشامخ كواحدة من أعرق القُرَى الجبلية التي استحقت لقب «قَلْعَةُ النِضَالْ». ليست مجرد قَرْيَةٍ، بل تُحْفَةً معماريةً حيةً تنبض بروح الماضي وتروي قصة إنسان تَكَيف مع وعورة التضاريس الجبلية فَحَوَلَها إلى فضاءٍ للعيش والإبداع. ويُمَثِل جَبَلُ بَرْقُو وِجْهَةً للسياحة الداخلية البديلة والمستدامة تجمع بين سحر الطبيعة الجبلية وعبق التاريخ وثراء التراث، حيث تمتزج المواقع الأثرية بالغابات والينابيع والقرى التقليدية لِتُقدم تجربة سياحية ثرية ومتكاملة. تزدهر السياحة البديلة والمستدامة في جبل برقو خلال فصول الربيع والصيف والخريف للاستمتاع بالطبيعة بينما يشهد فصل الشتاء إقبالا من عشاق السياحة الفلاحية والجبلية والثلوج.

ويحتوي جبل برقو على مخزون طبيعي وتراثي ثقافي يجمع بين المواقع الأثرية والغطاء النباتي والتضاريس الجبلية والمشاهد الطبيعية وعيون الماء والقرى الجبلية والعادات والتقاليد والتظاهرات والمنتوجات الفلاحية والحرف التقليدية، مما يجعل منه وجهة مفضلة للسياح التونسيين والأجانب لممارسة العديد من الأنشطة السياحية والبيئية والثقافية على مدار السنة، وفيما يلي نستعرض المنتوجات السياحية بجبل برقو:

جَبَلُ بَرْقُو شمال غرب تُونِس...

وِجْهَةٌ للسياحة البديلة والمستدامة تَجْمَعُ بين جمال الطبيعة وعراقة التاريخ وثراء التراث

في قلب الشمال الغربي بالجمهورية التونسية وعلى بُعدِ 125كلم عن تونس العاصمة، تَتَرَبّعُ مدينة بَرْقُو تحت سفح جَبَلِ بَرْقُو الشامخ كواحدة من أعرق القُرَى الجبلية التي استحقت لقب «قَلْعَةُ النِضَالْ». ليست مجرد قَرْيَةٍ، بل تُحْفَةً معماريةً حيةَ تنبض بروح الماضي وتروي قصة إنسان تَكَيف مع وعورة التضاريس الجبلية فَحَوَّلَها إلى فضاءٍ للعيش والإبداع. ويُمَثِل جَبَلُ بَرْقُو وِجْهَةً للسياحة الداخلية البديلة والمستدامة تجمع بين سحر الطبيعة الجبلية وعبق التاريخ وثراء التراث، حيث تمتزج المواقع الأثرية بالغابات والينابيع والقرى التقليدية لِتُقدم تجربة سياحية ثرية ومتكاملة. تزدهر السياحة البديلة والمستدامة في جبل برقو خلال فصول الربيع والصيف والخريف للاستمتاع بالطبيعة بينما يشهد فصل الشتاء إقبالا من عشاق السياحة الفلاحية والجبلية والثلوج.

ويحتوي جبل برقو على مخزون طبيعي وتراثي ثقافي يجمع بين المواقع الأثرية والغطاء النباتي والتضاريس الجبلية والمشاهد الطبيعية وعيون الماء والقرى الجبلية والعادات والتقاليد والتظاهرات والمنتوجات الفلاحية والحرف التقليدية، مما يجعل منه وجهة مفضلة للسياح التونسيين والأجانب لممارسة العديد من الأنشطة السياحية والبيئية والثقافية على مدار السنة، وفيما يلي نستعرض المنتوجات السياحية بجبل برقو:

1. السياحة البيئية والجبلية بجبل برقو:

يتمتع جبل برقو البالغ ارتفاعه حوالي 1263م بجمال طبيعي استثنائي، حيث يحتوي على مشاهد ومناظر طبيعية تجمع بين الغطاء الغابي دائم الاخضرار بفضل تواجد حقول الحبوب وأشجار الصنوبر والخروب والبلوط والإكليل والتضاريس والمناظر البانورامية الخلابة التي تشكلها حقول الزيتون والتفاح والكرز والخوخ والتين، مما يجعله وجهة مفضلة لمحبي الطبيعة والمشي في الهواء الطلق وممارسة رياضات التسلق والتخييم والاستغوار مع الإقامة هناك في المركز العمومي أو في الإقامات الريفية.

> **يحتوي جبل برقو على مخزون طبيعي وتراثي ثقافي يجمع بين المواقع الأثرية والغطاء النباتي والتضاريس الجبلية والعادات والتقاليد**

مركز الاصطياف والتخييم بعين بوسعدية:

هو فضاء عمومي تابع لوزارة الشباب والرياضة تبلغ مساحته حوالي 500م2، يوجد بعمادة عين بوسعدية على بُعْدِ 125كلم من تونس العاصمة على الطريق الوطنية رقم 4، الرابطة بين تونس وسليانة، ويوفر خدمات الإقامة وتنظيم التظاهرات وممارسة كافة أنواع الأنشطة السياحية البيئية والجبلية بطاقة استيعاب تبلغ 32 سريرا و100 شخص تحت الخيام ويوفر وجبات الأكل ليوم كامل في جو يجمع بين الهدوء والاستراحة بين أحضان الطبيعة.

أصبح التراث اللامادي بجبل برقو اليوم أحد أهم رهانات السياحة البديلة والمستدامة في تونس. فالسائح المعاصر لم يعد يكتفي بزيارة المواقع الأثرية، بل يبحث عن التجربة

الإقامات الريفية والاستضافات العائلية:

مثلت الإقامات الريفية والاستضافات العائلية بديلا للإيواء السياحي في جبل برقو خلال العشرية الأخيرة، حيث تم بعث أربع إقامات ريفية جديدة من قبل باعثين شبان أصيلي المنطقة لاستيعاب فائض السياح التونسيين والأجانب الوافدين على المنطقة خاصة في فصل الربيع، بطاقة إستيعاب تبلغ عشرة أشخاص لكل إقامة. ونجد إقامة دار زروق بالمنطقة الأثرية هنشير باز بعمادة أولاد فرج، وإقامة منتجع برقو Bargou Resort لمنصور البرقاوي بقرية القليعة، وإقامة دار البرقاوي بقرية دمان الخروب عمادة عين بوسعدية، وإقامة المانسي بدشرة بوتيس عمادة الدريجة، وإقامة ومقهى مايا بقرية بعين بوسعدية. وتقدم هذه الإقامات التراث الغذائي والريفي لكافة قرى ومداشر جبل برقو في حُلَّةٍ أَنِيقةٍ من أكلات محلية ومنتوجات الحرف التقليدية من الطين والخلفاء والصوف وتقنيات عصر الزيتون بالقُرْنَةِ وتقطير زيت الإكليل والري التقليدي بالساقية وتقنية تحضير المِرْمِزْ أو شُرْبَة الشَعِير وأنواع الخبز التقليدي البرقاوي والمانسي في تجربة اكتشاف فريدة للسائح التونسي والأجنبي.

2. السياحة الثقافية بجبل برقو:

أطلقت وزارة السياحة التونسية منذ يوليو 2024 مبادرة «تُونِسُ إِلَيْكَ» لدفع السياحة الداخلية البديلة والمستدامة وتشجيع التونسيين على إعادة اكتشاف البلاد وتاريخها وحضارتها وثقافتها وجمالها. تعتبر السياحة الثقافية في جبل برقو تجربة استثنائية تجمع بين زيارة المواقع الأثرية وبين اكتشاف هندسة ومعمار القرى والمداشر التقليدية وتذوق الأكلات والتعرف على العادات والتقاليد والطقوس المحلية للسكان.

المواقع الأثرية وعيون الماء بجبل برقو:

تزخر معتمدية برقو بمواقع أثرية شهيرة تعود إلى الفترة الرومانية على غرار الموقع الاثري بسيدي سعيد والحمام والمسرح الروماني بعين فرنة وصهاريج المياه والسواقي بعين مزاتة وهنشير باز وهي مواقع أثرية تشهد على عراقة تاريخ المنطقة التي استقر بها الرومان لفترات طويلة بسبب خصوبة أرضها ووفرة وعذوبة مياهها. بالإضافة إلى تواجد العديد من عيون المياه المعدنية مثل عين مزاتة وعين النشم وعين فرنة وأشهرهن عين بوسعدية التي نقل المستعمر الفرنسي ماءها منذ سنة 1901 إلى قصر باردو وقصر قرطاج عبر قناة لا تزال مستغلة إلى اليوم. ويمكن للزائر الاطلاع على وحدتي تعليب المياه المعدنية «ماء برقو ومَلِينَا» المتواجدتين بكل من قرى البحيرين ودمان الخروب.

النصْبُ التِذْكَارِي لشهداء معركة جبل برقو الخالدة:

عند حلول السائح بمنطقة عين بوسعدية حيث يوجد مركز الاصطياف والتخييم لا يفوته أن يزور النصب التذكاري لشهداء معركة برقو 13نوفمبر 1954 ويطلع على المعرض الوثائقي للمراحل التاريخية لمعركة جبل برقو أو معركة الربع ساعة الأخيرة التي ترجمت انخراط كافة أهالي قرى ومداشر جبل برقو في معركة الكفاح الوطني من أجل استقلال تونس في 20مارس1956.

فن العِمَارَةِ بالقرى والمَدَاشِرِ التقليدية بجبل برقو:

تمثل القرى والمداشر التقليدية بجبل برقو أبرز الشواهد الحية على عراقة العمارة التقليدية الريفية والعمق التاريخي، حيث تظهر جليا قدرة الانسان على استغلال الموارد الطبيعية كالحجارة والطين والخشب وقدرته على تطويع المجال الجبلي في تشكيل نمط معماري خاص بالجهة. ويحتوي جبل برقو على خمس مداشر هي بوتيس والغار ومديولة وبلوطة والبحيرين، وتمثل كل واحدة منها تحفة معمارية وموروثا اجتماعيا من خلال احتضانها للعديد من الزوايا والمهرجانات الشعبية ولتربية البقر والماعز الجبلي التي تجسد الهوية المحلية في أبهى صورها وتفتح المجال أمام تفاعل ديناميكي بين الماضي والحاضر.

تزخر معتمدية برقو بمواقع أثرية شهيرة تعود إلى الفترة الرومانية

الثقافة الغذائية التقليدية بجبل برقو:

يزخر مطبخ سكان جبل برقو بالعديد من الأكلات المحلية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأعياد أو بالمواسم الفلاحية أو بتقاليد خزن وطبخ المواد الغذائية على مدار السنة. وتُعتبر الأكلات والحلويات المحلية تجسيدًا للتراث اللامادي الثقافي الغني لسكان جبل برقو، حيث تجمع بين البساطة واللذة في آن واحد. تحضير هذه الأطباق التقليدية لا يقتصر فقط على الاستمتاع بمذاقها الرائع، بل يُعد أيضًا فرصة للتواصل مع الجذور الثقافية والتقاليد العريقة مثل (المُقْلِي بالفلفل والطماطم والبطاطا والعظم العربي، المشكشك، شكشوكة الخضر، كسكسي بالخرشف أو بالرغيدة أو بالقديد، الملثوث بلحم رأس الخروف، شربة المرمز، المحمصة، البرغل، الخبيزة، المُرَقِدْ والمُسِلي من لحم خروف عيد الأضحى، عصيدة عربي بزيت الزيتون أو الزبدة والعسل أو بالشكشوكة. أما الحلويات فنجد مثلا «المقروض» و«المسمنة» و«السفنج» و«الغرايف» والرفيسة و«الغريبة» و«الكعك أو اليويو» و«البسكوي» والعصيدة العربي وعصيدة الزقوقو. يُعَدُّ الخبز التقليدي أو «خبز الطابونة» الذي يتم إعداده في الغرفة الطينية الطابونة والحطب مثالا للاحتفاظ بعبق التاريخ والمذاق الأصيل.

هكذا أصبح التراث اللامادي بجبل برقو اليوم أحد أهم رهانات السياحة البديلة والمستدامة في تونس. فالسائح المعاصر لم يعد يكتفي بزيارة المواقع الأثرية، بل يبحث عن التجربة: أن يشارك في مهرجان محلي، أن يتذوق أكلة شعبية في سياقها الاجتماعي، أن يتعرّف على حرفة في فضائها الأصلي. بهذا المعنى، يصبح التراث الثقافي اللامادي جسرًا بين الزائر والمجتمع، يعيد الاعتبار للمناطق المهمشة، ويبرز رسالة أساسية يمكن لتونس أن توجّهها إلى العالم، لنفتح حوارًا إنسانيًا من خلال تراثنا اللامادي، لا بوصفه خصوصية منغلقة، بل باعتباره تجربة بشرية قابلة للتقاسم بين شعوب العالم.

ثقافة الأطفال.. ماهيَّتها، وسائطها، تحدياتها

عبد المجيد إبراهيم قاسم

كاتب

سوريا

الثقافة هي إحدى أهمّ ركائز الحضارة الإنسانية وخصيصة من خصائصها الرئيسية، تُعرف بأنّها خلاصة المعارف والأفكار والعادات والتقاليد والفنون والآداب والمهارات والقيم العقائدية والسلوكية التي تشكّل هُويّة أيّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية، وتعكس سماته المتميزة عن سمات المجتمعات الأخرى سواء عبر اللغة أو الخبرات المتراكمة أو القيم المتداولة، وهي كلّ ما يكتسبه الفرد من أساليب الحياة في بيئاته: الطبيعية والحضارية والاجتماعية، وما يتخذه من أساليب ووسائل لنقلها إلى أجيالها القادمة. فالثقافة إذاً هي ثمرة التفاعل بين الإنسان وبيئته باختلاف مؤثراتها.

ماهيَّة ثقافة الأطفال واعتباراتها:

ثقافة الأطفال هي ثقافة فرعية للثقافة العامة في المجتمع، وجزء أساسي في بنائها وتكوينها، يمكن تعريفها بأنّها: كلّ النتاجات والأعمال المقدَّمة للطفل خصّيصاً على المستوى الأدبي أو الفنيّ أو التعليمي أو الترفيهي، بحيث يكون قادر على استيعابها وتمثُّلها في كلّ مرحلة عمرية، وتهدف عموماً إلى إثراء خبراته المعرفية والقيمية وتوسيع أفق تفكيره، وتنمية قدراته وإمكاناته بالشكل الأمثل وتأصيل روح الإبداع لديه.

إنّ الثقافة التي تُقدَّم للطفل في أيّ مجتمع مستمدة من ثقافة ذلك المجتمع تبعاً لظروفه الاجتماعية والاقتصادية والعلمية الخاصّة، ولكن ذلك لا يعني أنّها تصغيرٌ عن ثقافة الكبار أو نقلٌ عنها مع التبسيط، إنما هي ذات خصوصية كاملة في كلّ عنصر من عناصرها.

من جهة ثانية فإنّ الثقافة الطفلية لا تتخذ طابعاً واحداً على الرغم من الإطار العام الذي يحكم آلياتها، نظراً لاختلاف خصائص النموّ في كلّ طور من أطوار الطفولة، لذا كانت الحاجة إلى نوع ثقافي معين يختلف

من حيث المضمون والأسلوب والإخراج وفقاً لتلك الخصائص.

وتُعرَّف ثقافة الطفل بأنّها[1] : «خليطٌ ممّا يرثه عن أبويه وأسرته, وما يصله من عادات وتقاليد, وما يكتسبه من معرفة وعلم, وما يتأثّر به من فنون وما يمارسه منها, وما يعتقد فيه ويؤمن به, وما يتّصف به من خُلق, وما تتميّز به شخصيته من ملامح وكلّ ما يسود مجتمعه من أفكار وآراء وقوانين وما يشيع فيه من ثقافة عامة.»

تبدو الحاجة ضروريّة وماسّة إلى إدراك ماهيّة ثقافة الأطفال وأهميتها، وإلى أنّنا إذ نشير إليها لا نعني مجموع المعارف والمعلومات التي نقدّمها لهم فحسب، أو أنّها إجراءات مقصودة ترمي إلى التبسيط عن ثقافة الكبار، إنما هي أسلوبُ حياة وفنٌّ للتعامل والتفاعل مع المحيط، واستراتيجية تربوية متكاملة، تقوم على أسس واضحة ولها خصائص وأشكال وأساليب معينة.

ويذهب الشماس باعتقاده إلى[2] : «أن الثقافة بوسائطها المتعددة هي الوعاء التربوي العام، حيث تتم عملية التنشئة الاجتماعية للأفراد مع ما تنطوي عليه هذه العملية من إكسابهم أنماطاً سلوكية تحدّد علاقاتهم وما يقومون به من أدوار اجتماعية.» إنَّ هذا النوع من الثقافة يحظى باهتمام بالغ من الأمم التي تقدّر ثروتها في الطفولة حق قدرها، وتسعى بكل طاقاتها لكي تهيّئ لأطفالها حياةً ملؤها الصحة والسعادة والطمأنينة.

ثقافة الأطفال ليست تبسيطًا لثقافة الكبار، بل هي ثقافة ذات خصوصية كاملة في كل عنصر من عناصرها

تشتملُ ثقافة الطفل إذاً على مُجمل الأعمال الأدبية والفنيّة والتعليمية والترفيهية الموجَّهة للأطفال، بهدف بناء شخصياتهم وتنمية قدراتها بالشكل الصحيح. ومن أهم اعتبارات ثقافة الأطفال:

أولاً- الاعتبارات التربوية: ثقافة الأطفال هي مسألة تربوية في المقام الأول وعملية تتمتّع بالشمول والاستمرارية، فهي تشمل نواحي الشخصية وجوانبها كافّة، وتمتدُّ طوال مرحلة الطفولة، ثم تستمر تأثيراتها مدى الحياة التي يعيشها الإنسان. وتعني هذه الاعتبارات باختصار: تقديم المادَّة الثقافية بما يتلاءم مع الخصائص السيكولوجية واللغوية والاجتماعية لجمهورها، وما يتناسب مع مداركهم وقدراتهم ويراعي فروقهم الفرديّة، ويهيّئ لهم عالماً ساحراً متنوّعاً منسجما مع سِحر الطفولة وتنوّع أحوالها.

ثانياً- الاعتبارات اللغوية: وتعني أن تكون اللغة المتضمّنة في العمل الثقافي سليمةً وبسيطة ونابضة بالجمال الأخّاذ، وأن تدخل إلى قلب الطفل بيُسر وسهولة، وقبل كلّ ذلك أن تتناسب مع مضمون العمل المقدَّم ولغة الطفل أيضاً.

ثالثاً- الاعتبارات الفنيَّة: هي أن تتّسم المادَّة الثقافية بمستوى راقٍ: أسلوباً وإخراجاً، وتكون محاطةً بالتشويق وقادرةً على الإمتاع وبثّ البهجة والمرح.

يقول (يوسف، 2002م): «الثقافة يجب أن تكون كالغذاء الجيد والعصير اللذيذ، أي متعة.. سواء كانت قطعة موسيقية أو قصيدة شعر أو قصة جميلة أو رواية رائعة، ولهذا تجمع الثقافة ما بين الآداب والفنون من جانب والعلم والمعرفة من جانب آخر، ويظلُّ شرط المتعة قائماً باستمرار وإصرار. (ص. 28)

وسائط الثقافة الطفلية وخصائصها:

إنَّ للأطفال دوافعهم في التفاعل والتعبير عن أفكارهم وأحاسيسهم، وهم ينفرون بطبيعتهم من أساليب التربية التقليدية التي تقوم على حشو أذهانهم بالمعارف النظرية وتقدِّم لهم أفكاراً جامدة تغتال فيهم الإبداع أحياناً، لذا تتوجَّه الأنظار دائماً لإيجاد وسائل أو وسائط مناسبة، تهدف لإيصال ما يُراد إيصاله إليهم من الأفكار والخبرات والقيم بما يجذبهم إلى عالمٍ جميل، وتتيح لهم فرصاً وافرة لأن يمارسوا طفولتهم المفطورة على حبّ المعرفة واستكشاف الآفاق، وتكون قادرة أيضاً على تلبية بعض احتياجاتهم وإكسابهم مهارات حياتية كافية.

الثقافة الطفليّة هي ليست مجرَّد تجميع مكثَّف للمعارف، أو تقديم كتاب أو مجلة أو فيلم سينمائي بهدف زيادة معلومات الطفل، بل أصبحت منظومة متكاملة تشتمل أهدافها على الاهتمام بمختلف نواحي شخصيته كما سبق وأن مرَّ معنا، وأصبحت بالوقت نفسه أكثر تطوراً وشمولاً وعمقاً.

وقد أشار إلى ذلك شبلول بقوله[3] : «لم يعد أمرُ ثقافة الأطفال مقصوراً على طريقة صنع الكتاب بشكل يجذب إليه الطفل أو

1 يوسف، عبد التواب. (2002م، شتاء). تنمية ثقافة الطفل: فصول حول ثقافة الطفل. (ط.1). دمشق: دار الفكر، 26.

2 الشماس، عيسى. (2004م). أدب الأطفال بين الثقافة والتربية (ط.1). دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية، 10.

3 شبلول، أحمد فضل. (2000م). تكنولوجيا أدب الأطفال. الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 104.

على اختيار النصّ الشعري أو الحكاية أو القصة المناسبة له، ولم يعد الأمر مقصوراً كذلك على مناقشة تقديم ما هو غير ناطق من حيوان أو طير بطريقة ناطقة، لقد جلب التطوّر التكنولوجي والإلكتروني معه أشكالاً وأفكاراً ومشاكل جديدة لأطفالنا، وينبغي على صانعي ثقافتهم الجديدة استيعابها أولاً ثم طرح مضامين جديدة تناسب هذه الأشكال.»

لقد تعدَّدت وسائط الثقافة لحدٍ كبير، ابتداءً بالكتاب المطبوع، ووصولاً إلى الأجهزة التكنولوجيّة وتقنياتها الحديثة كالألواح الحاسوبية والهواتف الذكيّة ومنصات الألعاب الإلكترونية، مروراً بالصحيفة والتلفاز والسينما والإذاعة والفيديو والمسرح والمتحف وغيرها. وقد قُسِّمت هذه الوسائط إلى أنواع رئيسية أهمها: وسائط الثقافة المكتوبة كالكتاب والمجلة والصحيفة، وهي تستخدم القراءة كوسيلة اتصال وتأثير، ميزتها أنَّ الرسالة فيها تبقى ثابتة يمكن الرجوع إليها في أيّ وقت. والوسائط المسموعة كالإذاعة والكاسيت والاسطوانة التي أصبحت تقليدية، والوسائط المسموعة المرئية كالتلفاز والسينما والمسرح، بالإضافة إلى أنواع جديدة ظهرت نتيجة التطور التكنولوجي المُذهل كالأجهزة الرقميَّة التي تقوم على التفاعل بين الطفل وشاشاتها الذكيّة، وهي الأكثر جذباً وتأثيراً على الطفل، لأنَّها تتوجَّه إلى حواسه المختلفة. ومن أهم وسائط ثقافة الطفل بأنواعها التقليدية:

الثقافة الطفلية ليست مجرد معارف ومعلومات، بل أسلوب حياة واستراتيجية تربوية متكاملة

1. الكتاب: أولى وسائط نقل الثقافة وأهمّها، ولا يمكن الاستغناء عنه مهما تطوَّرت الوسائط الأخرى، إذ يعدُّ أكبر مورد لثقافة الطفل، وبوابة عظيمة تقوده إلى اكتساب المعرفة بمفهومها الشامل، ومن أهم خصائص كتاب الطفل:

- المضمون: وما يطرحه من المعارف والمفاهيم والقيم، ومدى تحقيقه للاعتبارات التربوية والنفسية والتذوّقية الخاصَّة بالطفل.
- الإخراج والشكل: يؤدّيان دوراً هاماً في جذب الطفل وتنمية حبّه للمطالعة كأن يحتوي الكتاب على رسوم ملوّنة ومعبّرة، ويكون حجمه مناسباً وغلافه جذّاباً من حيث الشكل واللون.

2. المجلّة: وسيلة تثقيفية مهمّة في حياة الطفل، فهي تحسّن مهاراته القرائية وتزيد في حصيلته اللغوية وترقى بذوقه الفنيّ وإحساسه الجماليّ، عبر ما تقدّمها من موادّ الثقافية المتنوّعة كالقصص والأشعار والمعلومات وما تحقّقها من تفاعل ودافعية ترتبط بميول الشريحة الموجَّهة إليها ارتباطاً وثيقاً.

3. المسرح: وسيلة تواصل فكرية وثقافية واجتماعية لا يختلف اثنان على أهمّيتها، ويكفي هنا الاستشهاد بمقولة منسوبة للشاعر والكاتب المسرحي الإسباني فيديريكو لوركا (1898-1936م) والتي يصفه بأنّه: (ترمومتر تُقاس به عظمة البلاد) هذه المقولة تدلُّ على أهمية دور المسرح في حياة الطفل الثقافية ومدّ مداركه بنجيع المعرفة وفهم انفعالاته بشكل صحيح.

4. الإذاعة: وسيط فعّال في رفع مستوى الطفل الثقافي، وهي تعتمد على الكلمة المشرقة وتستخدم المؤثرات الصوتية لإثارة خيال الطفل عبر تحويل الكلمات إلى صور صوتية حيّة، فتنمّي تعليمه وتذوّقه عبر برامجها التي تتنوَّع بين القصصية والغنائية والموسيقية وبرامج المهارات والتواصل والترفيه، وتملأ أوقات فراغه بالمفيد والممتع وتكسبه جملة من المهارات الضرورية كالتدرّب على الخطابة والنطق السليم وحسن الاستماع والإصغاء. إلا أنّها وعلى الرغم من أهميتها التعليمية والتثقيفية لم تعد تأدّي دورها كما ينبغي بسبب قلة استخدامها والاهتمام بها.

5. التلفاز: من مصادر تثقيف الطفل وأكثرها جاذبية له، إذ يجمع بين العديد من المؤثرات كالصوت والصورة والإيقاع واللون. ولعل طبيعة الطفل المولعة بالمعرفة والاستكشاف جعلت هذا الجهاز السحري يستأثر بهذا الحيّز في نفسه. فالتلفاز لم يعد وسيلة لتزويد الطفل بالمعارف والعادات، بل جهاز يمتلك شيفرة تأثير بالغ في بناء شخصيته وتشكيلها الثقافي والقيمي والسلوكي، من خلال برامجه المناسبة كالبرامج التعليمية وموضوعات الطبيعة والحيوان وأفلام المغامرات الشيّقة والقصص العلمية المفيدة.

6. السينما: تؤدي دوراً بارزاً في نشر الثقافة والمعرفة والقيم، وتعدُّ من أكثر وسائل الإعلام تأثيراً في نفوس الأطفال بعد التلفاز ومقدرةً على إثارة تفاعلهم وشدّ انتباههم، حيث الصورة المتحرّكة والناطقة وسحر الألوان والمؤثرات الصوتية النابضة بالحياة والحركة الوثابة.

7. الفيديو: وسيلة ملازمة للتلفاز ومكمّلة له، تكمن ميزته في استخدام التسجيلات والبرامج التعليمية على نطاق واسع مع إمكانية الاحتفاظ بها وعرضها في الأوقات المرغوبة. إنَّ وسائل الإعلام كما أصبح واضحاً تملك تأثيراً كبيراً في تثقيف الطفل وتعزيز المفاهيم الإيجابية حولها وتنمية قيم ثقافية حديثة يمكنها تكريسها في حياته بنجاح، وبالتالي المشاركة في تأسيس شخصية إنسانية متوازنة من النواحي كافّة.

8. المتحف: مرآةٌ تعكس تاريخ الشعوب وحضاراتها، ووسيط ثقافي جيد؛ قادر على رفد الطفل بأشكال ثقافيّة متنوعة وتنمية ذوقه الجمالي والفنيّ. ناهيكم عن أغراضه المتعلقة بتعريف التراث الإنساني وعادات الشعوب وتقاليدها في المراحل التاريخية المختلفة.

أما عن وسائط ثقافة الطفل وتطبيقاتها المتطورة يمكن القول بأنَّ اعتمادها الأساسي يكون على الإنترنت، وهي شبكة حاسوبية دولية عملاقة نشأت في نهاية الستينيات من القرن العشرين، ثم تطوّر بدءاً من ثمانينياته، ووصولاً لقيام بعض الدول ببناء شبكات خاصة بها ثم ربطها بشبكة عالمية واحدة، وكان ذلك قفزة علميَّة هائلة جداً، لتصبح هذه الشبكة جزءاً هاماً في ثقافة الأطفال الحديثة، وبلورة قيمهم واتجاهاتهم ورؤاهم، بل ضرورة حياتية لم يعد بالإمكان الاستغناء عنها.

الوسائط في ثقافة الأطفال إذاً: هي: كلّ ما يُستخدم في تقديم المادَّة الثقافية باختلاف أشكالها للأطفال، ولها اعتباراتها وخصائصها التي تختلف عن خصائص وسائط ثقافة الكبار نسبياً، وعلى الرغم من هذا الاختلاف إلا أنها تتقاطع معها في الكثير من النقاط. ومن أهم الخصائص: أن تراعي متطلبات نموّ الأطفال بجوانبه الإدراكية والعاطفية والاجتماعية وتستجيب لميولهم واحتياجاتهم المعرفية والتعبيرية والإبداعية، ومن جهة أخرى يجب أن تراعي الاعتبارات النفسية والتربوية والفنية؛ القادرة على تحقيق أهداف التربية الثقافية كأن تكون واضحة في العرض، قادرةً على الإقناع ومحاطةً بصيغ الجاذبيَّة والتشويق، لتتمكَّن المادَّة الثقافية من التأثير في جمهورها وأداء دورها التربوي المطلوب.

> **الكتاب هو أكبر مورد لثقافة الطفل وبوابة عظيمة تقوده إلى اكتساب المعرفة**

تحدّيات ثقافة الأطفال:

إنَّ من كبرى التحدّيات التي تواجه ثقافة الأطفال في الكثير من المجتمعات العربية: التحدي المتمثل بـ (الغزو الثقافي) ومحاولاته في ترسيخ قيم وسلوكات جديدة تحلُّ محل القيم الأصيلة ورسم ملامح هُويَّة ثقافية بديلة للطفل العربي، سعياً لتحقيق ما تُسمى اصطلاحاً (العولمة الثقافية) وما يترتَّب عنها من مخاوف متزايدة بظهور أجيال فاقدة لهُويَّتها الثقافية وعاجزة عن الثبات أمام الرياح العاتية التي تهدف لاقتلاع الجذور. فنجد مثلاً أنَّ غالبية المحتوى الإعلامي المقدَّم للطفل كأفلام الرسوم المتحركة، هي نتاج ثقافات تختلف قيمها عن قيمنا اختلافاً واضحاً.

من جهة أخرى يُلاحظ ضعف قدرة مجتمعاتنا على مواكبة تطورات (الثورة الرقمية) وتحوّلاتها المرتبطة بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي وصلت فيها بعض الأمم المتقدّمة علمياً إلى مستويات عالية، خاصة فيما يتعلق بأنواع وسائط تثقيف الطفل، وما ينتج عن ذلك من اتساع البون الذي يفصلها عنها.

ولعل من المؤشرات التي تعمّق من آثار هذا الوضع ويزيد الطين بلّة: انتشار الإفراط في استخدام الإنترنت وقضاء وقت طويل قد يصل لحدِّ الإدمان أمام شاشات الأجهزة الذكية، وما ينجم عنه من صعوبات التكيُّف لدى أطفالنا مع الواقع الجديد ومخاوف اكتسابهم لقيم لا تخدم نموَّهم السليم جسدياً ونفسياً ولا تتناسب مع بيئتهم، وتفقدهم كذلك فوائد التفاعل البشري، وتضعف مهاراتهم العاطفية والاجتماعية والشخصية.

كما أنَّ الثقافة الطفلية في بعض مجتمعاتنا لا تزال تواجه تحديات أخرى، منها: انخفاض مستوى المنتج الثقافي والأدبي والفنّي المقدَّم للأطفال من حيث الكمّ والكيف، وبقاء بعض الأشكال الثقافية الموجَّهة لهم تحت وطأة الإنشاء والتلقين وثقافة الذاكرة، بما لا يرقى إلى أهمية مرحلة الطفولة ولا يلبي احتياجاتها المتنامية، ناهيكم عن فقر المكتبات بنتاجات بعض أجناس أدب الأطفال كالرواية والمسرح والمقالة، وقلّة الدراسات والأبحاث التي تتناول موضوعات الطفولة وثقافة الأطفال، وبالتالي القصور في تغطية احتياجات الطفل العربي المعرفية والقيمية والترفيهية.

خلال معاينة بسيطة لهذا الواقع يُلاحظ بوضوح: ندرة المادَّة الثقافيّة الموجَّهة للأطفال التي تُلامس عواطفهم وتوسّع مداركهم ورؤاهم، وضعف الاهتمام بالأعمال ذات المستوى الجيد مضموناً وأسلوباً وإخراجاً، كصحافتهم التي تصقل خبراتهم وقدراتهم الإبداعية، وفنونهم وأغانيهم التي تنمّي في نفوسهم العواطف الإنسانية السامية، إلا أن أكثر ما يحزُّ في النفس قلّة الاهتمام بكتبهم ومكتباتهم وقراءاتهم الثقافية، وهي من الركائز الأساسية لثقافتهم. إضافةً إلى تحديات أخرى كندرة الأدباء والكتّاب والرسّامين والمخرجين والموسيقيين ممن يعملون للأطفال بإخلاص وتفان.

إنَّ ثقافة الطفل العربي تحتاج عموماً إلى خطط منهجية فعّالة وبرامج عمل واضحة، بل إلى استراتيجيات تستند إلى العلم المتطور والمختص؛ وتعمل بأدوات ووسائل تواكب التطورات الحديثة وتهدف بكليتها إلى تنمية هذا المجال والارتقاء به واعتماده كمشروع مستدام تُجنى ثماره مستقبلاً، وذلك من خلال: زيادة نشاط المؤسسات المعنيَّة بالشأن الثقافي الطفلي، وخلق حركة نشطة وفاعلة تدفع لرفع سويّة كل ما يقدَّم أو يوجَّه إليه.

إضافة إلى اعتماد معايير شديدة الوضوح لتطوير أدواتها ووسائلها وأساليبها وتحديثها والارتقاء بها باستمرار، وتصميم برامج ثقافية وتربوية وتعليمية؛ تراعي خصائص الطفل الموجّه له والمجتمع الذي يعيش فيه، وتستثمر تقنيات التكنولوجيا وتطبيقاتها المبرمجة وتستفيد منها في مجالات تثقيفه وتعليمه، خدمةً لهذا المشروع المهم والضروري، وبما يحدُّ من تأثيرات المخاطر المحدقة بالهُويَّة الثقافية للطفل العربي وإرثها القيمي والحضاري والإنساني، ويواجه بثبات انعكاسات الغزو الثقافي ومخاطره.

دار المُوَقِّت في مسجد القرويين (وتتميّز بالنافذة ذات القوسين المزدوجين المطلة على الصحن).

دارُ المُوَقِّت في المغرب

مناراتُ الزمن وعبقريةُ الفلك الإسلامي

علي أبطال

باحث

مركز الترجمة والنشر

الإيسيسكو

لم تكن المساجد الكبرى في الحضارة الإسلامية مجرد فضاءات للعبادة فحسب، بل كانت مؤسساتٍ علميةً متكاملة ينبض فيها الفكر والمعرفة إلى جانب الروحانية. ومن بين أبرز المرافق التي ارتبطت بهذه المساجد عبر التاريخ الإسلامي ما عُرف بـ «دار المُوَقِّت»، وهي فضاءٌ علمي دقيق اضطلع بمهمة تنظيم الزمن الديني واليومي للمجتمع، اعتماداً على علوم الفلك والحساب والهندسة. وفي المغرب، اكتسبت هذه المؤسسة مكانةً استثنائية حتى غدت شاهداً حيّاً على تداخل العلم بالدين، وعلى ازدهار المدرسة المغربية في علم الميقات والفلك.

ارتبط مفهوم الزمن في الحضارة الإسلامية بالعبادة ارتباطاً وثيقاً؛ فالصلاة والصيام والحج جميعها شعائر تقوم على رؤية الأهلة اعتماداً على حساب دقيق لحركة القمر حول الشمس. ومن هنا نشأ علم الميقات باعتباره علماً ضرورياً، لا مجرد فرع ثانوي من علوم الفلك. ومع اتساع رقعة العالم الإسلامي وتنوعه،

> **لم تكن دارُ المُوَقِّت مجرد غرفةٍ في المسجد، بل كانت مرصداً علمياً يُنظّم الزمن ويخدم العبادة بالمعرفة**

تعاظم الاهتمام بعلم الفلك (Astronomia) وعلوم التوقيت، التي أصبحت ضرورية لحساب المواقيت بدقة متناهية. وبدأ الأمر بجهود فردية للعلماء، ثم تطور إلى إنشاء مراصد فلكية كبرى (Observatorium) في بغداد ودمشق ومراغة وغيرها، حيث أُجريت أرصاد دقيقة، ووُضعت جداول فلكية، وصُنعت آلات معقدة.

وفي المغرب، ازدهرت هذه المؤسسة خصوصاً خلال العصر المريني (1244-1465م)، حين بلغت العلوم الرياضية والفلكية شأناً رفيعاً. فقد أولى السلاطين المغاربة اهتماماً بالغاً بالمساجد الجامعة، ليس باعتبارها مراكز دينية فحسب، بل بوصفها جامعاتٍ علمية أيضاً. ومن هنا ارتبطت دور المُوَقِّت بمساجد كبرى مثل جامع القرويين بفاس، والجامع الكبير بفاس الجديد، ومساجد مراكش، وسلا، ومكناس، وتطوان.

ولم تكن دار المُوَقِّت مجرد غرفة ملحقة بالمسجد، بل كانت جزءاً عضوياً من تصميمه المعماري. ففي العديد من المساجد المغربية، كانت هذه الحجرات تطل على صحن المسجد عبر نوافذ مزدوجة مزخرفة بأقواس هندسية أنيقة، تسمح للموقت بمراقبة الظلال وحركة الشمس داخل الفناء. وقد جمعت هذه النوافذ بين الوظيفة العلمية والجمالية، في تجلٍّ واضح لفلسفة العمارة الإسلامية التي مزجت الفن بالعلم.

وكان المُوَقِّت شخصيةً علمية مرموقة تجمع بين الفقيه والفلكي والرياضي. ولم يكن دوره يقتصر على معرفة أوقات الصلاة، بل كان مسؤولاً عن مراقبة حركة الشمس والنجوم، وضبط التقويم القمري، وتحديد بدايات الشهور الهجرية، والإشراف على الساعات المائية والشمسية، إضافة إلى تعليم الطلبة مبادئ علم الفلك والحساب. ولذلك احتل المُوَقِّتون مكانة اجتماعية رفيعة داخل المجتمع المغربي، وكان يُنظر إليهم بوصفهم حراس الزمن الشرعي والعلمي معاً.

وتجلّت أهمية دار المُوَقِّت في عدة أبعاد متكاملة. فمن الناحية الدينية، كان دورها الأساسي ضمان صحة العبادات، إذ لا تصح الصلوات الخمس إلا في أوقاتها المحددة شرعاً، كما أسهم المُوَقِّتون في تحديد مواقيت الصيام والإفطار والأعياد. أما من الناحية العلمية، فقد كانت دار المُوَقِّت بمثابة محطة بحثية ومرصد صغير، تُجرى فيها الملاحظات الفلكية المنتظمة، وتُصحَّح الجداول الزمنية، وتُسجَّل الظواهر السماوية. ولم تكن هذه الدور مجرد أماكن للحسابات الروتينية، بل كانت مراكز لإنتاج المعرفة الفلكية ونقلها، كما مثّلت مدارس غير رسمية يتعلم فيها الطلبة فنون الفلك والتوقيت على أيدي المُوَقِّتين البارعين. وعلى الصعيد الاجتماعي، لم يقتصر دور المُوَقِّت على المسجد، بل كان يُستشار أحياناً في قضايا مدنية تتطلب معرفة فلكية، مثل تحديد مواقيت الزراعة والحصاد وأوقات السفر والتجارة، مما جعله بمثابة خبير فلكي يعتمد عليه المجتمع في شؤون حياته اليومية.

ومن أبرز النماذج التي تجسد هذا الإرث العلمي دارُ المُوَقِّت بجامع القرويين بمدينة فاس، والتي تُعد من أشهر المعالم العلمية في الغرب الإسلامي. فقد احتضنت القرويين، منذ تأسيسها في القرن التاسع الميلادي، علماء كباراً في الفلك والرياضيات، وأسهمت

الساعة الموجودة داخل دار المُوَقِّت في مسجد القرويين.

في تطوير أدوات الرصد والحساب. ومن أشهر ما ارتبط بها الساعة المائية التي نُسبت إلى العالم أبي زيد عبد الرحمن اللجائي في القرن الرابع عشر الميلادي، وهي آلة هندسية معقدة كانت تعتمد على تدفق المياه لتحديد الساعات بدقة مدهشة بالنسبة إلى عصرها.

وقد أشار ابن قنفذ القسنطيني إلى براعة اللجائي العلمية بقوله: «كان اللجائي آيةً في فنونه، ومن بعض أعماله أنه اخترع إسطرلاباً ملصوقاً بالجدار، والماء يدير شبكته، فيأتي الناظر فينظر إلى ارتفاع الشمس، وكم مضى من النهار، وكذلك ينظر ارتفاع الكواكب بالليل». ويعكس هذا الوصف مستوى التقدم العلمي والهندسي الذي بلغه علماء المغرب في صناعة الآلات الفلكية والزمنية.

وقد مثّلت هذه الساعة نموذجاً متقدماً للهندسة الزمنية الإسلامية، إذ كانت تصدر إشارات صوتية أو مرئية عند مرور أجزاء معينة من الليل أو النهار، بما يساعد المؤذن والمصلين على معرفة المواقيت بدقة. ولم تكن هذه الابتكارات مجرد وسائل تقنية، بل كانت تعبيراً عن رؤية حضارية تعتبر الزمن عنصراً مقدساً ينبغي ضبطه بالعلم والانضباط.

وإلى جانب القرويين، برزت معالم أخرى لعبت دوراً مهماً في تاريخ علم الميقات بالمغرب، من بينها برج النَّفّارة (Borj Neffara) بمدينة فاس، الذي ارتبط بالإعلان عن مواقيت الصلاة والسحور والإفطار، خاصة خلال شهر رمضان. وكان صوت النفير الصادر من البرج يمثل جزءاً من الإيقاع اليومي للمدينة، في مشهد يكشف كيف كان الزمن يُدار جماعياً داخل المجتمع الإسلامي التقليدي.

بقايا الساعة المائية على واجهة دار المَكانة في فاس

كما تُعد دار المَكانة (Dar al-Magana) المقابلة للمدرسة البوعنانية بفاس واحدةً من أعظم الشواهد على عبقرية المغاربة في هندسة الزمن. فقد احتوى هذا المبنى على ساعة مائية ميكانيكية معقدة تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وكانت واجهتها تضم ثلاثة عشر تجويفاً ونوافذ صغيرة تتحرك وفق نظام دقيق مرتبط بالمياه والأثقال. ورغم اختفاء الآلية الأصلية للساعة، فإن واجهتها ما تزال شاهدة إلى اليوم على مستوى متقدم من المعرفة التقنية والهندسية في المغرب المريني.

برج النفّارة في فاس

إن المُوَقِّت هو حارس الزمن الشرعي والعلمي، يجمع بين الفقيه والفلكي والرياضي في شخصيةٍ واحدة

ويُعتقد أن دار المُوَقِّت التابعة للجامع الكبير بفاس الجديد، التي شُيّدت نحو سنة 1276م خلال العصر المريني، تُعد من أقدم النماذج المعروفة لهذا النوع من الحجرات العلمية في العمارة المغربية. وقد أصبحت نموذجاً معمارياً اقتُدي به لاحقاً في جامع القرويين وغيره من المساجد الكبرى، مما يدل على وعي الدولة المرينية بأهمية تنظيم الزمن داخل المدينة باعتباره جزءاً من النظام الحضري والديني.

وخلال العصر العلوي، واصلت هذه المؤسسة تطورها وازدهارها. ففي مدينة مكناس شُيّدت دار المُوَقِّت الخاصة بمسجد لا عودة خلال عهد السلطان المولى إسماعيل، بين سنتي 1672 و1678م، ضمن مشروعه الكبير لتحويل مكناس إلى عاصمة إمبراطورية تضاهي كبريات الحواضر الإسلامية. كما شهدت زاوية مولاي إدريس الثاني بفاس توسعات مهمة خلال عهد السلطان نفسه بين 1717 و1720م، شملت دار المُوَقِّت الخاصة بها، التي تميزت باستعمال الرخام المنقول من القصور السعدية بمراكش، ولا سيما من قصر البديع. وقد منح هذا التوظيف الفني والمعماري للدار طابعاً فخماً يعكس هيبة الدولة واهتمامها بالعلم والمؤسسات الدينية.

واعتمد المُوَقِّتون في المغرب على ترسانة من الأدوات الفلكية الدقيقة التي كانت تمثل قمة التكنولوجيا في عصرها. ومن

أبرز هذه الأدوات الإسطرلاب (Astrolabium)، تلك الآلة العجيبة التي تعود أصولها إلى اليونان القديمة، قبل أن يطوّرها علماء المسلمين تطويراً كبيراً حتى غدت بمثابة حاسوبٍ تناظري متعدد الوظائف. فقد استُخدم لتحديد ارتفاع الشمس والنجوم، وحساب أوقات الشروق والغروب، ومعرفة خطوط العرض والطول، وتحديد اتجاه القبلة، فضلاً عن إجراء عمليات فلكية معقدة. وقد جمع الإسطرلاب بين الدقة العلمية والجمال الفني، إذ كان يُصنع غالباً بحرفية عالية من النحاس أو البرونز.

دار المُوقّت التابعة لزاوية مولاي إدريس الثاني، والتي تعود إلى القرن الثامن عشر، ويُميّزها الشباك المزخرف في الطابق العلوي على اليسار، بجوار المئذنة

كما اعتمد المؤقتون على المزولات أو الساعات الشمسية (Horologium Solarium)، التي عُدّت من أهم وسائل قياس الوقت نهاراً، حيث كانت تُثبّت في أفنية المساجد أو على جدرانها لتُظهر الظلال أوقات الصلوات المختلفة وفق الحركة الظاهرية للشمس. واستُعمل أيضاً الربع المجيب، وهو آلة فلكية يدوية لقياس الزوايا والارتفاعات، وقد طوّره علماء المسلمين ليصبح أداة أساسية في الحسابات الفلكية الدقيقة. إلى جانب ذلك، استُخدمت الساعات المائية (Clepsydra)، وهي من الابتكارات الهندسية البارزة التي تعتمد على تدفق المياه لضبط الزمن، خاصة خلال الليل أو في الأيام الغائمة. ومن أشهر نماذجها الساعة المائية التي صممها الفلكي أبو زيد عبد الرحمن اللجائي في القرن الرابع عشر الميلادي. ولم يكن المُوَقّت مجرد مستخدم لهذه الأدوات، بل كان في كثير من الأحيان صانعاً بارعاً ومطوراً لها، مما يعكس المستوى الرفيع الذي بلغته العلوم التطبيقية في المغرب الإسلامي.

ولم يقتصر نشاط المُوَقّتين على المغرب وحده، بل كان ممتداً في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. ففي الدولة العثمانية، ولا سيما في الأناضول، ظهرت مؤسسات مشابهة عُرفت باسم المُوَقّتْخانة (Muvakkithane)، وكانت تُلحق بالمساجد الكبرى في إسطنبول، مثل جامع السليمانية والجامع الأزرق. وقد ضمت هذه الفضاءات علماء متخصصين في الرصد الفلكي وضبط الساعات العمومية، وكانت مجهزة بنوافذ مدروسة الاتجاه لتسهيل مراقبة حركة الشمس والظلال.

> **لم يكن ضبط الوقت في الحضارة الإسلامية عملاً تقنياً فحسب، بل رؤية حضارية تجعل من العلم وسيلة لفهم انتظام الكون**

كما سُجل نشاط المُوَقّتين في بلاد الشام، خصوصاً داخل الجامع الأموي بدمشق، حيث مارس العلماء عمليات الرصد الفلكي ووضع الجداول الزمنية الدقيقة لقرون طويلة. وفي مصر أيضاً، ظل المُوَقّتون حاضرين في المساجد الكبرى حتى القرن التاسع عشر، ولا سيما في الأزهر وجامع السلطان حسن، حيث أشرفوا على الساعات المائية والمزولات الشمسية، وأسهموا في استمرار تقاليد علم الميقات في العالم الإسلامي.

وقد أسهم هذا الامتداد الجغرافي في نشوء شبكة معرفية موحدة جمعت بين علماء العالم الإسلامي كافة، ضمن تقليد علمي قائم على الدقة والرصد والحساب. وهكذا لم تكن دار المُوَقّت مجرد فضاء محلي محدود، بل كانت جزءاً من حضارة إسلامية عالمية جعلت من الزمن علماً قائماً بذاته.

ومع دخول العصر الحديث وظهور الساعات الإلكترونية والتطبيقات الرقمية وأنظمة التوقيت الدقيقة، تراجع الدور التقليدي لدار المُوَقّت، غير أن قيمتها الحضارية والعلمية لم تختفِ. فما تزال بعض هذه الفضاءات قائمة في المغرب وتركيا، شاهدةً على عصر ازدهرت فيه العلوم الدقيقة داخل المساجد، وتعايش فيه الإيمان مع البحث العلمي دون تعارض.

المُوَقّتْخانة («مقرّ المُوَقّت») في آيا صوفيا.

لقد جسدت دور المُوَقّت في المغرب روح الحضارة الإسلامية التي لم تفصل بين العقل والإيمان، بل اعتبرت المعرفة وسيلة لفهم انتظام الكون ودقة الخلق الإلهي. ولذلك فإن هذا الإرث لا يمثل مجرد ذاكرة تاريخية، بل يشكل دليلاً على أن المغرب كان، عبر قرون طويلة، مركزاً من مراكز الإبداع العلمي والفلكي في العالم الإسلامي.

الخبير التربوي د. محمد الدريج :

لا يمكن للتربية أن تبقى بمنأى عن الثورة التكنولوجية

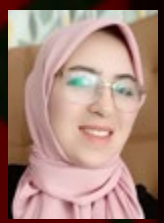

د. خديجة السعيدي
المغرب

تمثل التربية أحد الأبعاد الأساسية في تطوير المجتمعات وبناء الأفراد. وفي هذا الإطار، تتعدد المفاهيم والمقاربات التي تحاول تفسير دور التربية في تشكيل الهوية الفردية والجماعية، فضلاً عن تأثيراتها الاجتماعية والنفسية. وفي هذا الحوار مع الدكتور محمد الدريج، نستعرض مجموعة من الأسئلة التي تسلط الضوء على مفاهيم التربية المعاصرة وأهمية تطورها في عصرنا الحالي. وضيفنا أستاذ سابقا بكلية علوم التربية جامعة محمد الخامس بالرباط وخبير تربوي بعدة منظمات دولية، انكب على البحث التربوي لعقود فأثراه بأفكاره ورؤاه النيرة، وألف عشرات الكتب فصار مرجعا أساسيا في حقل التربية والتعليم، وهو الحاصل على دكتوراة السلك الثالث من كلية العلوم النفسية والتربوية بجامعة بروكسيل سنة 1982 ودكتوراة الدولة في علوم التربية سنة 1993من جامعة مدريد بإسبانيا، يعد من أبرز الخبراء في مجال التربية..

تشكل التربية أهم الركائز التي تعتمدها الشعوب لبلورة وتحديد مشروعها المستقبلي. ويقتضي ذلك أن يقوم هذا المشروع بالضرورة على منظور للإنسان وعلى رؤية للعالم وعلى مفهوم للحياة وتأويل للواقع، بمعنى أن يقوم على فلسفة.

فما علاقة الفلسفة كمجال للتنظير بالتربية كمجال للفعل؟

الفلسفة والتربية مترابطتان بشكل وثيق، حيث تؤثر كل منهما في الأخرى بشكل متبادل. الفلسفة، باعتبارها مجالاً للتنظير والتفكير والتأمل العميق، توفر الإطار النظري الذي تستند إليه التربية في صياغة المرامي والأهداف العامة ومقارباتها. وفيما يلي بعض النقاط التي يمكن أن توضح العلاقة بين الفلسفة كمجال للتنظير والتربية كمجال للفعل.

أولا، تقدم الفلسفة كأساس لرؤية تربوية، منظورات حول ماهية الإنسان ومكانته في العالم وعلاقته بخالقه وكذلك حول طبيعة المعرفة والقيم والأخلاق وبكلمة واحدة تعمل الفلسفة المتبصرة على تشكيل رؤية شاملة للتربية.

فعلى سبيل المثال، الفلسفة الإسلامية المستنيرة، تركز على تنمية الإنسان في جميع جوانبه العقلية والروحية والجسمية وأبعاده الدينية والدنيوية، بدل الانحصار والتركيز على أبعاد وجوانب جزئية مبتسرة، مثل الخدمة للمجتمع أو التطوير الاقتصادي والتفوق المادي.

> **الفلسفة الإسلامية المستنيرة، تركز على تنمية الإنسان في جميع جوانبه العقلية والروحية والجسمية وأبعاده الدينية والدنيوية**

كما نعتقد من ناحية ثانية، أن الفلسفة توفر أدوات لتحليل وفهم الواقع وتقويم مشكلاته بشكل نقدي. مما يسمح للتربية بأن تكون وسيلة لتحرير الأفراد من النمطية والأفكار المسبقة ومن الأطر الفكرية والاجتماعية المبتسرة والتخلص من العادات المتهالكة، وتوجههم نحو التفكير المستقل والنقد المبدع البناء.

ومن ناحية أخرى، فإن الفلسفة كفيلة بتغيير مفهومنا للحياة، باعتبارها تعطي معنى أعمق لحياتنا ولوجودنا، وهذا ينعكس بالضرورة في العملية التربوية

وأخيرا، فإن الفعل التربوي من جهته يمثل التجسيد الفعلي للفلسفة، حيث نعتبر التربية المجال الذي يتم فيه تطبيق الأفكار الفلسفية بشكل عملي منتج.

إن الحديث عن بيداغوجيا المقاربات يستوجب أن نتحدّث عن منظومة تربوية كاملة هدفها التّنشئة السّليمة التي تمسّ الأسرة والمدرسة والمجتمع ككل،

فهل نجحت المنظومات التّربوية في تطبيق المقاربات البيداغوجية في مدارسها؟

البيداغوجيا وعلوم التربية عموما، تركز على كيفية توصيل المعرفة للمتعلمين وإكسابهم الكفايات والمهارات المرغوبة وتنشئتهم تنشئة اجتماعية تتأسس على القيم والمثل السامية. وتعمل لتحقيق ذلك، بفضل مقاربات مواكبة لتطلعات المجتمع وخصوصياته واستراتيجيات متجددة تساير التطورات والمستجدات.

وعند الحديث عن مدى نجاح الأنظمة التربوية في تطبيق المقاربات البيداغوجية في إطار هذا التعريف التركيبي الذي نقترحه، يمكن النظر إلى السؤال عن مدى نجاح منظومات التربية والتعليم من عدة جوانب. فقط تجدر الإشارة، قبل استعراضها، إلى اختلاف الدول بما فيها الإسلامية، في تحديد أولوياتها بخصوص تلك الجوانب وأسلوب تطبيق مقتضياتها وتقييم مدى نجاحها

في تقديركم دكتور وفي ظل التغيير الكبير الذي طرأ على نمط الحياة عامة أيّ المقاربات التربوية كانت أكثر نجاعة في العملية التّعليمية؟

وهل تحتاج علوم التّربية اليوم إلى إعادة نظر في طرقها العامة والخاصة؟

مع التغيرات الكبيرة التي طرأت على المجتمعات وعلى نمط الحياة عموما وما رافقها من مشاكل وأزمات، ومع العولمة والتحول الرقمي وكل ما يندرج تحت ما يعرف بالثورة الصناعية الخامسة، وبالتحديات التي أصبح يمثلها الذكاء الاصطناعي المنتج و"المفكر"، تصبح بعض المقاربات التربوية، في نظرنا، أكثر نجاعة في تحقيق أهداف التعليم المستجدة. من بين هذه المقاربات، أذكر على سبيل المثال وليس الحصر:

- التعليم التعاوني Collaborative Learning:
- التعليم القائم على المشاريع Project-Based Learning:

البيداغوجيا وعلوم التربية عموما، تركز على كيفية توصيل المعرفة للمتعلمين وإكسابهم المهارات وتنشئتهم تنشئة اجتماعية تتأسس على القيم السامية

- التعليم الرقمي Digital Learning:
- المقاربة المتمحورة حول المتعلم. Learner-Centered Approach
- التعليم المستند على القيم Value-based Approach... وغيرها.

أما الشطر الثاني من سؤالكم المهم: "هل تحتاج علوم التربية اليوم إلى إعادة نظر؟ أجيب فورا: نعم، هناك حاجة ملحة لإعادة النظر في جوانب عديدة من علوم التربية لمواكبة التغيرات الراهنة، ونقترح أن تستند إعادة النظر هذه على المبادئ الأساسية التالية:

1. الدمج بين النظرية والتطبيق: يجب أن يتم إعادة النظر في كيفية تطبيق النظريات التربوية التقليدية في سياقات التعليم الحديثة، حيث يمكن أن تساعد البحوث التطبيقية في تكييف هذه النظريات وخلق نظريات ونماذج جديدة وأصيلة وملائمة، تتخلص من النقل والتبعية، نظريات تتولد من ظروف التطبيق والخصوصيات مع مراعاتها للسياقات المتجددة باستمرار.
2. تعزيز التعليم الذي يستهدف المهارات الشخصية والحياتية:

فمع زيادة الضغوطات النفسية والاجتماعية، على الأفراد كما على الجماعات، تحتاج علوم التربية إلى تعزيز دورها في تطوير مهارات الوعي الذاتي والتواصل العقلاني والوجداني والاجتهاد في مواجهة الوضعيات المشكلة...

3. الشمولية والمرونة: ينبغي على علوم التربية أن تكون شاملة تأخذ في الاعتبار تنوع الثقافات والخلفيات، وتكون مرنة بما يكفي لتتوافق مع الاحتياجات المتغيرة للمجتمعات المختلفة.

لا تستطيع التربية أن تعزل نفسها عن روح الثورة التكنولوجية وأساليبها، وقد دأبت على التفاعل مع كل جديد بالقدر الذي تسمح به طبيعتها وطبيعة موضوعها الذي هو الإنسان، فإلى أي حد ساهمت تكنلوجيا التربية والتعليم في التقدم بالحقل التربوي نحو الازدهار وما هي آثارها السالبة عليه؟

العملية التعليمية والتربوية عموما، لا يمكن أن تكون بمنأى عن تأثيرات الثورة التكنولوجية الحالية، حيث أن التكنولوجيا أصبحت جزءًا لا يتجزأ من جميع القطاعات بما فيها التعليم، وتساهم بشكل كبير في تقدم مختلف الحقول وفي طليعتها الحقل التربوي وازدهاره بعدة طرق، منها:

- توسيع نطاق الوصول إلى التعليم: التكنولوجيا والرقمية منها بخاصة، سمحت بتوفير الموارد التعليمية عبر الإنترنت، مما جعل التعليم من حيث المبدأ، متاحًا للجميع بغض النظر عن الموقع الجغرافي.
- تحسين جودة التعليم: الأدوات التكنولوجية مثل العروض التقديمية التفاعلية والمحاكاة والواقع الافتراضي والواقع المعزز والميتافيرس ...، تساعد في تعزيز الفهم العميق للموضوعات المعقدة. فأصبح التعليم التفاعلي والتعليم عن بعد أكثر فعالية من الأساليب التقليدية.
- تفريد التعليم: من خلال استخدام البيانات المتوفرة رقميا وبالذكاء الاصطناعي، أصبح بالإمكان تخصيص التعليم وتفريده وفقًا لاحتياجات كل تلميذ على حدة. ويمكن تحديد نقاط القوة والضعف لديه وتوفير محتوى ملائم يلبي احتياجاته التعليمية.
- تعزيز التعاون والتفاعل: وسائل التواصل الاجتماعي، والمنصات التعليمية عبر الإنترنت والتطبيقات التعاونية والشبكات الاجتماعية (الواتساب مثلا) تساهم في تسهيل التواصل والتفاعل بين التلاميذ والمعلمين، وكذلك بين التلاميذ أنفسهم، مما يعزز من فرص التعلم الجماعي والتفاعل الفعّال.

بطبيعة الحال، لا ينبغي أن تنسينا هذه الإيجابيات بعض الصعوبات والسلبيات في توظيف التكنولوجيات الحديثة، منها:

- الفجوة الرقمية
- تأثيرات سلبية على التركيز والانتباه
- قضايا الخصوصية والأمان
- ثم إن الإدمان (على الهاتف النقال مثلا) والاعتماد المفرط على التكنولوجيا يؤدي إلى تراجع المهارات الأساسية مثل التفكير النقدي وحل المشكلات بدون مساعدة رقمية.

وباختصار، التكنولوجيا في مجال التربية والتعليم جلبت معها الكثير من الفوائد والفرص، لكنها أيضًا جاءت بتحديات تتطلب إدارة فعالة لضمان عدم طغيان الآثار السلبية على الإيجابيات.

وهنا لا بأس من التذكير بما قامت به منظمة الإيسيسكو من مبادرات في هذا الإطار، حيث أبرمت اتفاقيات دولية وأطلقت

العديد من البرامج وعقدت لقاءات ومؤتمرات، أذكر منها على سبيل المثال، الندوة الهامة التي نظمتها في نوفمبر من سنة 2022، على مدى يومين، عبر تقنية الاتصال المرئي. تمحورت حول" مستقبل استراتيجيات التدريس في ضوء مستجدات العصر"، وقد شاركت شخصيا فيها إلى جانب وزراء التربية والتعليم في عدد من الدول، وخبراء وشخصيات دولية بارزة في المجال، أكدوا جميعا على أهمية إبراز وتوظيف استراتيجيات التدريس الحديثة وفي مقدمتها اعتماد الرقمنة والذكاء الاصطناعي والوقوف على اتجاهاتها الجديدة بما يساير ويتلاءم مع التطورات والتحديات. كما ركزت على دعم الدول الأعضاء في تطوير أنظمة تعليمية تراعي الفروق الفردية بين المتمدرسين، باستخدام التكنولوجيا لتوفير تعليم مخصص وتفريده ليلبي احتياجاتهم.

كما تعمل الإيسيسكو على توسيع الوصول إلى التعليم من خلال منصاتها الإلكترونية ومبادراتها الرقمية فضلا عن منشوراتها الورقية المتعددة، مما يمكن الدول الأعضاء من الاستفادة من موارد تعليمية متنوعة بغض النظر عن البنية التحتية المحلية.

تبذل الجهات الرسمية ومنظمات المجتمع المدني والهيآت الدولية كاليونسيف والإيسيسكو واليونسكو، جهودا حثيثة لتمكين تعليم الفتيات.

كيف يمكن تعزيز هذه الجهود خاصة فيما يلي تعليم الفتيات في القرى والأرياف؟

فعلا تبذل جهود كبيرة محليا وعالميا وعلى مختلف المستويات الرسمية وغير الرسمية، قصد تمكين الفتيات من التعليم وبخاصة في القرى والمناطق النائية ورفع الحيف عنهن وتمكينهن اقتصاديا واجتماعيا. وإذا توقفنا عند نماذج من تلك الجهود نستعرضها بنفس الترتيب الذي وردت به في سؤالكم، نقول:

- على المستوى الرسمي، قامت الحكومة المغربية باتخاذ العديد من البرامج والتدابير لتعزيز تعليم الفتيات، خاصة في المناطق القروية، بهدف تحقيق المساواة بين الجنسين في التعليم وتحسين معدلات الالتحاق المدرسي. ومن بين هذه الجهود:
- المبادرة الوطنية للتنمية البشري والتي أطلقها المغرب عام 2005 بهدف محاربة الفقر وتحسين الظروف المعيشية في المناطق القروية والمهمشة.
- برنامج تيسير ويعد واحداً من أهم البرامج الحكومية لدعم تمدرس الفتيات والفتيان في المناطق القروية. ويوفر هذا البرنامج مساعدات مالية للأسر الفقيرة لتشجيعها على إرسال الأطفال إلى المدرسة وتخفيف الأعباء الاقتصادية التي قد تعيق استمرارهم في التعليم.
- تطوير البنية التحتية المدرسية في القرى: كما قامت الدولة بزيادة عدد المدارس الداخلية في المناطق النائية، وتوفير وسائل النقل المدرسي للتلاميذ الذين يواجهون صعوبات في الوصول إلى المؤسسات التعليمية.
- البرامج التحسيسية والتوعوية ومحاربة الزواج المبكر
- كما تبذل منظمات المجتمع المدني جهودا حثيثة لتمكين الفتيات من الحصول على التعليم

ينبغي على علوم التربية أن تكون شاملة تأخذ في الاعتبار تنوع الثقافات والخلفيات، وتكون مرنة بما يكفي لتتوافق مع الاحتياجات المتغيرة للمجتمعات المختلفة

- وتتضمن جهود المنظمات الدولية بشكل عام، السعي إلى إزالة العوائق التي تمنع الفتيات من الالتحاق بالمدارس، مثل الفقر وما يرتبط به (اشتغال الفتيات في المنازل والحقول) العادات الاجتماعية (تزويج القاصرات...) والتي تقلل من أهمية تعليمهن وضعف بنيات مؤسسات الاستقبال، المسافات الطويلة إلى المدارس، ضعف المواصلات وغيرها من الأسباب.

فاليونيسف UNICEF على سبيل المثال، تلعب دورًا كبيرا في تعزيز تعليم الفتيات في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك المناطق القروية والفقيرة. ومن الأمثلة العملية عن جهودها في هذا الصدد:

- برنامج العودة إلى المدرسة في باكستان؛
- مبادرة تعليم الفتيات في النيجر؛
- مشروع المدارس الآمنة في سوريا؛
- برنامج التعليم البديل في جنوب السودان؛
- المدارس المتنقلة في الصومال؛
- برنامج تعليم الفتيات في أفغانستان... وغيرها.

كما تلعب اليونسكو UNESCO دورًا حيويًا في تعزيز تعليم الفتيات، خاصة في المناطق القروية والنائية والمهمشة مثل :

- برنامج الشراكة العالمية لتعليم الفتيات والنساء؛
- مبادرة التعليم للجميع؛
- برنامج المدارس الصديقة للفتيات؛
- البرامج الخاصة بالتعليم في حالات الطوارئ؛
- برامج التوعية المجتمعية؛
- برامج تطوير المناهج التعليمية... وغيرها.

وبالنسبة لمنظمة الإيسيسكو ISESCO فهي تلعب أدواراً هامة في تعزيز تعليم الفتيات، خاصة في الدول الأعضاء وبصفة أخص تلك التي تسود فيها العديد من المناطق القروية النائية والمهمشة. وتعمل بالتعاون مع الحكومات والمنظمات المحلية والدولية لتحسين فرص تعليم الفتيات في هذه المناطق.

وفيما يلي بعض الأمثلة البارزة عن جهودها في هذا الصدد:

- مبادرة "تمكين الفتيات من التعليم" في إفريقيا؛
- برنامج "تعليم الفتيات في مناطق النزاعات"؛
- برنامج "التعليم من أجل الجميع" في آسيا الوسطى؛
- مشاريع التعليم المهني والتقني للفتيات؛
- دعم تعليم الفتيات في فلسطين... وغيرها

"نحن أميون في التعامل مع ظاهرة الأمية"، عبارة عرفت عنك في سياق الحديث الصادم عن نسب الأمية في العالم العربي والإسلامي؛

هل تعتقد أن منظمات المجتمع المدني تستطيع أن تكون رأس الرمح في عملية القضاء على الأمية؟ أم تراها شأن تربوي تعليمي يجب أن تنهض به مؤسسات التعليم؟

فعلا توجد وضعية صادمة في العديد من الدول العربية والإسلامية بخصوص انتشار الأمية ، ويشير "التقرير الاقتصادي العربي الموحد"، الصادر عن صندوق النقد العربي ، إلى أن نسبة الأمية قدرت سنة 2022 ، بين البالغين 15 سنة وما فوق في

الدول العربية، بنحو 24,6 في المئة وهي بذلك تفوق مثيلاتها في جميع الأقاليم في العالم، باستثناء إفريقيا جنوب الصحراء، حيث بلغت نحو 33,9 في المئة. وهكذا فإن حوالي ربع سكان الوطن العربي ما زالوا محرومين من التعليم ومواصلة التعلم.

وقال التقرير، الذي نشرته وكالة الأنباء الإسلامية الدولية (إينا)، إن معدلات الأمية في العالم الإسلامي حاليا، تتراوح بين 40 في المائة بين الذكور و65 في المائة بين الإناث، وأن نسبة الأمية في البوادي والأرياف تزيد عنها في المدن والحواضر بما يزيد عن 10 في المائة، مما يشكل معضلة كبيرة تعوق التنمية، وتؤثر إلى حد بعيد في إضعاف قدرات المجتمع على النهوض، وبناء الاقتصاد القوي المتنامي وتحقيق الأهداف الإنمائية للألفية.

كما أن وضعية الأمية في المغرب لا تزال تمثل تحديًا كبيرًا، رغم التحسن الملحوظ خلال العقود الأخيرة. ووفقًا لإحصائيات عام 2021، بلغ معدل الأمية حوالي 32 في المائة بين البالغين (15 سنة فما فوق)، مع تفاوت ملحوظ بين الجنسين والمناطق (أعلى في المناطق القروية وبين النساء).

العبارة التي أشرتم إليها:" نحن أميون في التعامل مع مشكلة الأمية"، تعكس بالفعل واقعًا صعبا ومعقدا حول كيفية تعامل المجتمعات وأنظمة التربية والتكوين، مع مشكلة الأمية، وهو أمر يتطلب تحليلاً عميقاً للأدوار المختلفة التي يمكن أن تلعبها المؤسسات المختلفة وخاصة المجتمعات العلمية والهيئات المسؤولة عن محاربة الأمية، في فهم وتشخيص أسباب الظاهرة ومعالجتها.

وتعكس هذه القولة فكرة عميقة تتعلق بعدم فهمنا الكامل وضعفنا لمعالجة جذور هذه المشكلة بشكل فعّال. ذلك أن الأمية ليست مجرد عدم القدرة على القراءة والكتابة، بل هي جزء من سلسلة تحديات اجتماعية واقتصادية وثقافية.

بالتالي، هذا التصريح يحمل نقدًا عميقًا يدعو إلى إعادة التفكير في منهجية محاربة الأمية بشكل أشمل وأكثر دقة، تركز على أسبابها الجذرية وتستهدف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بجانب التربوية واعتماد نتائج الدراسات العلمية حول الظاهرة. كما تتضمن هذه القولة الإشارة إلى العديد من النقائص، منها:

- القصور في التخطيط والتنسيق.
- التركيز على الحلول السطحية
- نقص الوعي المجتمعي
- الافتقار إلى الاستدامة.

أعتقد أن المشكلة عامة وتحتاج إلى تظافر جهود الجميع. وبالفعل ذلك ما نلاحظه فهناك برامج حكومية رسمية وأخرى تسهر عليها منظمات المجتمع.

قصائد

وهم الكتابة

أُسلّي النهار بأغنية
وأبالغ كالشّاعراتِ
بتلميع أرض الكلامِ
وأخفي الحديقة والبيت
في الشارع الجانبيّ
من الغيم والغيبِ
في الرأسِ
في الطابق الألفِ
أبعدَ
أبعدَ...
بيتي بعيدٌ
ولا تصل الشمس بيتي
ولا أتشمّسُ
يُسمَع صوتُ بكاء الأثاثِ
يُرى قطعٌ من غسيل تطيرُ
وعصفورة تتأرجحُ
فوق حبال الغسيل
يُشمّ خليطٌ
من الليل والعطر
قد يتسلّلُ سرّا
ولم يدخل البيت
من ألف عام
ذبابةْ
ومن ألف عامٍ
ومنذ بدأت الكتابةْ
أطارد وهم الكتابةْ

نُدبة

نُدبةٌ في جَبيني
تُذكّرني دائماً
أنَّ للحبّ أسماءَ أخرى
وسهوًا أمد يديّ إليها
وتسقط في الشِّعرِ
سهوًا
وتسقط فيه يدايْ
أنا ما جناهُ
عليّ حبيبي من الأغنياتِ
أنا ما جنيتُ من الحُبّ
في سلّةٍ حملتْها الحياةُ
على مَحملِ الكلماتِ:
التقيتُك في خللٍ واضحٍ
فعرفتُ
صوابَ رؤايْ
ذلك الماء حولي
غرزتُ أظافرَ يابسةً
كي يفجّ من الموتِ
لولا القصيدُ لعشتُ طويلاً
ولولا التي تجعل الهذيان
بيوتًا
وتسكن فيها
لكنتُ سوايْ

تفاصيل

تسقط منكِ تفاصيلُ
في هامش النصّ
قد تتركين بيوتًا بسُكّانها
وغسيلًا
تعلّقه الأمهاتُ بأهدابهنّ
يطير كأحلامهنّ
وتنسين أنك خرقاء في الحبّ
إذ تكتبين عن الحبّ
كم شارع في القصيدة
لم تعبريهِ
وكم عبرتْكِ شوارعُ
لم تكتبيها
كتبتِ،
لأنَّ المسافةَ واضحةٌ
في القصيدةِ
بين الدموعِ
وبين عيونِكِ
ما زلت لا تتقنين البكاءَ
ولا تعرفين سماءً
سوى الشعر كي تذرفيهِ
وكي تذرفيها
لأنك وحدك في الجُبّ
لا تمسكين الحِبالَ
وتنتظرين الظّلالَ
التي ستليها
لأنكِ وحدكِ

د. مها العتوم

شاعرة
وأكاديمية

عضو ملتقى
الإيسيسكو
للشاعرات

الأردن

غايات التعليم في ضوء أهداف التنمية المستدامة وما بعدها

من رأس المال البشري إلى ازدهار الإنسان

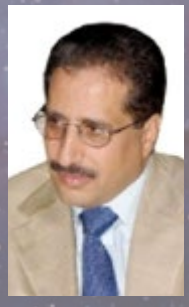

أ.د. عبد السلام الجوفيّ
مكتب التربية العربيّ لدول الخليج
اليمن

أصبح التعليم القضية الأبرز في تشكيل ملامح المستقبل وصياغة اتجاهاته . فالدول التي أدركت تحولات العصر لم تعد تنظر إلى التعليم بوصفه خدمة عامة، بل استثماراً استراتيجياً في الإنسان، ومحركاً رئيساً للتنمية والاستقرار والتنمية.

وفي هذا السياق ، أكدت الأمم المتحدة من خلال أجندة 2030 للتنمية المستدامة أن التعليم يمثل حجر الزاوية في تحقيق التنمية ، وهو ما تجسده بوضوح غايات الهدف الرابع من أهداف التنمية المستدامة الداعية إلى تعليم شامل وعادل وجيد، وتعلم مستمر مدى الحياة. غير أن التحولات المتسارعة التي يشهدها العالم اليوم تكشف أن هذا الهدف، رغم أهميته، لم يعد كافياً بصيغته الحالية.

فالعالم يواجه تحديات معقده: تسارع تقني، أزمات بيئية، فجوات اجتماعية، وأزمة هدف يعيشها كثير من الأفراد، خاصة الشباب. وفي ظل هذه التحديات، برز توجه دولي جديد يدعو إلى إعادة تعريف غايات التعليم، بحيث لا تقتصر على إعداد الأفراد لسوق العمل، بل تمتد إلى بناء إنسان قادر على التكيف والإسهام، والعيش بوعي ،وسلام، وأمان.

وفي هذا السياق، يقدّم إطار "التعليم من أجل ازدهار الإنسان" الصادر عن منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية تصوراً متقدماً لغايات التعليم، يتجاوز مفهوم رأس المال البشري إلى مفهوم أوسع وأكثر إنسانية. فالتعليم وفق هذا التصور ينبغي أن يهدف إلى تنمية الإنسان بصورة كليه لا في بعده الاقتصادي فقط، من خلال بناء قدراته المعرفية ومهاراته العملية وقيمه الأخلاقية.

> **تشير الأدبيات الحديثة إلى أن كثيراً من الأفراد يعانون من فراغ وجودي رغم توفر الفرص**

هذا التحول يعيد صياغة السؤال المحوري: ما معنى أن يكون الإنسان متعلماً؟ ولم يعد الجواب مرتبطاً بحجمّ المعرفة التي يمتلكها، بل بقدرته على توظيفها وعلى فهم العالم من حوله والتفاعل معه بوعي ومسؤولية. فالتعليم اليوم مطالب ببناء عقل مفكر وإنسان مبدع ومواطن فاعل .

وفي هذا السياق تحدد مجموعة من الغايات الرئيسة للتعليم المعاصر. في مقدمتها تنمية القدرة على التفكير العميق وحل المشكلات المعقدة في عالم تتغير فيه المعارف بسرعة . وثانيها بناء المهارات الحياتية التي تمكّن الفرد من العمل والتكيف في بيئات متغيرة حيث لم تعد الوظائف ثابتة ولا المسارات المهنية مستقرة.

أما الغاية الثالثة وهي الأعمق فتتمثل في بناء منظومة القيم. فالتعليم لم يعد محايداً، بل أصبح مسؤولاً عن ترسيخ الأخلاق وتعزيز النزاهة وتنمية الحس بالمسؤولية تجاه الذات والمجتمع والإنسانية. وفي عالم يشهد تحديات تهدد القيم والتماسك الاجتماعي يصبح التعليم خط الدفاع الأول عن استقرار الافراد والمجتمعات.

وتأتي الغاية الرابعة تمكين الإنسان من فهم العالم في تنوعه، والتعامل مع اختلافاته، وبناء جسور الحوار والتعايش. فالتعليم هنا ليس مجرد نقل للمعرفة، بل أداة لبناء وعي عالمي منفتح وقبلها وطني ومجتمعي .

> **المرحلة القادمة تتطلب نظاماً تعليمياً أكثر إنسانية ومرونة يوازن بين المعرفة والقيم**

الرؤية الحديثة للتعليم تتمثل في التركيز على الهدف والغاية . إذ تشير الأدبيات الحديثة إلى أن كثيراً من الأفراد يعانون من فراغ وجودي رغم توفر فرص التعليم والعمل. ومن هنا يصبح التعليم مطالباً بمساعدة الإنسان على اكتشاف غايته، وتحديد دوره، والشعور بقيمة ما يقوم به. وهو ما تقوم به المواد الإنسانية الاجتماعية كافة من لغة وتربية دينية وفلسفة وعلم اجتماع وتاريخ وتربية قيميه وهو مالا تستطيع الآلة والتقنية القيام به.

ومع اقتراب أفق 2030، تتجه الأنظار إلى ما بعدها، حيث يبرز دور اليونسكو من خلال إطار "مستقبل التعليم (Futures of Education) الذي يدعو إلى إعادة تصور التعليم بوصفه عقداً اجتماعياً جديداً. ويقوم هذا التوجه على مبادئ أساسية من أبرزها:

- التعليم من أجل الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية
- تعزيز التعلم التعاوني والتشاركي
- بناء علاقة متوازنة مع الطبيعة والاستدامة
- تمكين المتعلمين من المشاركة في تشكيل مستقبلهم

وهذا يعكس تحولاً عميقاً: من تعليم يُعدّ الأفراد للتكيف مع الواقع إلى تعليم يمكّنهم من الإسهام في إعادة تشكيل هذا الواقع.

إن المرحلة القادمة تتطلب نظاماً تعليمياً أكثر إنسانية ومرونة يوازن بين المعرفة والقيم، وبين الكفاءة والمعنى، وبين الفرد والمجتمع وبين الممكن والمتاح. فالتحدي لم يعد في مواكبة التغير، بل في القدرة على قيادته.

ختاماً يمكن القول إن غايات التعليم في عصر ما بعد 2030 تتمحور حول بناء الإنسان المتكامل: عقلاً، ومهارة، وقيمة، ووعياً. إنسان قادر على التفكير والإبداع، وعلى التعايش والمسؤولية، وعلى البحث عن المعنى وصناعته. وبقدر ما تنجح الأنظمة التعليمية في تحقيق هذا التحول، بقدر ما تقترب المجتمعات من تحقيق تنمية مستدامة حقيقية، قائمة على الإنسان، ومن أجل الإنسان.

إجازة الخطّ

عثمان شوقي لتلميذه الخطّاط: حسين عاصم

للمزيد

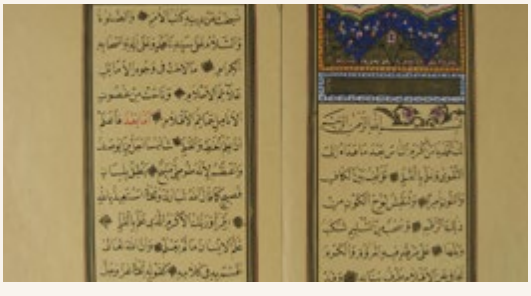

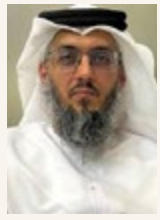

عادل عبد الرّحيم العوضي

كاتب وباحث

الإمارات

للإجازة أثر كبير في حياة الخطّاطين، وكان الخطّاطون يُجيز بعضهم بعضا في كتابة الخطّ وإتقانه شأنهم في ذلك شأن الذين كانوا يتقنون العلوم والمعارف الأخرى، وكانت الإجازة موضعَ اهتمامهم وذلك للاتّصال بالأصول الأولى لهذا الفنّ، وحرصهم على الانتساب إلى أقطابه، ويُعرَف عندهم بـ (السَّنَدِ)، الدَّال على تواصل أخذ بعضهم الخطّ عن بعض، تعليمًا مباشرًا أو غير مباشر من خلال تقليد أعمال كبار الخطّاطين، وتتّضح هذه العلاقة بين التّلميذ والأستاذ من خلال الإجازة التي يمنحها إيّاه، وبها تتّبع للتّلميذ والأستاذ وأساتذته على مرّ السّنين حتّى يصل السّند إلى الحسن البصريّ -رحمه الله- الذي أخذ الخطّ عن عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-. ومع هذا نجد فجوات وانقطاعاً في سند إجازات الخط، وذلك أن المذكورين في السند غالباً يقتصر فيه على الخطاطين المشهورين، الذين وقع الإجماع على قدرتهم الفنية واشتهروا بذلك في الآفاق.

ومع أنّ إجازات الخطّاطين تُمثّل جانبًا مهمًّا في موضوع الإجازات، لكنّها لم تلق العناية اللّازمة والمكانة اللّائقة في مصادر التّراث العربيّ الإسلاميّ ومراجعه، ولم يلتفت إليها الباحثون مثلما التفتوا إلى الإجازة في علم الحديث والرّواية واللّغة والفقه وغيرها من العلوم، وأغلب إجازات الخطّاطين تكون في لوحة واحد يكتب فيها الطّالب بخطّه متنًا بالثّلث والنّسخ -غالبًا- ثمّ يكتب الأستاذ تحته بخطّ الإجازة نصًّا يُجيز فيه لكاتبه ويدعو له بالخير، ويذكر أنّه فلان من تلاميذ فلان، ومنها ما يكون على طريقة الإجازات في العلوم الأخرى ويذكر فيه السّند.

خطاط

ومنها إجازة الخطّاط: عثمان شوقي لتلميذه:حسين عاصم، والمحفوظة في المكتبة السّليمانية ضمن مجموعة (يازما باغشلر) برقم (5249) وهي مكتوبة بخطّ النّسخ، وتحمل خاتم المُجاز في آخرها، ونصّه (حسين عاصم 1309).

ترجمة المُجيز والمُجاز

لم تُسعفنا كتب التّراجم، والكتب الخاصّة بتراجم الخطّاطين بترجمة لهما، وكلّ ما بين أيدينا استنادًا إلى تاريخ الإجازة بأنّهما من أهل القرن الثّالث عشر الهجريّ.

وكذلك الحال في مجموعة من الأعلام المذكورين في الإجازة محلّ الدّراسة لم أقف لهم على ترجمة، ومن وقفت له على ترجمة أحلت في الهامش إلى مصدر ترجمته.

نصّ الإجازة

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمَ

لَكَ الحَمْدُ يا مَنْ أَكرَمَ النّاسَ بَعْدَمَا ... هَـدَاهُ إلى التَّقْـوى وَعَلَّـم بالقَلَـمِ

تُؤَلِّفُ بَيْنَ الكافِ والنُّـــونِ آمِـــرًا ... وَتُنْقِشُ لَوْحَ الكَوْنِ مِنْ ذلِكَ الرَّقَمْ

وسُحْبٌ مِنَ التَّسْليمِ تَسْكُبُ وَبْلَها ... على مَرْقَدٍ فيـهِ المُـرُوَّةُ والـكَرَمْ

تُجافي عَنِ الأَقْلامِ طَـرفَ بَنَـانِهِ ... وَقَدْ نُسِخَتْ عَنْ دِينِهِ كُتُبُ الأُمَمْ

والصَّلوةُ وَالسَّلامُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ الكِرامِ، مَا لاحَتْ في وُجُوهِ الأَمَائِلِ عَلائِمُ الأَحلامِ، وَنَاحَتْ مِنْ غُصُونِ الأَنامِلِ حَمَائِمُ الأَقلامِ، أَمَّا بَعْدُ فاعْلَمْ أَنَّ عِلْمَ الخَطّ وَالقَلَمِ شأْنُهُما(5) أَجَلُّ مَمَّا يُوصَفُ وأَعظَمُ لأَنَّهُ طُوطِيٌّ مَليحٌ، يَنْطِقُ بلِسَانٍ فَصيحٍ كما قال اللّهُ تبارك وتعالى، أسْتَعيذ بالله: (اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الْأَكْـرَمُ* الَّـذِي عَلَّـمَ بِالْقَلَمِ عَلَّـمَ الْإِنسَانَ مَا لَـمْ يَعْلَـمْ)(6) وأَنَّ اللّه تعالى أَقْسَمَ بِهِ في كَلامِهِ، كقَوْلِهِ تعالى عَزَّ وجَلَّ، أستَعيذُ باللهِ(7) (ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)(8)(إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ)(9)(الَّقَـوْمِ يَعْقِلُـونَ)(10)، وقال النّبيّ ﷺ في حقّه «مَنْ كَتَبَ بِسْمِ اللّهِ الرحْمَنِ الرحِيمِ فحَسَّنَهُ أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْهِ»(11) ، وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «مَنْ كَتَبَ بِسْمِ اللّهِ الرحْمَنِ الرحِيمِ وَجَوَّدَهُ غَفَرَ اللّهُ لَهُ» صَدَقَ رَسُولُ اللّهِ.

وقال عَلي -كَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهُ وَرَضِيَ اللّهُ تَعَالى عَنْهُ-: (عَلَيْكُمْ بِحُسْنِ الخَطِّ فَإِنَّهُ مِنْ مَفَاتِيحِ الرِّزْقِ) (12) وقيلَ: (هُو نِصْفُ العِلْمِ)، ومِنْ سَعَادةِ المَرْءِ أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الخَطِّ وفصيحَ العِبارةِ، وقالَ ياقُوتُ المُسْتَعْصِميّ: (الخَطُّ الحَسَنُ للفَقيرِ مَالٌ وللغَني كَمَالٌ وللأَميرِ جَمَالٌ).

فعَلى هذا قَدْ تَلَمَذَ وَتَعَلَّم مِنّا رافِعُ هذِهِ الوَثيقَةِ المُباركَةِ ( ) وبَاعثُ هذِهِ الجَمْعِيَّةِ الخَيْرِيَّةِ ( )/ حُسين عَاصِم لَمَّا اكتَسَبَ أصولَ الخَطِّ التَمَسَ مِنَّا الإجازَةَ لوضعِ الكَتَبةِ تَحْتَ كِتابتِهِ كمَا جَرَتِ العادَةُ فجَمَعْتُ الكُتَّابَ الكَائنينَ في بَلَدِنا هذا فحَسَّنُوا وأجازُوهُ بِذلِكَ فَسَلَكَهُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ أحْسَنَ المَسَالِكِ فأذِنْتُ لَهُ وأَجَزْتُ بِأَنْ يَكْتُبَ الكَتَبَةَ تَحْتَ كِتَابَتِهِ كَمَا أَذِنَ لي أُسْتاذي مُحَمَّد وَهْبي أفنْدي، وهُوَ أَخَذَ عَنِ المَرْحُومِ المَغْفُورِ مُحَمَّد عَوْني أَفَنْدي، وهُوَ أَخَذَ عَنْ أَبي بَكْرٍ الحامِدِ أَفَنْدي، وهُوَ عَنْ مُحَمَّدٍ تَيْمورٍ الكَمَالي أَفَنْدي، وهُوَ عَنْ فيض الله المنير أَفَنْدي( )، وهُوَ عَنْ مُصْطَفى أَفَنْدي، وهُوَ عَنْ مُحَمَّد أَفَنْدي، وهُوَ عَنْ إِبْراهِيم أَفَنْدي، وهُوَ عَنْ قُوجَه إِسماعيل أَفَنْدي، وَهُوَ عَنْ دَرْويش عَليّ أَفَنْدي( )، وهُوَ عَنْ خَالِدِ أَفَنْدي( )، وهُوَ عَنْ مُحَمَّد أَفَنْدي، وهُوَ عَنْ دَرْويش مُحَمَّد أَفَنْدي( )، وهُوَ عَنْ أبيهِ مُصْطَفى دَه دَه( )، وهُوَ عَنْ والِدِ ماجِدِهِ المَرْحُومِ المَغْفُورِ قُطْبِ الكُتَّابِ في الآفاقِ أُسْتاذِ الكُلّ على الإطلاقِ شَيْخِ طَريقِنا وپيرِنا حَمْدِ اللّهِ المَعْرُوفِ بابْنِ الشَّيخِ الأَماسّي( )، وهُوَ عَنْ خَيْرِ الدينِ المَرعشّي( )، وهُوَ عَنْ عَبْدِاللّهِ الصَّيْرَفي( )، وهُوَ عَنْ قِبْلَةِ الكُتَّابِ جَمالِ الدِّينِ المُشْتَهِرِ بِياقُوتِ المُسْتَعْصِمّي( ) ، وَهُوَ عَنْ أَبي حَسَنٍ عَليّ بْنِ هِلالِ البَغْدادِيّ المَعْروفِ بابْنِ البَوَّابِ( )، وهُوَ عَنْ أبي عَلِيٍّ المُشْتَهِرِ بِابْنِ مُقْلَةَ الوَزيرِ( )، وهُوَ عَنْ رئيسِ مَشايخِ الصُّوفِيَّةِ حَسَنِ البَصْريّ قَدَّسَ اللّهُ سِرَّهُ العَزِيز، وَهُوَ عَنْ أَسَدِ اللّهِ الغالِبِ عَليّ بْنِ أَبي طالِبٍ -كَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهُ وَرَضِيَ اللّهُ تَعَالى عَنْهُ- وَسائِرِ أَنْجُمِ الهُدى وَمَصَابِيحِ الظلام أَصْحابِ رَسُولِ اللّهِ -رِضوانُ اللّهِ تَعَالى عَلَيْهِمْ أَجْمَعينَ-

وأَنَا الفَقيرُ أَضْعَفُ العِبادِ/ عُثمانُ شَوْقي غَفَرَ اللّهُ لَهُمْ ولِوالِديهِمْ ولجَميعِ المُسْلِمينَ اللّهُمَّ أكْرِمْ لَنَا ولَهُمَا في الدُّنْيا بِتَمَامِ نِعْمَتِكَ وفي الآخِرةِ بِرُؤْيَةِ جَمالِكَ يا ذا الجَلالِ والإِكْرامِ وصَلَّى اللّهُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعينَ والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ.

تحريراً في أوائل شهر محرم الحرام في سنة تسع وتسعين ومائتين وألف مِنْ هِجرةِ مَنْ له العز والسعادة والشرف في الدارين.

الشـــاعر
د. عــارف الســاعدي
الشّعرُ مفتاحي للعالم !

د. نصر الدين شردال

ناقد وكاتب

المغرب

الدكتور عارف الساعدي اسم أدبي يعزّزُ المشهدَ الثقافيَّ عبر حضورٍ دائمٍ في أهمّ الفعاليات الثقافية العربية، بنى علاقات مهمة مع المثقفين من مختلف الأجيال والحساسيات، وقام بمبادرات مهمة لصالح الثقافة العراقية والعربية، تقلّد مناصب ومسؤوليات جعلت منه خبيرا ثقافيا رصينا، ورئيسا لاتحاد الأدباء والكتّاب في العراق، ومستشارا سابقاً لرئيس الوزراء السابق للشؤون الثقافية، كتب الرواية والنقد الأدبي، لكن الشعر أقرب إليه من حبل القلب، فيه بثّ لواعجه وأشواقه وسيرته، وسيرة بلده وتحوّلاته، صبّ فيه رؤيته للإنسان والوجود، ومدّ من خلاله جسور المحبة والتفاهم والتعاون في البلدان العربية، ساعيا إلى البناء المجتمعي والحضاري.

وقد ظلّ الشّاعر وفيا لخصائص القصيدة العربية الأصيلة في جزالة لغتها، وإحكام إيقاعاتها، وبراعة صورها، وحداثة رؤيتها، وتخلّق أنساقها، وتعدُّد دلالاتها، وتناسل تأويلاتها، واستمرَّ في بلورة هذه الإمكانيات الجمالية في أعماله الشعرية التالية: «رحلة بلا لون «1999م»، و«عمره الماء 2009م»، و«جرة أسئلة 2013م»، و«مدونات 2015م»، و «آدم الأخير 2019م»، و«سيرة ذاتية لعاشق منسي 2024م»، و«قصائد الحاسوب 2025م»، ولعل القادم أجمل.

في هذا الحوار نلامس معه مجموعة من القضايا التي تمسُّ تجربته الشعرية وراهن الثقافة العربية و مستقبلها.

د. عارف، أبدأ معك من أول تماس لك مع الشعر، كيف كان ذلك؟

الشعر ذلك الكائن الغامض الذي يتسلل إلى أرواحنا، فنغوص فيه دون أن نعرف متى وإلى أين ننتهي، لكنه يبقى أشبه بالحلم الذي حلمناه ولم نصحُ منه، أول التّماسات مع الشعر هي حكايات جدتي لأمي وأنا ابن السنة العاشرة؛ حين كانت تغوص بنا ما بين الأساطير والجنّي والطنطل، مجموعة خرافات أشبه بأفلام الكرتون ولكنها حكايات مخضّبة لبذرة الشعرية، منذ تلك اللحظات وأنا بلا وعيٍ أخزن هذه الحكايا لتخرج فيما بعد كلماتٍ موزونة بلا معنى، حيث أني لم أتجاوز الصف السادس الابتدائي وبدأت بكتابة الشعر، دون أن أعرف ما هو الشعر وكيف يكتب ولماذا؟ كذلك هناك محطات أسهمت بدفعي لهذا الفضاء الساحر، حيث أتذكر أن مهرجان المربد الشعري كان يبث على القناة الرسمية العراقية أواسط الثمانينيات، وهي قناة واحدة، مما يعني أنك ستشاهد كل ما تبثه هذه القناة لأن لا فضاء غيرها، وإذا بالقناة تبث أمسية شعرية يقرأ فيها شاعر، عرفت فيما بعد أن اسمه نزار قباني، لا أتذكر ماذا كان يقرأ، ولكني أتذكر كيف هيمن على الحضور، وكيف كان الناس يقاطعونه بالتصفيق، وكيف هيمن علينا نحن الجالسين في الصالة، وبعضنا لا يقرأ ولا يكتب ولكنه أنشد وانجذب انجذابا عجيبا، وكأن ساحرا بدأ يبث سحره في الوجوه، من تلك اللحظة بدأت أتساءل ماذا يفعل هذا الرجل الذي اسمه نزار قباني؟ ماذا يقول؟ ما هو الشعر؟ كيف هيمن على الدنيا؟ أسئلة عديدة راودتني وأنا طفل غر. ولكن هذه الأسئلة كانت النواة الأولى لتخرج جمل موزونة من روحي، جمل تشبه الخبز المحترق لأن صانعه لا يرى ولا يتمهل، أكتب فقط لمجرد الكتابة، لأن اللحظات الأولى للكتابة فيها من اللذة ما فيها، حتى إنها تفوق الكثير من اللذات، وهكذا كانت البدايات إلى أن بدأت أقرأ وأتابع وأكتب بشكل مختلف.

> **الشعر مشروع دائم لا يتوقف**

> **أنا مستسلم للجماليات أينما تكون وفي أي شكل من الأشكال**

يقول محمود درويش: «الشعر يولد في العراق، فكن عراقيا لتصبح شاعرا يا صاحبي»، ما السر الخفيّ الذي يجعل من العراق بلد الشعراء؟

أعتقد أن العمق الحضاري لبلاد ما بين النهرين منحها هذه السماء الواسعة في الأدب وفي الشعر وفي القول بشكل عام ، فأول قصيدة «لانخدوانا» كانت من هذه الأرض، وأول ملحمة شعرية كلكامش كانت من جنوب العراق من سومر، وأول البكائيات وحيرة الإنسان كانت من هذه الأرض، ثم استمرّت الحضارة بزرع جمالياتها في القول الشعري ليكون امتياز هذا البلد هو الشعر أولا وأخيراً، ولكن حين نتحدث عن الشعر العربي وفترة ازدهاره فإننا لا نعدو بغداد على الإطلاق أيام كانت عاصمة العباسيين عاصمة الدنيا حيث الشعر واللغة والتفسير والبلاغة وكل علومنا التي نتداولها الآن كانت من بغداد والبصرة والكوفة، تلك العواصم التي تحتضن الإبداع العربي شعرا ولغة ونحوا وبلاغة وتفسيرا وسيرة وحديثا، وهذا الأمر ليس هيناً أن تكون مدينتك عاصمة للدنيا لأكثر من خمسة قرون، تأتيها الناس من كل العالم، ويحج الشعراء لخلفائها وأمرائها وقادتها ومتصوفيها، بهذا الجو تنفست بغداد تلك الأريحية الكبرى في أن تكون عاصمة الشعر العالمي، وتمتد جذورها في الأرض حتى العصر الحديث فمن أبي نواس وبشار بن برد وأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء المعري والشريف الرضي ومهيار الديلمي ومئات مئات من صناع الفكر والأدب حتى السياب ونازك الملائكة وعبدالوهاب البياتي وقبلهم الجواهري، هذه السلسلة الشعرية الذهبية في العراق لم تنقطع على الإطلاق، بقي هاجسها التجاوز والاختلاف والإتيان بالجديد دائما، لذلك بقيت أرض العراق أرضاً ينبت فيها الشعراء بسرعة كبيرة لأن ماء قصائدهم لم تقطعه أحزان العراقيين الذين تعودوا على الحزن وأدمنوه حتى أصبح جزءً من يومياتهم التي تتحول إلى نصوص وأبيات شعرية

في غمار التدبير الثقافي والنضال السياسي، كيف تظلّ متمسكا بخيوط الشعر؟

لا أخفيك أن السياسة والعمل الإداري يسهم كثيرا بإفلات تلك الخيوط، فالغوص في وحل اليوميات الإدارية ومشاكل العمل والصراعات تنسيك أنك مثقف، وأن عليك أن تواصل مشروعك الشعري الذي يبقيك حياً أولاً وأخيراً، فكل شيء سيذهب أدراج الرياح بعد سنوات، وما يتبقى هو ما تكتبه وتتركه للزمن، لهذا فإني أسرق الوقت بين مدة وأخرى لأعود طفلا باراً بالشعر، أكتبه فأنتشي، ولكن ما يشفع لي أن جل عملي هو في الإدارة الثقافية التي تضعني في المناخ الثقافي يوميا، ومع هذا فأنا أشعر بتقصير إزاء القصيدة، القصيدة هي بيتي ورهاني في هذه الحياة.

تجربتك الصحفية من خلال ترؤّسك تحرير مجلة الأقلام وغيرها، ما الذي أضافته للتجربة؟

لا أستطيع القول جازما بأني صحفي متمرس، فأنا لا أتطفل على هذه المهنة، أما إدارتي لمجلة الأقلام، وهي تعد من أهم المجلات الثقافية في العراق وفي العالم العربي، ذلك أنها واكبت حركة الحداثة وأصبحت ميدانا للجدل الحداثي ومناهج النقد أيضا، فإن هذه الإدارة كانت بروح الشاعر الذي يتطلع للجديد وليس بنفس الصحفي الخبير، وأظن الفرق بينهما شاسع، لذلك استطعت أن أصنع سياقاً جديدا للمجلة، وأن أفتح أبوابا جديدة، وأن أحاور أسماء عربية مهمة كانت شبه منقطعة عن العراق بسبب الأوضاع السياسية التي مرت، وبهذا غيرت من سياسة المجلة ومحتواها وأضفت ما استطعت إضافته في مواكبة الإصدارات الحديثة في العالم، لتكون هذه المجلة كما كانت رائدة في ميدان الأدب الحديث.

منذ امرئ القيس إلى نزار قباني وليس انتهاءً بعارف الساعدي... وأغلب شعراء العراق على صلة بالسياسة، هل بإمكان السياسة أن تغني الشعر؟ هل بإمكان الشعر أن يوجه السياسة؟

ربما هي لعنة أكثر منها نعمة، أن تتورط في السياسة أو المناصب الإدارية في هذا البلد، فمنذ امرئ القيس كما تفضلت حين قال: «نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا»، حتى المتنبي الذي كان يطمح بولاية يحكمها، إلى الشريف الرضي الذي كان يقول للخليفة: «كلانا في المعالي معرق، إلا الخلافة ميزتك فإنني أنا عاطل عنها وأنت مطوق»، حتى وصولنا إلى الزهاوي والرصافي والجواهري وجيلهم من الذين كانت جلّ قصائدهم عن السياسة وأحوال البلاد، فالرصافي أصبح نائباً في مجلس المبعوثان العثماني (البرلمان)،

> **الشعراء المتمردون لهم القدرة على المفاجأة والاقتحام والمسير في أرض بكر دلالة وتركيبا وصورة واستعارة**

والجواهري نائباً في مجلس النواب أيام الملكية وكان طموحه أن يكون وزيرا حتى إنه يسرد في مذكراته كيف انزعج وكاد أن يمزق عباءته حين علم باستيزار أحد أقاربه وهو الشاعر المعروف علي الشرقي لوزارة المعارف ولم يختاروه فاستشاط غضبا، وهكذا استمر الصراع بين السياسي والثقافي. فالسياسة جزء رئيس من حياة المثقفين العراقيين سواء الموالون أو المعارضون كلاهما متكهرب بالسياسة، ولكن وعودة إلى سؤالك وإمكانية تأثير الشعر على السياسة، فإن هذا الأمر يخضع للشخوص بشكل كبير ومدى قدرتهم وشاعريتهم على التأثير في سحب السياسي للثقافي، وهذا ما حاولته في تجربتي، والثقافي الذي يدخل السياسة والإدارة مهما تقدّم به المنصب يبقى في داخله «صعلوك ثقافي متمرد».

في عملك الشعري «قصائد العائلة» جمعت بين قصائد النثر والتفعيلة، ومع ذلك لم تتخلّ عن القصيدة العمودية... ما حدود المجاورة والمصالحة في تجربتك الشعرية؟

كنت راديكاليا أيام شبابي، منتصراً للشعر العمودي وطاردا كل أنواع الشعر الأخرى من حظيرة الشعر، ولكن بمرور الزمن وتنوع التجارب واكتساب الخبرة والدراسة الأكاديمية، يتضح فيما بعد مدى مراهقتنا الثقافية، حيث كنا مراهقين حمقى، الآن أنا مستسلم للجماليات أينما تكون وفي أي شكل من الأشكال، المهم أن تكتب روحك وذاتك وتجربتك، لا أن تكتب بروح وتجارب الآخرين، لذلك خرجت دواويني الأخيرة، وهي متنوعة بل إن الشكل الحديث طبع معظمها دون حساسية في الأمر، فتجد في الديوان تجاوراً لا تنافرا بين الأشكال الشعرية، وهذه الخلاصة لم أصل لها وأنا ابن العشرين إطلاقا، بل هي نتيجة طبيعية للخبرة والقراءة، وتشتت الجماعات الشعرية التي تتشكل ومن ثم تنتهي إلى الفردانية، ذلك أنّ الشعر تجربة فردية خالصة.

هل في قدرة القصيدة العمودية، خاصة مع الجيل الجديد التقاط «شعرية اليومي»، والذي هو ملمح كتابي لقصيدة النثر؟

هذا ما كنا ننادي به في إمكانية الشعر العمودي أن يستوعب التجربة الحديثة، وأن يكون وعاء لنصوص جدلية وإشكالية لم يتعود عليها النص التقليدي، وهنا أتذكر مفتتحا جميلا للدكتور عبدالعزيز المقالح-رحمه الله-في دراسة له عن الشاعر الكبير عبدالله البردوني حيث يقول: «من منكم شمّ بارفان فرنسي ولكن بعلبة زجاج قديمة» وهذا بالضبط ما كنا نحاول إثباته في أن القصيدة العمودية التي كنا نكتبها تختلف عن السائد في الشعرية العراقية والعربية، وأن هذا الشكل الذي قال عنه النقاد الحداثويون بأنه مات، فإننا نقول لهم ما زال حياً، وما زالت هناك مساحات للتعبير من خلاله، ذلك أنّ الإشكال ليس في الشكل، وإنما في الشاعر الذي يطوي جناحه تحت هذا الشكل فيسحبه للجاهز والنمطي والتقليدي، أما الشعراء المتمردون فلهم القدرة على المفاجأة والاقتحام والمسير في أرض بكر دلالة وتركيبا وصورة واستعارة... وهذا ما أطلقنا عليه بـ(قصيدة الشعر) قبل ما يقرب من ثلاثين عاما.

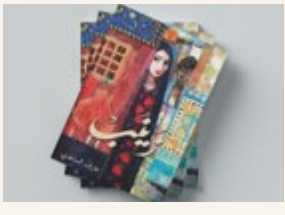

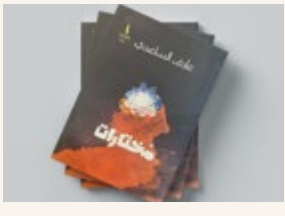

أُنجزت حول أعمالك الأدبية والشعرية أطاريح وكتب نقدية ودراسات، هل أنتَ راضٍ عمّا كتبتَ وعمّا كُتب حول تجربتك؟

بصراحة كتب عني الكثير من الدراسات الأكاديمية والكتب النقدية، أكثر من ثلاثين أطروحة ورسالة ماجستير، وما يقرب من عشرة كتب نقدية لنقّاد كبار تشرفت بدراستهم تجربتي الشعرية، ومئات المقالات والدراسات والبحوث، وهي كلها محل اعتزاز لذلك الفتى الذي كان لا ينام الليل حين يُكتب عنه حرف واحد لناقد أو كاتب ما، أما عن سؤالك. فالحقيقة أنا لست راضيا عن شعري فكيف أرضى عن النقد الذي يكتب عنه؟

ومع هذا فالكتب والبحوث البعيدة عن الدراسة الأكاديمية كانت أكثر نضجاً وأعمق بكثير من الدراسات الأكاديمية، ولكن هناك عدد لا بأس به من الباحثين الأكاديميين الرائعين الذين تناولوا تجربتي درساً وتحليلا، فقد كانت غنية بإشاراتهم وتحليلاتهم النقدية الذكية، ولا شك كل تلك الكتابات ستغني التجربة وتسلط الضوء النقدي على مناطق ومحطات ربما كانت غفلا على الشاعر نفسه.

في عملكَ الشعري «قصائد الحاسوب» ترصد توحش الدكتاتورية التكنولوجية، وتنتصر للشعر، فأي دور يقدّمه للإنسان في زمن الهيمنة الرقمية وسيطرة الذكاء الاصطناعي؟

للأسف لا دور للإنسان في هذا المناخ الإلكتروني المتوحش، ما نقوم به نحن الشعراء هو الرثاء فقط والبكاء على الأطلال، وأطلالنا بسيطة جدا وهي العودة إلى الهاتف الأرضي والجلوس في الصالة مع الإخوة والأم والأب ومشاهدة التلفاز، والتحلق حول الموقد في ليالي الشتاء والجلوس على الأرض حين تمتد سفرة الطعام، هذه أحلامنا لا أكثر ولا أقل، ذلك أننا نعيش الوحدة والاغتراب داخل عوائلنا، أولادنا معنا في البيت، ولكنهم لا يجلسون معنا على المائدة، ولا يتحدثون معنا، كل منهم في زاوية منعزل عن الآخر، الوحشة فقط هي التي تطبق فكيها علينا، نحن نتواصل مع الجميع في أبعد نقطة من العالم، ولكننا داخل عوائلنا منعزلون ومنفردون، لذلك خرج ديوان قصائد الحاسوب بهذا المناخ وهذا الجو الذي يختلط فيه هجاء هذه الأيام الرخوة والبكاء والرثاء لتلك الأيام التي سلفت، وهي فكرة شعرية كما أزعم، ولكننا نعيش المفارقة في الوقت نفسه، فأنا أشتمّ التقنيات الحديثة و«الموبايل» وعزلتنا، ولكني كتبت هذه الشتيمة «بموبايل اي فون 16» كما أني أكتب هذا الحوار بهذا «الموبايل».

> **الشعر بشكل عام هو قيمة إنسانية كبرى، الكتابة والتفكر عمل إنساني عظيم**

تستوقفني كثيرا قصيدتك «الليلة المنسية من ألف ليلة وليلة»، كما تستوقف غيري من القراء والنقاد؛ نظرا لما تنطوي عليه من بناء درامي محكم، وأنت تكتب القصيدة، هل تتقصّد هذا البناء؟

لست بالعادة أتقصد البناءات المحكمة في كتابة القصيدة، ودائما أقول إن القصيدة هي التي تأخذ شكلها بأريحية عالية، ولكن الليلة المنسية من ألف ليلة وليلة كانت إلى حد كبير مخططا لها بعد صراع أيام عديدة، حين علمت باختياري الشخصية العربية المكرمة في مهرجان الشعر العربي في الشارقة العام 2024م، وهذا يعني أنني سأقرأ في الافتتاح وبحضور الشيخ سلطان القاسمي، مما يستوجب أن أكتب جديدا، فكتبت نصاً ومسحته، وكتبت مطالع لم أقتنع بها، إلى أن أتت فكرة هذه القصيدة، وهي سرد اللحظة العباسية التي كانت في بغداد قبل ألف ومئتي عام، فولدت هذه القصيدة بهذه القصدية، لحظة الصعود العربي في بغداد بمواجهة لحظة الانكسارات العربية الحديثة التي خسرنا بها المدن والقرى والبلدات والأرواح والأطفال وكل شيء، خسرنا كل شيء، لذلك ذهبنا إلى الشعر لصنع التوازن داخل الروح المنكسرة.

في هذا الواقع العالمي المتقلب، هل ينجح الشعر في الحفاظ على القيم الإنسانية واستمرارها؟

القيم الإنسانية لا تحتاج إلى الشعر لكي تحفظ ، القيم الإنسانية هي مزروعة بالفطرة مع الإنسان، ومن لا قيم له لا يمكن التعويل على إنسانيته مطلقا، أما الشعر، فإنه بشكل عام هو قيمة إنسانية كبرى، الكتابة والتفكر عمل إنساني عظيم، ولكن حين يتقصد الشعر القيم الإنسانية والحكم والأخلاقيات فإنه يتحول إلى حكيم وقاضٍ ربما، وهذا ما يضر بالشعر وبالشعرية كثيرا، الشعر هو ابن البرية الذي لا تحده حدود، ولا يقف إلا في الزوايا الحادة والجارحة ومنطقه الوحيد هو كيف يصنع من هذا اللغة العاقلة جملاً وتراكيب مجنونة ومتمردة تضيف معنى جديدا لهذا العالم البارد.

أيُّ دورٍ للشعر في تفعيل آليات الدبلوماسية الثقافية؟

لا شك أن القوى الناعمة تعمل عملها الدبلوماسي بشكل عظيم، فكثير من دول العالم عُرفت من خلال روايات مبدعيها، أنا مثلا عشت في كولومبيا وتحديدا في قرية ماكوندا أياما وليال طويلة، ولكن من خلال رواية مئة عام من العزلة لماركيز، وكذلك بقية الروايات التي كتبها كبار الروائيين عن مدنهم وبلداتهم، كانت تعمل عملا يعادل دور السفراء وأكثر بعشرات المرات. السينما والدراما والفن التشكيلي والمسرح والموسيقى والشعر والرواية... كلها عوامل وآليات دبلوماسية غير رسمية، ولكنها أقوى بكثير من القنوات الرسمية للبلدان، لذلك التركيز عليها من قبل الحكومات عنصر ذكاء منها، فلو تأخذ الآن كرة القدم، فإنك ستطل على عوالم ومدن وبلدان لم تسمع بها، وحين تشاهد المباريات ستسمع من المعلقين ثقافات تلك البلدان وعاداتهم والكثير من خفاياهم، هذا هو المهم في القوى الناعمة.

هل من مشروع شعري جديد؟

الشعر هو مشروع دائم لا يتوقف عندي، لأني بصراحة لا أعرف ولا أُحسِن عملا غيره، الشعر هو مفتاحي لهذا العالم، وكل ما عندي الآن هو بسبب الشعر... شكرا جزيلا لكم الدكتور الفاضل، ولهذا الحوار الذي أعده مهما لأسئلته الذكية والمختلفة.

المشربيّات العربيّة

وفيق صفوت مختار

كاتب وباحث

مصر

تعرف المشربيَّة بأنَّها ذلك الجُزء البارز، عن سمت حوائط جُدران المباني، التي تطل على الشَّارع، أو على الفناء الأوسط للبيوت الإسلاميَّة، من أجل زيادة مساحة سطوح الأدوار العُليا، ويستند هذا الجُزء البارز، إلى كوابيل ومدادات من الحجر أو الخشب، تربط الجُزء البارز من المبنى، بينما تُغطَّى الجوانبُ الرَّأسيَّة الثَّلاثة، لهذا الجُزء البارز بحشواتٍ من الخشب الخرط، المُكوّن من برامق مخروطيَّة الشَّكل، دقيقة الصَّنع، تُجمَّع بحيث ينتج عند تجميعها، أشكال زُخرُفيَّة هندسيَّة ونباتيَّة، أو كتابات عربيَّة.

ويعُود تاريخ ظُهور المشربيَّات إلى القرن السَّادسِ الهجريّ (الثَّالثَ عشرَ الميلاديّ)، أي مع بدايات العصر العبَّاسيّ، فقدِ استُخدِمت في القُصُور والمباني على نطاق واسع حتَّى أصبحت من أهم عناصر العمارة الإسلاميَّة، أمَّا في العصر العُثمانيّ فقد وصلت صناعة المشربيَّات إلى أبهى صُورها.

وقد عرفت «المشربيَّة» في بعض الدُّول الإسلاميَّة باسم: «الرَّوْشَان»، أو «الرَّوْشَن»، وهي تعريب للكلمة الفارسيَّة «روزن»، التي تعني الكُوَّة، أو النَّافذة، أو الشُّرْفة. وسُمِّيت في العراق باسم «الشناشيل»، التي يقال إنَّها تعني: «مقصُورة الملك».

عرفت «المشربيَّة» في بعض الدُّول الإسلاميَّة باسم: «الرَّوْشَان»، أو «الرَّوْشَن»، وهي تعريب للكلمة الفارسيَّة «روزن»، التي تعني الكُوَّة، أو النَّافذة، أو الشُّرْفة

وعن أصل تسمية كلمة «مشربيَّة» يذكُر عُلماء الفُنُون الإسلاميَّة أنَّها كلمة مُحرَّفة من «مشربة»، بمعنى الغُرفة العالية أو المكان الذي يُشرب منه؛ وكان يُوضع في خارجات صغيرة بها أواني الشُّرب الفخَّاريَّة «القُلَل» لتبريد المياه بداخلها، التي كانت تُرَصُّ داخل صِينيَّة نحَّاسيَّة لامعة تُوضع وراء المشربيَّة، لتزداد مياهُها بُرُودة طبيعيَّة مُنْعشة، عندما يمرُّ الهواء على «القُلَل» ذات الطَّبيعة المساميَّة، وكانت هذه «القُلَل» تُقْفَل وتُزيَّن فُوَّهاتُها بغطاءٍ نحَّاسيٍّ دقيقٍ، تلميعه كان من ضمن مهام فتيات الدَّار، وكان يُعلَّق عليه أحيانًا مسابحُ فيرُوزيَّة تزيدُه جمالًا وروعةً.

ونجدُ من يقُول إنَّ كلمة «مشربيَّة» تحريف للفظة «مُشرَئبّة» اسم فاعل من اشرأبّ، بمعنى: مَدّ عُنُقه لينظُر، وكذلك بمعنى ارتفع. وقيل أيضًا إنَّها تحريف ظاهر لكلمة «مشرفيَّة»، وذلك لأنَّ نساء البيت كُنَّ يُطلِلْنَ منها على الطَّريق، أو لكونُها طاقةً خارجةً تُشرف على الطَّريق. أو رُبَّما اشتقت كلمة «مشربيَّة» من مصطلح «التَّشريب»، وهُو عمل حُزُوز قليلة العُمْق أو تَعْرِيقَات قليلة البروز في الخشب.

وظائف المشربيَّات:

أولًا: الوظيفة الفيزيائيَّة:

أ- ضبط درجات الحرارة:

بما أنَّ المشربيَّة سمحت بالفتحات الكبيرة في الجُدران، فقد أصبح من المُمكن لتيَّار ثابت من الهواء أن يمرّ من فتحاتها الصَّغيرة إلى داخل الغُرف، ممَّا يُساعد مُستخدمي المكان على فقد الحرارة من أجسامهم بالتَّعرُّق. وقد اعتاد السُّكَّان المحلِّيُّون على وضع آواني الشُّرب الفخَّاريَّة في المشربيَّات، ممَّا يسمح للهواء الدَّاخل إلى المبنى أنْ يفقد من حرارته في تبخير أجزاءٍ من مياه الشُّرب في الآنية، فيدخُل الهواء البارد (نسبيًّا) إلى الغُرف.

وفي الشِّتاء يسمح تصميم القُضبان وفتحات المشربيَّة لأشعَّة الشَّمس بالدُّخُول إلى الفراغ العماريّ الدَّاخليّ، إذ تُصَمَّم هذه الفتحات مع مراعاة زوايا سُقُوط الشَّمس شتاءً، (إذ إنَّها تكون أقرب إلى الأرض)، فيزيد ذلك من درجة حرارة الدَّاخل ويُشعِر السُّكَّانَ بالدِّفء.

ب - ضبط تدفُّق الهواء:

وعن طريق المشربيَّة يُمكن التَّحكُّم في سرعة الهواء وتدفُّقه داخل الحيِّز الدَّاخليّ للمسكن أو المبنى، وذلك باختلاف فراغات المشربيَّة في الأجزاء السُّفليَّة والأجزاء العُليا؛ فنجدها ضيِّقة في الأجزاء السُّفليَّة من المشربيَّة ومُتَّسعة في الأجزاء العلويَّة، وتحقق الأسطح الكرويَّة لعناصر الخرط انزلاقًا للهواء عليها؛ ممَّا يُعطي تهوية جيِّدة أكثر ممَّا إذا كانت هذه الأسطح مُربَّعة أو مُستطيلة، ويتيح بروز المشربيَّة عن مستوى الحائط لها التَّعرُّض لتيَّارات الهواء المُوازية لواجهة المسكن أو المبنى.

ثانيًا: الوظيفة الاجتماعيَّة:

المشربيَّات واحدة من العناصر المعماريَّة التي استوحاها الفنَّان المُسلم من شريعته الغرَّاء، فقد ساهمت العقيدة الإسلاميَّة والنُّظم الاجتماعيَّة بما تتضمَّنُه من قيمٍ وتعاليمَ في خصائص العمارة، وفي مُقدَّمة هذه الخصائص الحفاظ على الخُصُوصيَّة للأُسرة المُسلمة، وذلك بعمل نوافذَ تُطلُّ على الشَّارع ثُمَّ مُعالجتها باستخدام المشربيَّات لتُضفي على تصميم البُيُوت طابعًا خاصًّا من التَّستُّر والمُحافظة على حُرمة الأسرة وحماية أهل المنزل من عُيُون المارَّة في الشَّوارع والطُّرقات، وكذلك من عُيُون أهل البُيُوت والمساكن المُقابلة.

ثالثًا: الوظيفة الجماليَّة:

حافظ الصَّانع المُسلم على القيِّم الجماليَّة في صناعته للمشربيَّات، بل وجد فيها مجالًا خصبًا لإبراز قُدراته الهندسيَّة والفنِّيَّة والزُّخرُفيَّة، فقد وصل فنُّ صناعة المشربيَّة درجة كبيرة من الإتقان، واكتسبت مزيدًا من الرَّوْعة والجمال، وأضْفَت على واجهات البُيُوت والمباني العربيَّة الإسلاميَّة حيويَّة وبُعدًا عن رتابة المنظر بما تحتوي من عناصرَ زُخرُفيَّةٍ بديعة، فكانت أحيانًا تُملأ بقطع من الخشب؛ بحيث تُؤلِّف أشكالًا زُخرُفيَّةً من الزَّخارف النَّباتيَّة والهندسيَّة وبعض أشكال الطُّيُور، فضلًا عن بعض الكتابات، مثل: الله، أو

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، وكان للصَّانع المُسلم لمسَّاته الفنِّيَّة وصنعته الماهرة في التَّوظيف الهندسيّ لأشكال الخرط الدَّقيق، فجعله على هيئة مُكعَّباتٍ صغيرةٍ دقيقةٍ أو كُرات خشبيَّة، أو بشكل مُستطيلات ومُربَّعات صغيرة يربط بينها أعوَّادٌ خشبيَّة أُفُقيَّة ورأسيَّة مُتقاطعة.

انتشار المشربيَّات في مصر:

اشتهرت مصر بِبراعتها وتفرُّدها في النَّجَّارة الإسلاميَّة والمشغُولات الخشبيَّة، خاصَّة في استخدام أخشاب الخرط الدقيقة الصنع، ومن هُنا تميَّزت بصناعة المشربيَّات، وزاد الصانع المصريّ عليها الطَّابعَ الإسلاميّ الخالص. ويعُود فنّ صناعتها في مصر إلى حقبة الحُكم الفاطميّ، أمَّا في العصرين المملُوكيّ والعُثمانيّ فقد وصلت صناعة المشربيَّات قمَّة ازدهارها ورونقها.

> **المشربيَّات واحدة من العناصر المعماريَّة التي استوحاها الفنَّان المُسلم من شريعته الغرَّاء بما تتضمَّنُه من قيمٍ وتعاليمَ وفي مُقدَّمتها الحِفاظ على الخُصُوصيَّة للأُسرة المُسلمة**

ويُعَدُّ الصَّانع أو النَّجَّار المصريُّ أوَّل مَنْ قام بتطوير شكل المشربيَّة وقدَّمها إلى العالم كُلِّه في شكل واجهاتٍ خشبيَّةٍ رائعة الجمال، فأدخل الأرابيسك ليكون العامل الأساس لتشكيلها

> **اشتهرت مصر بِبراعتها وتفرُّدها في النَّجَّارة الإسلاميَّة والمشغُولات الخشبيَّة، خاصَّة في استخدام أخشاب الخرط الدقيقة الصنع**

بدقَّة خرطه للخشب على شكل مُكعَّبات وكُرات ومُستطيلات، وتعشيقها بطريقة العاشق والمعشُوق، وظهرت مهارتُه في الزَّخارف المُستلهَمة من البيئة من حوله، فظهرت زخارف للطُّيُور والحيوانات والنَّباتات والأشكال الهندسيَّة، ثُمَّ أدخل عليها الكتابات الإسلاميَّة، ومع تطوُّر الحرفة وزيادة الطَّلب عليها، زِيدَ الزَّجَّاجُ المُلوَّنُ، وزوايا النُّحاس؛ لإضفاء الفخامة والتَّميُّز عليها، والعامل المُشترك بين جميع المشربيَّات وجود مكان خاص للقُلَل الفخَّاريَّة، مُوجَّهةً تجاه الهواء لتبريد ماء الشُّرب.

ومن أجمل الأماكن التي ما زالت تُظهِرُ فنّ المشربيَّات بصُورةٍ واضحةٍ تلك التي تُزيِّن واجهات القُصُور والبُيُوت والأسبلة الباقية بالقاهرة التَّاريخيَّة، كما في مُتْحف الفنِّ الإسلاميِّ بالقاهرة، بميدان باب الخلق، وقصر «الأمير سيف الدِّين بشتاك النَّاصري» بشارع المعزِّ لدين الله الفاطميّ، الذي أُنشئ في سنة 1334م، ومدرسة السُّلطان «النَّاصر حسن بن قلاوون» الأثريَّة، التي أنشأها بين عامي 1362/1356م، وقصر السُّلطان «قايتباي المحمُوديّ الأشرفيّ»، الذي بُنِيَ في سنة 1475م، بحي السَّيِّدة زينب.

ومن البُيُوت التي تُزيِّنُها المشربيَّات بيت «زينب خاتُون» الذي أقامته في سنة 1486م الأميرة «شقراء هانم» حفيدة السُّلطان «الناصر حسن بن قلاوون» أحد سلاطين المماليك، و «بيت الكريتلية»، الذي

من أجمل الأماكن التي ما زالت تُظهِرُ فنّ المشربيّات بصُورةٍ واضحةٍ تلك التي تُزيِّن واجهات القُصُور والبُيُوت والأسبلة الباقية بالقاهرة التَّاريخيَّة

بناه المُعلّم «عبد القادر الحدَّاد» سنة 1540م، وبيت «جمال الدِّين الذَّهبي» الذي بُنِّي في سنة 1637م، بحارة حوش قدم المُتفرِّعة من شارع المُعزّ لدين الله بالغوريَّة.

ويُعَدُّ «بيت السَّحيمي» بالدَّرب الأصفر المُتفرِّع من شارع المُعز لدين الله بحيّ الجماليَّة نمُوذجًا فريدًا من نماذج عمارة البُيُوت السَّكنيَّة الخاصَّة، وكذلك «بيت الهراويّ»، الذي أُنشئ سنة 1731م، في شارع مُحمَّد عبده بالأزهر.

ونرى كثيرًا من المشربيَّات وهي تزين كثيرًا من الأسبلة التَّاريخيَّة، مثل: سبيل: «رُقيَّة دُودُو»، الذي يقع على مقربةٍ من ميدان القلعة بالقاهرة، وقد بُنِيَ في سنة 1761م. وسبيل« مُحمَّد عليّ باشا»، الذي أنشأه في سنة 1880م على روح ابنه «طُوسُون» ويقع بالعقَّادين، وأيضًا سبيله الذي أنشأه في سنة 1882م على روح ابنه «إسماعيل»، الذي يقع في شارع النَّحَّاسين.

المراجع:

-1 بركات محمد مراد (دكتور): رؤية فلسفية لفنون إسلامية، القاهرة، مكتبة مدبولي، 2009م.

-2 حسن الباشا: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، مجلد 2، بيروت: أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، 1999م.

-3 رشاد محمود الزيني: المشربية كعنصر تشكيلي ووظيفي في العمارة الداخلية، رسالة لنيل درجة الماجستير، القاهرة، جامعة حلوان، كلية الفنون الجميلة، ، 1999م.

-4 عبد السلام أحمد نظيف: دراسات في العمارة الإسلامية. القاهرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989م.

-5 مايسة محمد محمود: أساليب تغطية النوافذ في عمائر المماليك بالقاهرة، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآثار الإسلامية، 1980م.

-6 يحيى وزيري (دكتور): موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مجلد 1، القاهرة، مكتبة مدبولي،1999م.

7- Fathy, H. (1986). Natural Energy and Vernacular Architecture (Principles and Examples with References to Hot Arid climates. (W. Sheaver, & A. -e.-R. Sultan, Eds.) Chicago, London: The University of Chicago Press.

8- Feeney, J. (1974, July- August). The Magic of The Mashrabiyas. Saudi Aramco World: Arab and Islamic Cultures and Connection.

9- Khalil, K. F., & Wahid, J. (2013, January). The Proportional Relations Systems of Islamic Architecture. International Journal of Scientific and Research Publications.

السير الذاتية هنا وهنـــاك

د. أمير تاج السر

روائي

السودان

أنا من المغرمين بقراءة السير الذاتية، خاصة لدى المبدعين، والأشخاص الذين تركوا آثارا كبيرة وعظيمة في حياة شعوبهم، ومستقبلهم، ولدي كتب كثيرة في السيرة، بعضها عربي، وبعضها أجنبي، قرأت بعضها وأحاول أن أقرأ الآخر، ودائما لا يوجد وقت كافٍ لتفعل كل شيء، خاصة للذين يعملون في مهن شاقة مثلي. أيضا كتبت سيرة ذاتية، كتبت عن العمل وتداعياته وما كنت أصادفه في الريف الذي عملت فيه وفي المدينة أيضا، وأفخر بأن بعض هذه السير، قفزت إلى بعيد، ويتم تناولها على نطاق واسع في النقاشات وأيضا في التعليم.

من السير الملفتة فعلا بالرغم مما بها من عنصرية وأحيانا إخلال بالذوق العام، سيرة الروائي اليهودي: عاموس عوز: «قصة عن الحب والظلام»، التي صدرت عن دار الجمل بترجمة عن العبرية منذ سنوات، عاموس في هذا الكتاب يكتب سيرة نقية غير مغسولة أبدا، سيرة حقيقية بأمجادها وسقطاتها، هو غير مقيد بالأخلاق، ويتبع في الكتابة ما تمليه عليه عقيدته العنصرية، الاحتلالية، يصف الحياة من جانب عائلته وأصدقائه ومجتمعه بالحياة التي كان يمكن أن تكون سهلة، لولا أن صعبها الفلسطينيون، وينسى أن مجتمعه هو من صعب على الفلسطينيين حياتهم، بالقدوم إلى أرضهم واحتلالها، أيضا يتحدث عن علاقات شائكة ومحرمة بتلقائية شديدة، ولا يستحي من كتابة كل ما لا يمكن كتابته عادة، إذا ما كانت هذه سيرة عربية.

أيضا أحب كتاب «تقشير البصلة»، للألماني ذائع الصيت غونتر غراس، إنها سيرة الحرب والحب، سيرة الصبي الذي كبر في الدولة النازية، وحارب باسمها، وحاول في آخر حياته أن يعثر على انتماء ما، ومعروف أن غونتر غراس يكتب الشعر أيضا، ولا يخفي تعاطفه مع الدولة العبرية، ولكن عموما كتابته رائقة وهادئة، وتوحي بالكثير من الثقة، واحترام القارئ الذي يقرأها، وحتى في روايته الشهيرة: «الصخب والعنف» التي قرأتها بترجمة العراقي الراحل: حسين الموزاني، يبدو غراس جذابا وكاتبا تثق في نواياه أحيانا وليس دائما.

هناك: «ألوان أخرى»، للتركي: أورهان باموق، إنها ألوان أخرى بالفعل، وهي سيرة للكتابة والمحبة، والسير في خط مبدع ينتهي دائما بكتاب مبدع وممتع، لقد قرأت «ألوان أخرى» لأورهان باموق مرات عديدة، وانبهرت من طريقة احترامه لكتابته، فهو لا يجلس في مكان عام، ولا يقرب المقاهي الضاجة، ولا يبقى في بيته بين حديث الأهل ومشاجراتهم وروائح الطعام، هو يستأجر مكانا بعيدا داخل اسطنبول، يكتب فيه روايته في عزلة تامة، ولا يغادره حتى ينتهي، وهنا يحس بالارتياح، أيضا تحدث عن علاقته بزملائه الكتّاب، وهي علاقات مريحة في معظمها، وأمتع حديثه عن مدينته الأثيرة أسطنبول التي أوحت إليه بالكتابة، وأوصلته إلى قاعدة كبيرة من القراء حول العالم، وأيضا إلى جائزة نوبل، كبرى الجوائز الأدبية.

السيرة الأكثر إشعاعا، هي تلك التي كتبها الإنجليزي: جيرالد مارتن، وهو أستاذ في الأدب عن «غابرييل جارسيا ماركيز»، وقد التقيت مارتن مرة في لندن، وأخبرني أنه استغرق ثمانية عشر عاما لإنجاز هذا الكتاب، وكان يسافر بانتظام إلى المكسيك حيث يقيم ماركيز للجلوس معه، وإضافة ما يعثر عليه من شيء داخل ذاكرته التي كانت مشعة آنذاك. في كتاب جيرالد ستعثر على ماركيز متشردا وفقيرا وصحفيا صغيرا في كولومبيا، وستعثر عليه مراسلا لصحيفة محلية في أوروبا وستجده بعد ذلك منجزا لمئة عام من العزلة، إحدى علامات الرواية في أي زمن وغيرها من الروائع مثل «الحب في زمن الكوليرا» و«أحداث موت معلن»، ، وتجده في الآخر ثريا جدا ومتلكا لعقارات وأموال بلا حصر. إنها سيرة كبيرة ومهمة لمن يبحثون عن الإلهام والاقتداء بمبدعين كبار، لم يصلوا إلى القمة هكذا اعتباطا وإنما بجهد وصبر.

سأذكر سيرة محلية خاصة، وهي «سيرة الشيخ بابكر بدري»، رائد تعليم البنات في السودان، ومؤسس مدارس الأحفاد التي ما زالت تعمل بكفاءة، السيرة بعنوان: «حياتي»، وقد توقعت أن تكون سيرة مغسولة ومنقاة من الصراحة كسائر السير العربية، لكني فوجئت بها صريحة تماما ويبدو أنني عثرت على نسخ قديمة، لم يتم تعديلها في ما بعد، عموما هي سيرة مهمة، عن زمن المهدية، وزمن ما بعد ذلك وزمن الأحفاد.

أعمال الدورة الـ15 للمؤتمر العام للإيسيسكو - قازان، تتارستان - 13 مايو 2026

JOIN US ! انضموا إلينا REJOIGNEZ-NOUS